تراثنا

المجلد الخامس

من

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيوني

صدَّر له

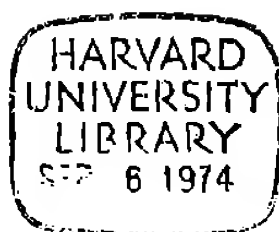
الأستاذ حسن عباس زكي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠

al-Qushayrī

"Laṭā'if"



بسم الله الرحمن الرحيم

« طسٓ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين »

. . . تلك دلالاتُ كَرَمِنا ، وأماراتُ فَضْلِنا ، وشواهد بِرِّنا ؛ نُبيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونحقق للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا .

بطهارة قُدْسِى وسناءِ عِزِّى لا أخيب أَمَلَ مَنْ أَمَّلَ لُطْفِى ، بوجود بِرِّى تطيب قلوبُ أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفى ، وسَعْىُ العاملين مشكورٌ بعطفى .

هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل لِمَنْ حَقَّقْنا له الإيمان ، وأكَّدنا له الضمان ، وكفلنا له الإحسان »

عبد الكريم القشيرى

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز يرتضى من الزاهد تَرْكَ دنياه ، ومِنَ العابد مخالفة هواه ، ومن القاصد قَطْعَ مُناه ، ولا يَرْضَى مِنَ العارفِ أَنْ يُساكِنَ شيئاً غيرَ مولاه . إنْ خَرَجَ عن كُلِّ مرسومٍ — بالكلية ، وانسلخ عن كل معلومٍ — مِنْ غير أن تبقى له منه بقية فلعلَّه يَجِدُ شظيَّة . وإنْ عَرَّجَ على شيء ، ولم يَصْفُ من الكدورات ـ حتى عن يسيرها ـ وإنْ دَقَّ ـ فإنه كما فى الخبر : « المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » .

قوله جل ذكره : « طسم * تلك آياتُ الكتاب المبين »

ذَكَرْنا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ فى الحروف المُقَطَّعة ؛ فعند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه ، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته ، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله فى آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى ، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات فى الدنيا والعُقْبَى[1] .

---

(١) أورد القشيرى في كتابه « المعراج » طائفة كبيرة من الأخبار نفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لم يتطلع إلى شيء مما رأى من عجائب المخلوقات وعظائم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالص القصد إلى الحق ، وبعبارة صوفية دقيقة : كان فانياً بحقوق ربه عن حظوظ نفسه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول رويم : «لما أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المسرى علت همته عن الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجنة والنار ، فما زاغ البصر ؛ أى ما أعار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلّ الأنهار والأودية . (المعراج ص ١١٢)

ويقول القشيرى فى ص ١٠٢ من الكتاب نفسه: يروى فى الخبر أنه «لما ركب البراق لم يعرِّج على شىء» =

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح ، والسين سرورُ العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده[1] والميم إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التخيُّر على الله ، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيبِ قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لـكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزَّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأَرْفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق ، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألا يكونوا مؤمنين » .

أى لِحِرْصِكَ على إيمانِهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أَنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان .

فلا عليكَ — يا محمد — فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنا ؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِن . ليس عليكَ إلا البلاغ ؛ فإنْ آمنوا فبها ، وإلاَّ فَكُلُّهُم[2] سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون .

قوله جل ذكره : « إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عليهم من السماء آيةً فَظَلَّت أعناقُهم لها خاضعين » .

أخبر عن قدرته على تحصيلِ مرادِه من عباده ، فهو قادرٌ على أَنْ يُؤْمِنوا كَرْهاً ؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل المرادِ يوجِبُ النقصَ والقصورَ فى الألوهية .

قوله جل ذكره : « وما يأتيهم مِنْ ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلاَّ كانوا عنه معرضين » .

= كان يُنَادىَ من يمينه ومن يساره ، ثم قال له جبريل عليه السلام : الذى ناداك من يمينك داعى اليهودية ، والذى ناداك من يسارك داعى النصرانية ، ولو التفتَّ يا محمد لتهودت أو تنصرت أمتك » .

(١) استقل الشيء رآه قليلا واستقل بالشئ لم يشتغل بسواه اكتفاءً به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك سقوط لكلمة «لنا» ، وعندئذ يكون السياق « فكلُّهم لنا ؛ .... » .

أي ما نُجَدِّد لهم شَرْعاً ، وما نرسل لهم رسولاً .. إلا أعرضوا عن تأمل برهانه ، وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أنعموا النظرَ في آياتِ الرسل لاتضح لهم صِدْقُهم ، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق . فقد كَذَّبوا ، وعلى تكذيبهم أَصَرُّوا ، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة ، فيذوقون وبالَ شِرْكهم .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا إلى الأرضِ كم أَنْبَتْنا فيها من كل زَوْجٍ كريم * إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين *
وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ » .

فنونُ ما ينبت في الأرضِ وقتَ الربيع لا يأتي عليه الحَصْرُ ، ثم اختصاصُ كلِّ شيء منها بلون وطعمٍ ورائحة مخصوصة ، ولكلٍّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص ، وورق مخصوص ... إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة ، وتَدِق فيه الإشارة . وفي ذلك آياتٌ لِمَنْ استبصر ، ونَظَر وفَكَّرَ .

«وإن ربك لهو العزيز»: القاهرُ الذي لا يُقْهَر ، القادر الذي لا يُقْدَر ، المنيعُ الذي لا يُجْبَر.
« الرحيم » : المحسنُ لعباده ، المريدُ لسعادة أوليائه .

قوله جل ذكره : « وإذ نادى ربُّكَ موسى أَنِ ائْتِ القومَ الظالمين * قومَ فرعونَ ألا يتقون » .

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أنه شديد الخصومة ، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالي بما فعل . وأَخَذَ (موسى)[1] يتعلَّلُ — لا على جهة الإباء والمخالفة — ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنِّي أخاف أَنْ يُكَذِّبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأَرْسِلْ

(١) ليست موجودة في النص وقد وضعناها بين قوسين منعاً للبس .

إلى هارون * ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف
أَنْ يَقْتُلُونِ » .

سأل موسى — عليه السلام — أن يَشْفَعَه بهارون ويُشْرِكَه فى الرسالة . وأخبر أنه قَتَلَ نَفْساً ، وأنه فى حُكْمِ فرعون عليه دَمٌ ، فقال : « فأخاف أن يقتلون » إلى أنْ قال له الحقُّ : —

« قال كَلاَّ فاذهبا بآياتنا إنَّا معكم مستمعون » .

« كلا » حرفُ رَدْعٍ وتنبيه ؛ أى كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك ، وانتَبِهْ لغيره . إنى معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليدُ ستكون لكما ، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأُبْصِرُ ما يُبْصِرُون وما تُبْصِرُون أنتم .

قوله جل ذكره : « فأْتِيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ العالَمين » .

ويقال فى القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه . ثم بعد سَنَةٍ عَرَضَا الرسالة عليه ، فقابلهما بالتكذيب ، وكان من القصة ما كان .. وقال فرعون لمَّا رأى موسى :

« قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين * وفعلتَ فَعْلَتَكَ التى فعلتَ وأنت من الكافرين »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جوابٌ إلا الإقرارَ والاعترافَ ، فقال :

« قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين * ففررْتُ منكم لمَّا خِفْتُكُمْ فوهب لى ربى حُكْماً وجَعَلنى من المرسلين »

قال : كل ذلك قد كان ، وفررت منكم لمَّا خفتكم ، فأكرمنى الله بالنبوة ، وبعثنى رسولاً إليكم . .

ويقال : لم يجحد حقَّ تربيته ، والإحسانَ إليه فى الظاهر ، ولـكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللهُ بشىء وَجَبَ اتباعُ أمره . ولـكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللهِ أَوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها[1] .

قوله : « ففررت منكم لما خفتكم » : يجوز حَمْلُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نَفْسِه . والفرارُ ـ عند عَدَمِ الطاقة ـ غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد[2] .

ويقال : فررت منكم لمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من الله لِشُؤْمِ شِرْكِكم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لـكم من إله غيرى »[3] .

قوله جل ذكره : « وتلك نعمةٌ تَمُنُّها علىَّ أَنْ عَبَّدت بنى إسرائيل »

ذَكَرَ فرعونُ — من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه — أنه استحياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتلَ ، فقال موسى : أَوَ تلك نعمة تمنها علىَّ ؟ هل استعبادُك لبنى إسرائيل يَعُدُّ نعمةً ؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة ، ولا لَكَ فيها مِنَّة[4] .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما رَبُّ العالمين ؟ »

نَظَرَ اللعينُ بجَهْلِه ، وسَأَلَ على النحو الذى يليق بِغَيِّه ؛ فسأل بلفظ « ما » — و « ما » يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل ، فقال : « وما ربُّ العالمين ؟ » .

ولـكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه ، وأخبر عمَّا يصحُّ فى وصفه تعالى فقال :

« قال ربُّ الســموات والأرضِ وما بينهما إنْ كُنْتُم موقنِين » .

---

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية الوالدين ؛ فالوالدان يربيان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) نتذكر كيف فر القشيرى نفسه من المشرق الإسلامى عندما أحدقت به الأخطار ، وهدد السلطان الجائر حياته وعقيدته ، فلم تلن قناته ، وهرب بعقيدته إلى حيث يسلم هو ورفاقه (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن تعبيدهم وذبح أبنائهم هماسببا حصوله عنده وتربيته له ، ولو تركهم لرباه أبواه شأن أى طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن القصد كان إذلال أهله لا الإحسان إليهم أو إليه .

فَذَكَرَ صفتَه ـ سبحانه وتعالى ـ بأنَّه إلهٌ ما فى السموات والأرض ، فأخذ فى التعجب ، وقال :

« قال لِمَنْ حَوْلَه أَلَا تستمعون ؟ * قال ربُّكُم وربُّ آبائِكم الأولين » .

قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فحادَ فرعونُ عن سَنَنِ الاستقامة فى الخطاب ، وأخذ فى السفاهة قائلاً :

« قال إِنَّ رسولَكم الذى أُرْسِلَ إليكم لَمَجْنون » .

لأنه[1] يزعم أَنَّ هُناكَ إلهًا غيرَه . ولم يكن فى شىء مما يجرى من موسى ـ عليه السلام ـ أو مما يتعلَّق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشْغَلْ بمجاوبته فى السفاهة فقال :

« قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

أى إنْ كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ . فقال فرعون :

« قال لَئِنْ اتخذتَ إلهًا غيرى لأجعلنَّكَ من المسجونين » .

مضى فرعونُ يقول : لأفعلنَّ ، ولأصنعنَّ ... إنْ اتخذتَ إلهًا غيرى . وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه فى غير موضع .

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقَلَبَها ـ سبحانه ـ ثعبانًا كاد يلتقم دارفرعون بمن فيها ، ووثَبَ فرعونُ هاربًا ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه[2] ، وافتضح فى دعواه ، واتضحت حالته ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبانَ فردَّه اللهُ عصاً .

---

(١) أى موسى عليه السلام .

(٢) البزة = الهيئة أو الشارة .

ولمَّا فَارَقَه موسى ـ عليه السلام ـ تداركته الشقاوة ، وأدركه شؤمُ الكفر ، واستولى عليه الحرمانُ ، فجَمَعَ قومَه وكلَّمهم فى أمره ، وأجمعوا كلُّهم على أنه سَحَرَهم . وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه .. كما قيل :

إذا ارْعَوَى عَادَ إلى جَهْلِه كَذِى الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

ثم إنه جَمَعَ السَّحَرَةَ ، واستعان بهم ، فلمَّا اجتمعوا قالوا : « إنَّ لنا لأجراً » . فنطقوا بخساسة هِمَّتِهم ، فضَمِنَ لهم أَجْرَهم . وإنَّ مَنْ يعملْ لغيره بأُجْرَةٍ ليس كَمَنْ يكون عملُه لله . ومَنْ لا يكون له ناصِرٌ إلاَّ بضمانِ الجَعَالة وبَذْلِ الرِّشَا فَمَنْ قريبٍ سيُخْذَل .

قوله جل ذكره : « قال نعم وإنكم إذاً لمن المُقَربين » .

قال فرعون: «وإنكم إذاً لمن المقربين» ، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوق فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أَمَّلَه من العِزِّ فى ذلك التَّقَرُّب . والمُتَقَرِّبون من الله أَوَّلُ مَنْ يدخل عليه يومَ اللقاء ، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ . والمُقَرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة ، والناسُ بوصف الغفلة والخَلْقُ فى أَسْرِ الحجبة .

ثم لمَّا اجتمع الناسُ ، وجاء السَّحَرةُ بما مَوَّهُوا ، التَقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به ، وعادت عصاً ، وتلاشت أعيانُ حِبَالِهم[1] التى جاءوا بها ، وكانت أوقاراً ، وأُلْـقِىَ السحرةُ سُجَّداً ، ولم يحتفلوا[2] بتهديد فرعون إياهم بالقَتْل والصَّلْب والقَطْع ، فأصبحوا وهم يقْسِمُون بعِزَّةِ فرعون ، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولونَ : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات[3] » .

ثم لمَّا ساعدَهم التوفيقُ ، وآمنوا بالله كان أهمَّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم ، وهذه هى غاية هِمَّةِ الأولياء ، أن يستجيروا بالله ، وأن يستعيذوا من عقوبة الله ، فأَعْرَفُهُم بالله أَخْوَفُهُم مِنَ الله .

---

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى فى المعجزة وأنها قد تكون قلب الأعيان ، أما كرامة الولى فقد لا تكون كذلك ، وهى مع ذلك متصلة بنبى الأمة التى يتبعها هذا الولى .

(٢) وردت (يختلفوا) والسياق يرفضها ويؤيد (يحتفلوا) كما هو واضح .

(٣) آية ٧٢ سورة طه .

ويقصد القشيرى إلى أن يوضح أن العبرة بالخواتيم ، وهو بهذا يحث – بطريق غير مباشر – على التوبة ، وعدم القنوط من رحمة الله .

ولمّا أَمَرَ اللهُ موسى بإخراج بنى اسرائيل ، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِه ، وقال أصحابُ موسى .

« فَلَمَّا تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى
إنّا لَمُدْرَكون * قال : كَلَّا
إنَّ معى ربى سيَهْدِينِ » .

فكان كما قال ، إذ هداهم اللهُ وأنجاهم ، وأَغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم ، وقد قال سبحانه : « واعلموا أنَّ الله مع المتقين »[1] : يُنَجِّيهم من كلِّ بلاء ، ويَخُصُّهم بكل نعمة .

قوله جل ذكره : « واتلُ عليهم نَبَأَ ابراهيم * إذ قال
لأبيه وقومه ما تَعْبُدُون * قالوا نَعْبُدُ
أصناماً فَنَظَلُّ لها عاكفين * قال هل
يسمعونكم إذ تَدْعون ؟ * أو ينفعونكم
أو يَضُرُّون ؟ * قالوا بل وَجَدْنا آباءَنا
كذلك يفعلون » .

عاتب[2] ابراهيمُ أباه وقومَه ، وطالَبَهُم بالحجة على ما عابَهم به وقال لِمَ تعبدون مالا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر ؟ فلم يرجعوا فى الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم ، وقالوا :

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنا . فنطق إبراهيمُ - عليه السلام - بعد إقامةِ الحجة عليهم والإخبارِ عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق فى وصفه ، وقال :

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون *
أنتم وآباؤكم الأَقْدَمون * فإنهم عدوٌّ لى
إلاّ رَبَّ العالمين » .

---

(١) آية ٣٦ سورة التوبة .

(٢) ربما كانت (عاب) بدليل قوله بعد قليل (على ما عابهم) ، لكن السياق يلتئم بـ (عاتب) أكثر ، إذ العتاب أليق بالنسبة للأب ، كذلك فإن ابرهيم لم يكن يدرى فى ذلك الوقت أن أباه لن يؤمن .

ذَكَرَهم بأقلِّ عبارة فلم يقل : فإنهم أعداء لى ، بل وَصَفَهم بالمصدر الذى يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال : « فإنهم عدو لى » .

ثم قال : « إلا ربَّ العالمين » ، وهذا استثناء منقطع ، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله ، ثم أخذ فى شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت ، إذ مضى يقول : والذى .. والذى .. والذى .. ، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك ، والإعراضُ عن ذكرِ غيرِه ، فَتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم فى رياض ذِكْرِ محبوبهم ، والزهَّادُ يعددون أورادَهم ، وأربابُ الحوائج يعددون مآربَهم ، فيطنبون فى دعائهم ، والمحبون يُسْهِبون فى الثناء على محبوبهم .

قوله جل ذكره : « الذى خَلَقَنى فهو يَهْدِينِ » .

كان مهتدياً ، ولكنه يقصد بالهداية التى ذَكَرَها فيما يستقبله من الوقت ، أى : يهدينى إليه به ، فإنِّى مَحْقٌ فى وجوده وليس لى خَبَرٌ عنِّى ! .

والقوم حين يكونون مستغرقين فى نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم ، فيهديهم عنهم إلى ربهم ، ويصيرون فى نهايتهم مستهلَكين فى وجوده ، فانين عن أوصافهم ، وتصير معارِفُهم ـ التى كانت لهم ـ واهيةً ضعيفةً ، فيهديهم إليه[1] .

قوله جل ذكره : « والذى هو يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ » .

لم يُشِرْ إلى طعامٍ معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذى يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم .

قوله جل ذكره : « وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ » .

لم يَقُلْ : وإذا أمرضنى لأنه حفظ أدبَ الخطاب .

---

(١) يشرح القشيرى قول الواسطى : لا تصح المعرفة وفى العبد استغناء بالله وافتقار . فيقول : أراد الواسطى بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته . (الرسالة ص ١٥٥) ويقول ذو النون : عرفت ربى ولولا ربى ما عرفت ربى (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إنْ كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتى فادخُلْ علىَّ بِعَـلَّةِ العُـوَّادِ

ويقول آخر :

يَوَدُّ بأنْ يمشِي سقيماً لَعَلَّها إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُرَاسِلُه

ويقال ذلك الشفاء الذى أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له : يقول لَكَ مولاكَ . . . كيف كنتَ البارحة ؟

قوله جل ذكره : « والذى يُمِيتُنى ثم يُحْيِين »

أضاف الموتَ إلى الله ؛ فالموتُ فوق المرض ، لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ ؛ إذ يَصِلُون إليه[1] بأرواحهم .

ويقال « يميتنى » بإعراضه عنى وقتَ تعزُّزِه ، « ويحيينى » بإقباله علىَّ حين تَفَضُّلِه . ويقال يميتنى عنى ويحيينى به .

قوله جل ذكره : « والذى أطمعُ أنْ يغفرَ لى خطيئتى يومَ الدِّين »

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم ، وتَمَنِّيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يمسُّهم من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وإذا محاسنى ـ اللاتى أُدِلُّ بهـا ـ كانت ذنوبى . . . فقُلْ لى : كيف أعتذر ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لى حُكْماً وأَلْحِقْنى بالصالحين » .

« هب لى حكما » : على نفسى ، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نَفْسِه لا حُكْمَ له على غيره .

« وألحقنى بالصالحين » : فأقومَ بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشىء دون حقك .

---

(1) (إليه) الضمير هنا يعود إلى محبوبهم — سبحانه .

قوله جل ذكره: « واجعل لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرين » .

فى التفاسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسناً على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك[1]، وأذكرك بعد قبض روحى إلى الأبد بذكرٍ مُسْتَرَمَدٍ .

ويقال أذكرنى على لسان المخبرين عنك .

قوله جل ذكره: « واغْفِرْ لأبى إنه كان من الضالين » .

على لسان العلماء : قالَه بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأمَّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه فى وقت غَلَبات البَسْطِ ، ويُتَجَاوَزُ ذلك عنهم[2].

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله فى كل شيء ، فإذا لم يُجَبْ فإنَّ للعبد سلوةً فى ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ .

قوله جل ذكره: « ولا تُخْزِنى يومَ يُبْعَثون » .

أى لا تُخْجِلنى بتذكيرى خلَّتى ، فإنّ شهودَ ما مِنَ العبدِ - عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص - أَشَدُّ عقوبة[3] .

قوله جل ذكره: يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُون * إلّا مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليمٍ » .

قيل: « القلب السليم » اللديغ .

وقيلَ هو الذى سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدْعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من المُضَاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة .. هذه كلها آفات[4] ، والأكابرُ سَلِمُوا منها ، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها .

---

(١) وردت (الآية) ونرجح أن الناسخ قد أخطأ في النقل ، فأثبتنا (آلائك) أى نعمك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن القشيرى يرى اغتفار ما ينطق به الصوفى من أقوال وهو فى حال الامحاء .

(٣) لأن شهود ما من العبد معناه أن التوحيد ما زال يشوبه كدر الغيرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات على هذا النحو من الترتيب والدقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى -خصوصاً وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو فى الفصل الذى خصصه القشيرى لهذا الموضوع فى الرسالة .

ويقال: «القلب السليم» الذى سَلِمَ من إرادة نَفْسِه.

قوله جل ذكره: «وأُزْلِفَتْ الجنةُ للمتقين * وبُرِّزَتْ الجحيمُ للغاوين»

«أزلفت»: أى قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ فى الوقت، فإنَّ ماهو آتٍ قريبٌ، وبالعين أُحْضِرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُد إِدْناء الجنة من المتقين.

«وبرزت الجحيم للغاوين» أُظْهِرَتْ؛ فتؤكِّدُ الحجَّةُ على أرباب الجحود، ويُعْرَضُون على النار، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يقرُّون بذنوبهم، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون: —

«تاللهِ إنْ كنا لفى ضلالٍ مبين * إذ نُسَوِّيكم بربِّ العالَمين»

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: «إذ نسويكم بربِّ العالمين» فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم ـ التشبيهُ فى صفة المعبود.

قوله جل ذكره: «فما لنا من شافعين * ولا صديق حميمٍ»

فى بعض الأخبار[1]: يجىء ـ يومَ القيامة ـ عَبْدٌ يُحَاسَبُ فتستوى حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُه، فيقول الله ـ سبحانه: عبدى.. بقيت لك حسنةٌ واحدة، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الجنةَ.. أنظُرْ.. وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لَكَ حسنةً واحدةً. فيأتى العبدُ فى الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكلِّ واحدٍ فى بابه فلا يجيبه أحدٌ، فالكلُّ يقول له: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ ـ سبحانه: ماذا جئتَ به؟

---

(١) فى م (فى بعض الأحيان) والأصوب أن تكون (فى بعض الأخبار) كما فى ص.

فيقول : يا ربِّ . . لم يُعْطِنِي أحدٌ حسنةً من حسناته .

فيقول الله ـ سبحانه : عبدى . . ألم يكن لك صديق (فيٌّ)[1] ؟

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لى .

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه فى بابه ، فيقول : بلى ، لى عباداتٌ كثيرة قَبِلَها اليومَ فقد وهبتُك منها ، فيسير هذا العبدُ ويجىء إلى موضعه ، ويخبر ربَّه بذلك ، فيقول الله ـ سبحانه : قد قَبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقِّه شيئاً ، وقد غفرت لكَ وله ، وهذا معنى قوله .

« فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » .

قوله جلَّ ذكره : « كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ المرسلين ...... »

ذكر قصة نوحٍ وما لَقِيَ من قومه ، وأنهم قالوا : ـ

« قالوا أنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأرذلون ؟ »

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم ـ فى حكم الله ـ هم المتقدِّمون الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بضعفائكم » .

وإنَّ اللهَ أغرق قومه لمّا أصرُّوا واستكبروا .

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرَتْهم الآياتُ فى هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين . . كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب ، فدَمَّر اللهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم . وقد ذَكَرَ اللهُ قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله : ـ

« وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذى أَخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم يقطعْ الرزقَ مع قُبْحِ فِعالِهم .

---

(١) هكذا فى م و ص وهى صحيحة مقبولة فى المعنى والسياق ، غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (صديق وفى) حيث تقابل ما جاء فى الآية (صديق حميم) فالبحث يومئذ يكون عن الصديق الوفى الحميم .

وهو « عزيز » لم يُستَضَرّ بقبيح أعمالهم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لَمَّا تَجَمَّلَ بأفعالهم[1].

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجْرِىَ إلاَّ على ربِّ العالَمين » .

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجرٍ » ليَعلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغى أنْ يَطْلُبَ الأَجْرَ من غير الله . وفى هذا تنبيهٌ للعلماء — الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء — أنْ يتأدَّبوا بأنبيائهم ، وألّا يطلبوا من الناس شيئاً فى بَثِّ علومهم ، ولا يرتفِقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق فى بثِّ ما يذَكِّرُ به من الدِّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يباركُ اللهُ للناس فيما منه يَسْمَعون ، ولا للعلماءِ أيضاً بركةٌ فيما من الناسِ يَأْخُذون ، إنهم يبيعون دينَهم بِعَرَضٍ يسيرٍ ، ثم لابَرَكةَ لهم فيه ، إذ لايبتغون به الله ، وسيَحْصُلُون على سُخْطِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين * نَزَلَ به الروحُ الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكونَ من المُنْذِرِين * بلسانٍ عربىٍّ مبين » .

كلامُ اللهِ[2] العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلامُ من الله غيرُ منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو - على الحقيقة لاعلى المجاز — مُنَزَّلٌ . ومعناه أن جبريل - عليه السلام - كان على السماء . فَسمِعَ من الربِّ ، وحَفِظَ ، ونَزَلَ ، وبَلَّغَ الرسولَ . فَمَرَّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه[3] عند

(١) لأن الله — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة ولا شين بمعصية .

(٢) ينبغى الاهتمام برأى القشيرى هنا عند بحث قضية «خلْق القرآن» ، ومدى النظرة إلى ما بين دفتى المصحف ، ومقارنة ذلك (بكلام) الله إلى موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه القشيرى فى كتابه (شكاية أهل السنة) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفية إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحى على أنها حالة عرفانية ، فالعرفان لايتم إلا عند الامتحاء .

نزول الوحى عليه . ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعُه . والرسولُ ـ صلوات الله عليه ـ يحفظه ويُؤَدِّيه . والله ـ سبحانه ضَمِنَ له أنه سَيُقْرِؤُه حتى لا ينساه[1] . فكان يجمع اللهُ الحِفْظَ فى قلبه . ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند لفظه . ولمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله .. عُلِمَ صِدْقُه فى أنَّه مِنْ قِبَلِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنَّه لَفِى زُبُرِ الأولين » .

جميعُ ما فى هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما فى صفةِ الله من استحقاق جلاله — موافِقٌ لِمَا فى الكتب المُنَزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه ، فهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه : « لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه »[2] .

ثم أخبر أنه لو نَزَّلَ هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ، ولقَالوا : لو كان بلساننا لعرفناه ولآمَنَّا به ، فأزاح عنهم العِلَّةَ ، وأكَّدَ عليهم الحُجَّة .

ثم أخبر عن صادقِ عِلْمِه بهم ، وسابقِ حُكْمِه بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذابَ فى القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أفَرَأَيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهم سنينَ *
ثم جاءهم ما كانوا يوعَدُون *
ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعُون » .

إنْ أرخينا لهم المُدَّةَ ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة — وهم بوصف الغفلة — فما الذى كان ينفعهم إذا أخَذَهُم العذابُ بغتةً ؟ ! .

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكْ أهلَ قريةٍ إلّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ ، فإذا أصَرُّوا على كُفْرِهم عَذَّبَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّهم عن السَّمْعِ لمعزولون » .

---

(1) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى » آية ٦ سورة الأعلى .
(2) آية ٤٢ سورة فصلت .

وَجَدُوا السمعَ — الذى هو الإدراك — ولـكن عَدِمُوا الفَهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَـا دُعُوا إليه . فعند ذلك استوجبوا من الله سوءَ العاقبة .

قوله جل ذكره : « وأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين » .

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قَرَابَتُهم منه ، ولا تُقْبَلُ شفاعتُه — إنْ لم يؤمنوا — فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النّسب ، فهذا نوحٌ لمَّـا كَفَرَ ابنُه لم تنفعْه بُنُوَّتُه ، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفعه أُبُوّتُه ، وهذا محمدٌ - عليه الصلاة والسلام — كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه فى العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم .

قوله جل ذكره : « واخفِضْ جناحَـك لِمَنْ اتبعـك من المؤمنين » .

أَلِنْ جَانِبَكَ وقارِبْهم فى الصحبة ، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمِلْ منهم سوءَ الأحوال ، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق ، وتحمَّلْ عنهم كَلَّهم ، وارْحَمْهُم كُلّهم ، فإنْ مرضوا فعُدْهم ، وإنْ حرموكَ فأَعْطِهم ، وإنْ ظلموك فتجاوَزْ عنهم ، وإنْ قصّرُوا فى حقى فاعفُ عنهم ، واشفعْ لهم ، واستغفِرْ لهم[1].

قوله جل ذكره : « فإنْ عَصَـوْكَ فَقُلْ إِنّى برىءٌ مما تعملون » .

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم ، وكِل حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حَدًّا ، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم .

قوله جل ذكره : « وتوكَّلْ على العزيز الرحيم » .

انقَطِـعْ إلينا ، واعتصِمْ بِنا ، وتوسَّـل إلينا بِنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو فى قبضتنا — تتحققْ بأنك بنا ولنا .

توكّلْ على « العزيز » تَجِدْ العِزّةَ بتوكلك عليه فى الدارين ، فإنّ العزيزَ مَنْ وثق بالعزيز .

---

(١) تصلح هذه الإشارة لتكون دستوراً فى (الصحبة) بصفة عامة . وللقشيرى فصل فى الرسالة فى هذا الخصوص .

« الرحيم » الذى يقرِّبُ مَنْ تَقَرَّبَ إليه ، ويُجْزِلُ البِرَّ لِمَنْ تَوسَّل به إليه[1] .

قوله جل ذكره : « الذى يراكَ حين تقوم » .

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق ، فإنّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقّ رَاعَى دقائقَ أحواله ، وخفايا أموره مع الحقِّ[2] .

قوله جل ذكره : « وتَقَلُّبَكَ فى الساجدين » .

هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته . ولا مشقّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنّه بمرأًى من مولاه ، وإنّ حَمْلَ الجبالِ الرواسى على شَفْرِ[3] جَفْنِ العينِ لَيَهونُ عند مَنْ يشاهد رَبّه[4] .

ويقال « تقلبك فى الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشموس .

ويقال : تقلبك فى أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللهَ ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميعُ العليم » .

« السميع » لأنين المحبين ، « العليم » بحنين العارفين .

« السميع » لأنين المُذْنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

---

(١) هذه الإشارة نموذج طيب لعبقرية القشيرى عند صياغة (وصاياه) للمريدين من الناحيتين الصوفية والأدبية .

(٢) يقال إنه لما دخل ذوالنون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوال ، فاستأذنوا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض . ثم قام رجلٌ من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : «الذى يراك حين تقوم» فجلس الرجل .
ويعلق الشيخ الدقاق على هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل، وكان الرجل صاحبَ إنصافٍ حين قبل منه ذلك فرجع وقعد (الرسالة ص ١٧٠) .

(٣) شَفْرُ الجَفْن = حرْفه الذى ينبت عليه الهُدْبُ . (الوسيط) .

(٤) يربط النسفى بين هذه الآية وبين الآيتين السابقة واللاحقة ، فالمعنى عنده : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متهجداً ، ويرى (تقلبك) فى المصلين ؛ يرى ما كنت تفعل فى جوف الليل من قيامك للتهجد ، وتقلبك فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لآخرتهم . وهو (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تعمله ، وبذلك هوَّن عليه معاناة كل مشقة حيث أخبر برؤيته له فى كل ما يقوم به .

(تفسير النسفى جـ ٣ ص ١٩٩) ط عيسى الحلبى .

قوله جل ذكره : « هل أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلْقُون السَّمعَ وأكثرُهم كاذبون » .

بيَّن أن الشياطين تتنزَّلُ على الكفار والكهنة[1] فتوحى إليهم بوساوسهم الباطلة .

قوله جل ذكره : « والشعراء يَتَّبِعهم الغاوون » .

لمَّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتى به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى أوليائه ، وألْحَقَ بهم الشعراءَ الذين فى الباطل يهيمون ، وفى أعراض الناس يقعون ، وفى التشبيهات — عن حدِّ الاستقامة — يخرجون ، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون ، وسبيلَ الكذبِ يسلكون .

قوله جل ذكره : « إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً ، وانتصروا مِنْ بعد ما ظُلِمُوا » .

فيكون شِعْرُه خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة[2] ، وهذا كما قيل : الشعرُ كلامُ إنسان ؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جل ذكره : « وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَموا أىَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبُون » .

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا ، ويندمون على ما أسلفوا ، ويصدقون بما كَذَّبوا .

---

(١) من أمثال سطيح وطليحة ومسيلمة .

وإذا كان محمد (ص) يشتم الأفاكين ويذمهم .. فكيف تنزل الشياطين عليه ؟ !

(٢) من أمثال عبد الله بن رواحه وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضى الله عنهم ، فشعرهم غلبت عليه الحكمة والموعظة والزهد ، والدعوة إلى الفضيلة ، ومؤازرة الدين الجديد ، ورفع لواء التوحيد .

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قَصَدَهُ العاصى لِطَلَبِ التخفيف فصار وِزْرُه مغفوراً ، اسم كريم قَصَدَهُ العابدُ لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً ، اسم جليلٌ أَمَّهُ الوليُّ لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُه مشكوراً ، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَتْهُ العِزَّةُ ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

جَلَّتْ الأحديةُ .. فأنّى بالوصول ! وتَقَدَّسَتْ الصمديةُ .. فَمَنْ ذا الذى عليها يقف[1] ؟ .

« كلاَّ .. إنها تذكرة . فمن شاء ذكره »[2] :

وكم باسطين إلى وَصْلِنا أكُفَّهُمُو .. لم ينالوا نصيبا !

قوله جل ذكره : « طسٓ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين » .

بطهارةِ قُدْسِى وسناء عِزِّى لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفى .

بوجود بِرِّى تطيب قلوبُ أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفى ، وسَعْىُ العاملين مشكورٌ بعطفى[3] .

---

(١) التوحيد – فى نظر القشيرى – هو أعلى درجات العرفان ، وهذا التوحيد العرفانى – متأثراً التوحيد الإسلامى الأصيل – لايشوبه كَدَرٌ ولاتعقيد ولاتداخل ولاحلول ولا امتزاج . فعرفانُ الصوفى مهما عَظُمَ لايتعدى كونه (عرفاناً بنعت التعالى فى شهود أفعال الحق ، فأمّا الوقوف على حقيقة الإنية فقد جَلَّت الصمدية عن إشراف عرفان عليها) تفسير بسملة سورة الجمعة «المجلد السادس من هذا الكتاب» .

(٢) آية ٥٤ سورة المدثر .

(٣) غير خاف على القارىء أن يلحظ تردد حرفى الطاء والسين فى كلمات الأسطر الثلاثة ، كأنما القشيرى يريدنا أن نتفهم دقائق (طس) من بعيد .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » : هذه دلالات كَرَمِنا ، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بِرِّنا ، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونُحقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا .

قوله جل ذكره : « هُدًى وبُشْرى للمؤمنين » .

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاء ، ونورٌ وضياء ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان ، وأكَّدْنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

قوله جل ذكره : « الذين يُقِيمون الصلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يوقنون » .

يديمون المواصلات ، ويستقيمون فى آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتِهم وسكناتِهم الزكاة ، بما يقومون فى حقوق المسلمين أحسنَ مقام ، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرةِ زَيَّنَّا لهم أعمالَهم فهم يَعْمَهُون » .

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون ، وعَمَّيْنَا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون ، أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون ، وفى حيرتهم يَتَرَدَّدُون .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لهم سوء العذابِ وهم فى الآخرةِ هم الأَخْسَرون » .

« سوء العذاب » أن يجد الآلامَ ولا يجد التسلِّى بمعرفة المُسَلِّى ، ويحمل البلاءَ ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِى .. وذلك للكفار ، فأمَّا المؤمنون فيُخَفِّفُ عنهم العذابَ فى الآخرةِ حُسْنُ رجائهم فى الله ، ثم تضرُّعُهم إلى الله ، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف فى حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشى والإفاقة — كما فى الخبر — إلى وقت إخراجهم من النار .

قوله جل ذكره : « وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لدُن حكيم عليم » .

أى أن الذى أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذى يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء .

قوله جل ذكره : « إذ قال موسى لأهله إنِّى آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قَبَسٍ لعلّكم تصطلون » .

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودَجَا عليه الليلُ ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهبَّت الرياحُ الباردة ، ولم يورِ الزَّنْد ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ، وتشتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا إنِّى أبصرتُ ناراً . وفى القصة : إنه تشتت أغنامُه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت ، فقالت امرأتُه :

كيف تتركنا وتمضى والوادى مسبع ؟ ! .

فقال : امكثوا .. فإنى لأجلكم أمضى وأتعرف أمرَ هذه النار ، لَعَلِّى آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ ، أو بخبرٍ عن قومٍ نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة ، ومن جهتهم انتفاع . وبَدَت لعينه تلك النارُ قريبةً ، فكان يمشى نحوها ، وهى تتباعد حتى قَرُب منها ، فرأى شجرةً رطبةً خضراءَ تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها ، وهى نار مضيئة ، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها ، فعند ذلك سمع النداءَ من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّمَ المخالِفون من أهل البدع . وحصل الإجماعُ أنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله ، ولو كان النداء فى الشجرة لكان المتكلم به الشجرة ، ولأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء فى الشجرة[1] . وإلا فنحن نجوِّز أن يخلق الله نداء فى الشجرة ويكون تعريفاً ، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة .

---

(١) أى أنه على هذا الرأى كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفته ، وصفته – سبحانه – غير مخلوقة .. وهذا هو نفس الرأى بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذى دحض به السلف زعم الجهمية حينما أرادوا أن يثبتوا أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن شىء ، «والله خالق كل شىء» (انظر مدارج السالكين لابن القيم ج١ ص ٢٢٢) فيكون النداء الذى سمع من الشجرة كالكلام الذى بين دفتى المصحف .. كلاهما كلام الله – على الحقيقة ، ولكن من حيث التجوز فى التعبير يقال (فى الشجرة) و (فى المصحف) .

ولا يُنْكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخَلَق كلاماً في الشجرة أيضاً ، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة ... وهذا من طريق العقل جائز .

قوله جل ذكره : فلما جاءها نودى أن بورِكَ مَنْ في النارِ ومَنْ حولها وسبحان اللهِ ربِّ العالَمين » .

أى بورِكَ مَنْ هو فى طلب النار ومَنْ هو حول النار[1] .

ومعنى بورِكَ أى لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ .. والبركةُ الزيادةُ والنَّماء فى الخير .

والدعاء مِنَ القديمِ — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره « يا موسى إنَّه أنا اللهُ العزيزُ الحكيم » .

الذى يُخَاطِبُكَ أنا اللهُ « العزيزُ » فى استحقاق جلالى ، « الحكيم » فى جميع أفعالى .

قوله جل ذكره : « وألْقِ عَصَاكَ فلما رآها تهتزُّ كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ » .

فى آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » وأجابه بقوله : « هى عصاى » وذَكَرَ بعضَ مَا لَه فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : « وألقِ عصاك » ، وذلك لأنه أراد أنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمالَ اليقين .

وألقاها موسى فَقَلَبَهَا اللهُ ثعباناً ، أولًا حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً ، فأوجس فى نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِرًا هارباً ، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لمَّا كان عارفاً بأن الله يعذِّب مَنْ يشاء بما يشاء ، فقال له الحقُّ :

« يا موسى لا تَخَفْ إنِّى لا يخاف لدىَّ المُرْسَلُون » .

أى لا ينبغى لهم أن يخافوا .

---

(1) يرى النسفى أن (مَنْ) في مكان النار هم الملائكة ، و(مَنْ حولها) هو موسى . (النسفى جـ٣ ص ٢٠٢) .

« إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثم بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سوء

فإنى غفورٌ رحيم » .

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنْبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار . فأمَّا مَنْ لا يُجيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة[1] .

فلما رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أنَّ الحقَّ هو الذى يكاشفه بذلك .

ويقال : كيف عَلِمَ موسى — عليه السلام — أنَّ الذى سمعه كلامُ اللهِ ؟ .

والجواب أنه بتعريفٍ منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كَسْبِياً ، ويكون الدليل له الذى به عَلِمَ صِدْقَه فى قوله : « إنه أنا الله » هو ما ظهر على يَدِهِ — فى الوقت — من المعجزة ، من قَلْبِ العصا ، وإخراج يده بيضاء[2] .

قوله جل ذكره : « وأَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك تَخرجْ بيضاء

من غير سوء فى تِسْعِ آياتٍ إلى فرعون

وقومِه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

من غير سوء أى بَرَصٍ . وفى القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التى أَوْجَبَتْ انزعاجَه ، وقَصْدَه فى طلب النار ، فقال الله تعالى : إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ ، ووكلنا بامرأتِكَ وأسبابك ، فجمعنا أغنامَكَ وثيرانَكَ ، وسَلِمَتْ لَكَ المرأةُ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءتْهم آياتُنا مُبْصِرةً قالوا هذا

سِحْرٌ مبين » .

---

(١) لا يستخدم فريق من الفقهاء تعبير (الذنب) بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وإنما يطلق على ما يبدر منهم (فِعْل خلاف الأَوْلى) تأدباً .

والنبى – على الوجوب – معصوم ، والولىّ محفوظ أى قد تقع منه هنات أو زلات ولكنه لا يُصِرّ على ما فعل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أى أن الأصل فى المعجزة أنها دليل صدق النبى ، فقد يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء عجيبة ولكنها لا تخرج عن كونها دليل مهارة أو ذكاء أو قدرة على الإيهام والانبهار .

والنبى مأمور بإظهار المعجزة أما الولى فمأمور بإخفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظْهِرْ اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلّا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتَوَصَّلُوا إلى حصول العلم وثلج الصدور ، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجَحْدِ . قال تعالى وقولُه صِدْقٌ :

« وجحدوا بهـا واستيقنتها أنفسُهم
ظُلْماً وعُلُوًّا فانظرْ كيف كان عاقبةُ
المُفْسدين » .

وكما يَحْصُلُ من الكافرِ الجَحْدُ[1] تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها — بالقطع — أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلِها من غير أَنْ يكونَ متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُحْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوته . وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً ، وأشـدُّها في العقوبة ، وأبْعَدُها عن الغفران .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلْماً وقالا
الحمدُ للهِ الذى فَضَّلَنا على كثيرٍ مِنْ
عباده المؤمنين » .

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدَهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكْهُما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَه على وجه تخصيصهما به ، ولا شكّ أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيانٍ لها أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذى هو مُعَرَّضٌ للشك فيه[2] .

---

(١) ليس حتماً أن يكون جحد الجاحد بعد المعرفة لأن (جحد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جهلٍ بالشيء ، ولكن الواضح أن القشيري يتجه إلى توضيح أسوأ ألوان الجحود ، وهو الذى يحدث بعد المعرفة ، وقد أحسن القشيري حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال العاصي ، وهى تلك التي يقدم فيها على المعصية وهو عليم بعاقبتها ، ومع ذلك يعقد النية عليها ، ويفعلها .

(٢) نعلم من مذهب القشيري أن البيان أرقى في المعراج العرفاني من البرهان ؛ ونجد هنا سبب تفوق البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عُلِّمنا منطق الطير » .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما فى البيان .

وفى الآية دليل على أن التفضيل الذى يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر بأنهما شَكَرَا الله على عظيم ما أنعم به عليهما [1].

قوله جل ذكره : « وورثَ سليمانُ داوودَ وقال يأيها الناسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطيرِ وأوتينا من كلِّ شيء إنّ هذا لهو الفَضْلُ المبينُ » .

ورث أباه فى النبوة ، وورثه فى أن أقامه مقامه .

قوله : « عُلِّمنا منطقَ الطير » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته . ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياءَ كلَّها بالله ومن الله . ويكون مُكَاشَفاً بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شىء تعريفاتِ الحقِّ — سبحانه — للعبد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم مَحْكِيٌّ عنهم . وكما أنَّ ضربَ الطَّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ — بالمواضعة — عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ — سبحانه — يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات فى اختلافها ، كما قيل :

إذا المرء كانت له فِكرةٌ فنى كل شىء له عِبْرَةٌ

قوله جل ذكره : وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنْسِ والطيرِ فهم يُوزَعُون » .

---

(1) قال صلى الله عليه وسلم : «العلماءُ ورثة الأنبياء» والعلم نعمة تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يعتقد العالم أنه إن فُضِّلَ على كثير فقد فضل عليه كثيرٌ أيضاً ، وما أحسن قول عمر رضى الله عنه : كل الناس أفقه من عمر .

سخَّر اللهُ لسليمان — عليه السلام — الجنَّ والطيرَ ، فكان الجنُّ مكلَّفين ، والطيرُ كانت مُسَخَّرَةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ ، وكذلك الحيوانات التى كانت فى وقته ، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابَهم وينفذ عليهم حُكْمَه .

قوله جل ذكره : « حتى إذا أتَوْا على وادِى النَّمل قالت نَمْلَةٌ يأيها النملُ ادخُلُوا مَسَاكِنَكم لا يَحْطِمَنَّكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يَشْعُرون » .

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النملِ الذى قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أمَا عَلِمْتَ أنِّى معصومٌ ، وأنِّى لن أمَكِّنْ عسكرى مِنْ أنْ يطئوكم ؟ فأخبره أميرُ النملِ أنه لا يعلم ذلك ؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالمًا بعصمة سليمان . ولو قال : لعلكم أبيح لكم ذلك .. لكان هذا أيضًا جائزًا .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إنى أُحمِلُ قومى على الزهد فى الدنيا ، وخَشِيتُ إنْ يَرَوْكُم فى مُلْكِكم أنْ يرغبوا فيها[1] ، فأَمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّشَ عليهم زُهْدُهُم . ولَئِنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هو فى رعيتهم . وفى الآية دليلٌ على حُسْنِ الاحتراز مِمّا يُخْشَى وقوعُه ، وأنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النَّفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : ما الذى أعطاك اللهُ من الكرامة ؟ .

فقال : سَخَّرَ لى الريحَ .

فقال : أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطِيتَ إلا الريح ؟ [2].

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير ! .

قوله جلَّ ذكره : « فتَبَسَّمَ ضاحكًا مِنْ قولها » .

---

(١) الضمير فى (فيها) يعود على الدنيا .

(٢) أى أنه عطاء زائل لا مكث له ولا قرار .

التبسُّمُ من الملوكِ يندر لمراعاتهم حُكْمَ السياسة ، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبَسُّم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته .

وفى القصة أنه استعرض جُنْدَه ليراهم كم هم ، فعَرَضَهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شَهْرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِرًا فلم ينتهوا ، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام .

وفى القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل فى عِظَمِ الجثه ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نعمتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى والدىَّ وأَنْ أعملَ صالحاً ترضاه » .

فى ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك ، وتنبيهَهُ عليه من جملة نِعَمِهِ التى يجب عليها الشكرُ .

وفى قوله : « وعلى والدىَّ » دليلٌ على أَنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ماخَصَّ وعَمَّ من نِعَمِهِ .

قوله جلَّ ذكره : « وأَدخِلْنى برحمتِكَ فى عبادِكَ الصالحين » .

سأل حُسْنَ العاقبة ، لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وتفَقَّدَ الطيرَ فقال ما لِىَ لا أرى الهُدْهُدَ أَمْ كان من الغائبين » .

تَطَلَّبَه فلمَّا لم يَرَه تَعَرَّفَ ما سبب تأخره وغيبته .

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان فى مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً .. وهذا أحسن ما قيل .

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِهِ فى مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به ، وأنَّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن فى الهدهد كَثْرَةً . وغيبةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ — اللهم إلّا إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك ، وأنه قيل له : إنْ كان الهدهدُ يرى الماءَ تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفَخَّ مخفيًّا تحت التراب ؟ .

فقال : إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَّةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها ، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض ، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه ، فعَرَفَ بذلك غَيْبَتَه .. وهذا أيضاً ممكن ، ويدل على كمال تَفَقُّدِه ، وكمال تَيَقُّظِه — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : « لَأُعَذِّبَنَّه عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّه أو لَيَأْتِيَنِّي بسُلْطانٍ مُبِين » .

فى هذه الآية دليل على مقدار الجُرْمِ ، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها . وفيه دليل على أن الطير فى زمانه كانت فى جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ ، وأنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع .

وتعيين[1] ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالاً .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كلَّ ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ فى شىء نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نَتْفُ ريشه وإلقاؤه فى الشمس .

---

(١) واضح هنا طريقة مناقشة القشيرى لشىء لم يرد به النقل ، وكيف يعطى النقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن نقل فينبغى التجويز لا القطع .

وواضح كذلك مدى استغلاله لهذا الموقف فى توجيه كلامه للمريدين والطالبين بطريق غير مباشر .

وقيل يفرِّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشتِّت عليه وقتَه .

وقيل يُلْزِمُه خدمة أقرانه .

والأَوْلَى فى هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقْطَعَ بشىء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولى لشأنه ويوكَلَ إلى حَوْلِه ونَفْسِه ، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ فى الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع فى اسم العذر ثم لا يرتفع[1] . ومن ذلك سَلْبُ القناعة ، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجرى . ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شىء من الخَلْق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِسَّةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق ، والتباس الحقِّ فى صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر فى الغُرْبة .

قوله جل ذكره : « فَمَكَثَ غيرَ بعيدٍ فقال أَحَطْتُ
بِما لَمْ تُحِطْ به وجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ
بنبأٍ يقين »

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء ، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تهدَّدَه ، فقال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، « وجِئْتُكَ من سبأ بنبأ يقين » .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم

---

(١) عاد القشيرى إلى الآية نفسها فى رسالته حيث يقول : وقيل فى قوله تعالى : لأعذبنه عذابا شديداً — يعنى لأسلبنه القناعة ولأبتلينَّه بالطمع يعنى أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك (الرسالة — ص ٨٢) .

ما عَدَّه ، فلم يتغير سليمانُ — عليه السلام — لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك فى الطمع فى مُلْكِ غيرهم ، فلما قال :

« وجَدْتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ
وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدَّهم عن السبيلِ فَهُمْ
لا يَهْتَدُون »

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ ، وغَضِبَ فى الله ، و :

« قال سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أم كُنْتَ من الكاذبين »

وفى هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز ، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتَعَرَّفَ : هل هو صدق أم كذب ؟[1]

ولمَّا عَرَفَ سليمانُ هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبتَه وما تَوَعَّدَه به . . وكذلك سبيلُ الوالى ؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته ، ويَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فى صورة المجرمين إذا صَدَقَ فى اعتذاره .

قوله جل ذكره : « إذْهَبْ بكتابى هذا فَألْقِه إليهم
ثم تولَّ عنهم فانظُرْ ماذا يَرْجِعُون »

فى الآية إشارة إلى أنه لا ينبغى للانسان أن يذكر بين يدى الملوك كلَّ كلمة ، فإنه يَجُرُّ العناءَ بذلك إلى نَفْسِه ؛ وقد كان لسليمان من الخَدَمِ والحَشَمِ ومَنْ يأتمر بأمره الكثير ، ولكنه لم يستعمل واحداً فى هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذى قال ما قال ، فلزمه الخروج من عهدة ما قال .

ويقال لمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِه عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة — على ضعف صورته[2] .

---

(١) يضاف هذا الرأى فى أخبار الآحاد إلى مذهب القشيرى فى المسائل الحديثية والفقهية .

(٢) هنا إشارة بعيدة إلى الرسل والأولياء ، ودحض لما يقال عنهم من التهم .

فمضى الهدهدُ ، وألقى الكتابَ إليها كما أُمِرَ ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب .

قوله جل ذكره : « قالت يأيها الملأُ إنِّى أُلْقِىَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ * إنه من سليمانَ وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم * ألَّا تَعْلُوا علىَّ وَأْتونى مسلمين » .

« كتاب كريم » الكَرَمُ نَفْىُ الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً[1] ، وقيل لأنَّ الرسولَ كان طيراً ؛ فعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرةً لَهُ لا بُدّ أنه عظيمُ الشأنِ . وقيل : لأنه كان مُصَدَّرًا ببسم الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِهِ أولًا ولم يَقُلْ : إنه من سليمان إلى فلانة . ويقال لم يكن فى الكتاب ذكر الطمع فى المُلْكِ بل كان دُعَاء إلى الله : « ألا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين » .

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها ، وقَهَرَها ؛ فلم يكن لها جواب ، فقالت : « إنى أُلقى إلىَّ كتابٌ كريم » فلمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلكِها ، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةَ سليمان .

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة مالا يتجرَّدُ عن التسمية ، وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس .

قوله جل ذكره : « قالت يأيها الملأُ أفتونى فى أمرى ما كُنْتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهدون[2] » .

---

(١) يقال إنه طبعه بالمسك وختمه بخاتمه . قال صلى الله عليه وسلم : « كرم الكتاب ختمه » وقيل من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخفَّ به .

(٢) (حتى تشهدونِ) بكسر النون ، أما الفتح فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب لأن ما سبق «حتى» أسلوب طلبى ، فالفعل ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله «تشهدونى» فحذفت النون الأولى للنصب ، والياء لدلالة الكسرة .

أَخَذَتْ فى المشاورة كما تقتضيه الحال فى الأمور العظام ؛ فإن المَلِكَ[1] لا ينبغى أن يكون مستبداً برأيه ، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأى والبصيرة .

قوله جل ذكره : « قالوا نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ
والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرين ؟ » .

أجابوا على شرط الأدب ، وقالوا : ليس منا إلّا بَذْلُ الوسع ، وليس لنا إلّا إظهارُ النُّصح ، وما علينا إلا متابعةُ الأمر — وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه .. إليكِ .

قوله جل ذكره : « قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً
أفسدوها وجعلوا أعِزَّة أهلِها أذِلَّةً
وكذلك يفعلون » .

ويقال إنَّ : « وكذلك يفعلون » مِنْ قَوْلِها .

ويقال : تغييرُ الملوك[2] إذا دخلوا قريةً — عن صفتها — معلومٌ ، ثم يُنْظَر .. فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنَّةَ الجَوْرِ ، وأثبت سُنَّةَ العَدْلِ ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت الباطلَ . هذا معلوم ؛ فإنَّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوء ، حيث يستولى أسافلُ الناس وأَسقاطُهم على الأعزة منهم ، وكما قيل :

يا دولة ليس فيهـــا من المعـــالى شـــظيهْ
زولى فـــا أنتِ إلّا على الـكرام بلـــيهْ

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ ، يكسرون رقابَ الفاغة ، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أَسْرِ السِّفْلة ، (ويأخذ القوس باريها)[3] ، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها .. كذلك المعرفةُ

---

(١) نعلم من سيرة القشيرى أنه كانت بينه وبين أصحاب السلطة فى موطنه خلافات فى الرأى ، فهو هنا يغمز بما ينبغى أن يكون عليه صاحب السلطان من آداب ، سواء فى اختيار أعوانه ، أو فى قبول النصح والشورى .

(٢) كأنما القشيرى ينفس عن نفسه مما قاساه فى عهد السلطان طغرل ووزيره الكندرى وكأنما يمجد ما ناله من الخير فى عهد السلطان ألب أرسلان . ووزيره العظيم نظام الملك (انظر مدخل هذا الكتاب : المجلد الأول)

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (فتأخذ النفوس بأزمتها) .

والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى ، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة . . وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَهَا من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته . ومتى استولت على قلبٍ غاغةُ النَّفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته ، وأبْطَلَتْ نضارتَه ، فتخرب أوطانُ الحقائق ، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفول ، وعند ذلك ، يَعْظُم البلاءُ وتتراكم المِحَنُ .

قوله جل ذكره : « وإِنِّى مُرْسِلَةٌ إليهم بهديةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون » .

جاء فى القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا ، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب . وأن اللهَ أخبر سليمانَ بذلك ، وأوحى إليه فى معناه . وأمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميداناً ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأَمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظَّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره ، وأن يُتْرَكَ موضعان لِلَبِنَتَيْنِ خالِيَيْن فى ممرِّ الدخول . وأقبل رُسُلُها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلمَّا رَأَوْا الأمر ، ووقعت أبصارُهم على طريقهم ، صَغُرَ فى أعينهم ما كان معهم ، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا فى الفكرة .. كيف يتخلصون مما معهم ؟ . فلمَّا رأوا موضع اللَّبِنَتَيْن فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناهما من هذا الموضع ، فطرحاها فى الموضع الخالى ، ودَخَلَا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فلمَّا جاء سليمان قال أتُمِدُّونَنِ بمالٍ فما آتانِيَ اللهُ خيرٌ مما آتاكُم بل أنتم بهديتكم تَفْرَحُون » .

أتهدوننى مالاً ؟ ! وهل مثلى يُسْتَمَالُ بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تعامِلُون بمثل ما عوملتم[1] ! إرجع إليهم : —

---

(١) أى أنتم قوم لاتعلمون إلاظاهراً من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزدادون وبما يُهْدَى إليكم ، لأن ذلك مبلغ همتكم — وحالى خلاف حالكم ، فأنا — بما آتانى الله — غنىٌّ عن حظوظ الدنيا .

«إرجع إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ
لهم بها ولَنُخْرِجَنَّهم منها أَذِلَّةً وهم
صاغِرون» .

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة ، فعزَمَتْ على المسير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها خرجت مستسلمةً ، فقال : أيكم يأتيني بعرشِها ؟ .

قوله جل ذكره : «قال يأيها المَلأُ أيُّكم يأتيني بعَرْشِها قبل
أن يأتونى مُسْلِمين * قال عِفريتٌ من
من الجنِّ أنا آتيكَ به قَبْلَ أَنْ تقومَ
مِن مقامِك وإنِّى عليه لقوىٌّ أمين» .

بسط اللهُ — سبحانه — مُلْكَ سليمان ، وكان فى مُلْكِه الجنُّ والإنسُ والشياطين ؛ الجنّ على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشياطين وكانوا على أقسام .

ولمَّا قال : «أيكم يأتيني بعرشها ؟» قال عفريت من الجن — وكان أقواهم — «أنا آتيك به قبل أَنْ تقومَ من مقامك وإنى عليه لقوى أمين» ، فلم يرغب سليمانُ فى قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّتِه[1] .

قوله جل ذكره : «قال الذى عِنْدَه عِلْمٌ من الكتابِ
أنا آتيكَ به قَبْلَ أن يرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ
فلمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عنده قال هذا من
فضل ربى لِيَبْلُوَنى أأَشْكُرُ أم أَكْفُرُ
ومَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِه ومَنْ
كَفَرَ فإنَّ ربى غنىٌّ كريم» .

---

(٢) هذه نظرة ملامتية تعتمد على النفور من كل دعاوى النفس والتظاهر .

« الذى عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)[1] وكان صاحب كرامة . وكراماتُ الأولياء مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبيُّ صادقاً فى نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلومٌ أنه لا يكون فى وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقَطْعُ المسافة البعيدة فى لحظةٍ لا يصح تقديره فى الجواز إلا بأحد وجهين : إمَّا بأن يُقَدِّم[2] اللهُ المسافةَ بين (العرش وبين منزل سليمان)[3] ، وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده فى الوقت الثانى بحضرة سليمان . وأىُّ واحدٍ من القسمين كان — لم يكن إلّا من قِبَلِ الله ، فالذى كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له فى ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ فى الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِه ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هذا من فضل ربى » : لا باستحقاقٍ منى ، ولا باستطاعةٍ من غيرى ، بل أحمد النعمةَ لربِّى حيث جعل فى قومى ومِنْ أمتى مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقةُ الشكرِ — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة المُنْعِمِ على جهة الخضوع . والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناء على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل فى هذا شكرُ اللهِ للعبد لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد ، وشكرُ العبدِ ثناء على الله بذكر إحسانه .. إلّا أنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه ، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرْفُ النعمة فى وجه الخدمة .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص

(٢) فى م (يعدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها فى حكم العدم مقبول فى المعنى ، وينسجم مع جعل العرش فى حكم العدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقديم المسافة (بالقاف) مقبول حتى يصبح نقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاهما مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا فى م ولكنها فى ص (بين القريتين) أى قرية سليمان وقرية بلقيس .

ويقال الشكر ألاَّ تستعينَ بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنَّكُم[1] » ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غيرَ متعرض لمنال العِوَض .

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها ؛ لأَنَّ بالشكر بقاءها ودوامَها .

قوله جل ذكره : « قال نَكِّرُوا لها عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تكونُ من الذين لا يهتدون » .

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها ، فأمر بتغيير عرْشِها ، فلمَّا رأته : —

« قيل أهكذا عَرْشُكِ ؟ قالت : كأنَّه هو »

فاستدلَّ بذلك على كمالِ عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة ، فصار لها آيةً وعلامةً على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسلَمَتْ : —

« وصَدَّها ما كانت تعبد من دونِ اللهِ إنها كانت من قومٍ كافرين * قيل لها ادخلي الصَّرْحَ فلمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وكَشَفَتْ عن ساقيها قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قواريرَ قالت ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسى وأسلمت مع سليمانَ لله ربِّ العالمين »

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها . فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ

(١) آية ٧ سورة ابراهيم .

طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضىء ، ووَضَعَه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق ، يُرَى الماء من أسفل الزجاج ولا يُمَيَّزُ بين الزجاج والماء ، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة ، فكَشَفَتْ عن ساقيها ؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جِنِّيةُ النَّسَبِ ، وأن رجليها كحوافر الدواب ، فتقوَّلوا عليها . ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماء كَشَفَتْ عن ساقيها ، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين . وقيل لها : « إنه صرح ممرد من قوارير » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها . وآمنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً
أنِ اعْبُدُوا اللهَ فإذا هم فريقانِ
يختَصِمُون »

ذكر قصةَ ثمود ، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزةً ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذى كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« ومكروا مَكْراً ومَكَرْنا مَكْراً وهم لا يَشْعُرون »

ومَكْرُهُم ما أظهروا فى الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفيةً ، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه[1] ، والتبرِّى من اختيارهم ذلك .

وأمَّا مَكْرُ اللهِ فهو جزاؤهم على مَكْرِهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالها بهم بغتةً . فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم ، وتزيينُ ذلك فى أعينهم ، وتحبيبُ ذلك إليهم . . ولو شاء لَعَصَمَهم . ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح ، والعمل فى السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفى الآخرة لا يَجُوزُ فى سُوقِها هذا النَّقْدُ ![2] .

---

(١) أى إلقاء الجرم على غير من اقترف الجرم .

(٢) جميل من القشيرى تعبيره عن أسلوب (التعامل) بين الخالق والمخلوق مكراً بمكر بلفظة (النقد) .. وفى الآخرة لا يسرى هذا النقد ، فلا يجدى مكرهم فتيلا لأن التعامل فى (سوق) الآخرة يكون على نحوٍ آخر .

قوله جل ذكره : « فانظُرْ كيف كان عاقبةُ مَكْرِهِم
أَنَّا دَمَّرْناهم وقومَهم أجمعين » .

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً : —

« فتلك بيوتُهم خاوية بما ظَلَمُوا إنَّ في ذلك لآيةً
لقومٍ يعلمون » .

وفى الخبر : « لو كان الظلمُ بيتاً فى الجنة لَسَلَّطَ اللهُ عليه الخرابَ » ؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمت بزَلَّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذِّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ ، ويستوطن مركبَ الفشل ، ويُحْرَم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحودُ العين[1] وانتفاء تعظيمِ الشريعة من القلب . وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طَرْدَها عن قلوبهم .. خربت قلوبُهم حتى تقسو بعد الرأفة ، وتجف بعد الصفوة .

لخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة[2] .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ
وأنتم تُبْصِرون * أَئِنَّكُم لتأتون
الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم
قومٌ تجهلون » .

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته ، وما أَصَرُّوا عليه من الفاحشةِ ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم من العقوبة ، وإحلالَ العقوبة بامرأته التى كانت تطابق القومَ ، وتخليص الحقِّ لوطاً من بينهم ، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ الحمدُ لله وسلام على عباده .
الذين اصطفى آللهُ خيرٌ أم مايُشْرِكون» .

---

(١) أى لا تكون مقراً للاعتبار .

(٢) هذه إشارة هامة توضح آفات الطريق فى مراحله المختلفة .

هم الذين سَلَّمَ عليهم فى آزاله وهم فى كتم العَدَمِ ، وفى متناول علمه ومتعلق قدرته ، ولم يكونوا أعياناً فى العَدَم ولا أفادوا [1] ، فلمَّا أظهرهم فى الوجود سَلَّمَ عليهم بذلك السلام ، ويُسْمِعُهم فى الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّمَ عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ ، ومن فنون البِدَعِ ، ومن وجوه الألم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافى دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّمَ عليهم قبل أَنْ خَلَقَهم وأبداهم ، وبعد أن سَلَّمَ عليهم بودِّه لَقَّاهم .

ويقال : اصطفاهم بنورِ اليقين وحُلَّةِ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش .

قوله جل ذكره : « أَمَّن خلق السمواتِ والأرضَ
وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به
حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن
تُنْبِتُوا شَجَرَها .. » .

فثمراتُ الظاهرِ غذاء النفوس ، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياء القلوبِ ، وكما لا تبقى فى وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى فى قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرةِ والتهمةِ شَظِيَّةٌ .

قوله جل ذكره : « أَمَّن جعل الأرضَ قراراً وجعل
خلالها أنهاراً وجَعَلَ لها رواسِيَ » .

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم ، وأرواح الواجدين قرار

---

(١) ربما يقصد القشيرى أنهم – وقد كانوا فى كتم العدم – لم تصدر عنهم طاعة تفيدهم فى استحقاق إثابة لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود – إن صحَّ هذا الرأى – أن عمل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهى والقسمة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحِّدين قرار مشاهدتهم[1] ، فى أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة ، وبها يسكن ظمأُ اشتياقهم وهيجانُ قَلَقِهم واحتراقِهم .

« وجعل لها رواسىَ » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

ويقال « جعل لها رواسى » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسى فى الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد[2] ؛ بهم يديم إمساكَ الأرض ، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسى هم الأئمة الذين يَهْدُون المسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجِزاً أإلهٌ مع الله بل أكثرُهُم لايعلمون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه .

ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كانت جَحْداً للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيًّا للشريعة .

ويقال: ألْسِنَةُ المريدين مَقَرُّ ذكره ، وأسماعُهم مَحَلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم ، والعيون مقر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « أمَّن يجيب المُضْطَرَّ إذا دعاه ويكشف السوء . . » .

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء ؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام . ودعاء المضطر لا حجابَ له ، وكذلك دعاء المظلوم » ولكن لِكلِّ أجلٍ كتاب » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مساعدتهم) ويبدو أن الهاء التبست على الناسخ ،فالمعروف أن الاسرار محل المشاهدة .

(٢) جاء فى حلية الأولياء (حـ٨ ص ٣٦٧) حديث عن النبى (ص) : «خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم) .

ويرى الجرجانى : أن الأبدال سبعة (التعريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٣٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بالعراق (تاريخ دمشق لابن عساكر حـ١ ص ٢٧٨) .

ويرى الهجويرى : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم بجملته كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سراية ؛ فَمَنْ كان فى الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذى سَلَفَ منه وهو مختارٌ فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم فى حال اختيارهم .

وما دام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلِ والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس بمضطرٍ ، فالمضطرُ يرى نَفْسَه كالغريق فى البحر ، أو الضَّالّ فى المتاهة ، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه ، وزِمَامَه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسِلِه ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة[1] .

ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحدٍ فى أن يدعوَ له ، لأنَّ اللهَ وَعَدَ الإجابة له .. لا لمن يدعو له .

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله : —

« ... ويجعلُكم خُلَفَاءَ الأرضِ أإلهٌ
مع اللهِ قليلًا ما تَذَكَّرون » .

فإنَّ مع العسر يسراً ، ولم يقل: للعسر إزالة ، ولكن قال : مع العسرِ يُسْرٌ ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ .

ثم قال : « أإله مع الله قليلًا ما تذكرون » لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرُه ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يَكُ صعلوكا إذا ما تَمَوَّلا

---

(١) إذا اطمأن العبدلنفسه ، ولاحظ عملَه فَقَدَ عنصراً هاماً من عناصر السير فى هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفى ذلك يقول أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو عثمان المغربى : أن إخلاص الخواص : هو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَهْدِيكُم فى ظُلُمَاتِ البرِّ والبحرِ »

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه فى متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل .. فَمَنْ الذى يرشدكم لوجه الصواب بِتَركِ التدبير ، وللاستسلامِ لحكم التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق ، والاستسلام لما جرَتْ به الأقسامُ ، وسَبَقَت به الأقدار ؟ .

« .. ومَنْ يُرْسِلُ الرياحَ بُشْراً بين يدى رحمتِه أَإِلهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكون » .

مَنْ الذى يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِهِ بين يدى أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك ، ويعجِّلَ بحُسْن الكفاية لك ؟ .

ويقال : يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير ، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصلُ بَردُ الكفاية فوق المأمول فى حال سكينة القلب .. أإله مع الله ؟ « تعالى الله عما يشركون » : من إحالة المقادير على الأسباب .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه ومَنْ يرزقُكُم من السماء والأرضِ أَإِلهٌ مع اللهِ قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إنْ كنتم صادقين » .

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقَّ فيه قولُه ، وسَبَقَ به قضاؤه وقدَرُه . فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر ويخصص .. فَمَنْ الذى يعيده مثلما بدأه ؟ ومن الذى يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه ؟ ومن الذى يقبض فى بعض الأوقات على

بعض الأشخاص ؟ وفى وقت آخر مَنْ الذى يبسط على قوم آخرين ؟ .

هل فى قدرة أحدٍ غيرِ اللهِ ذلك ؟ .

إنْ توهمتم شيئاً من ذلك فأَوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم . وإذ قد عجزتم .. فهلَّا صَدَّقْتُم ؟ وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قوله جل ذكره : « قُلْ لا يعلم مَنْ فى السموات والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ وما يَشْعُرون أَيَّانَ يُبْعَثُون » .

« الغيب » : ما لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلْق دليل ، وهو الذى يستأثر بعلمه الحقُّ[1] ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة ، ثم ما يريد اللهُ أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به .

« وما يشعرون أيان يبعثون » : فإنه أخفى علمَ الساعة عن كل أحدٍ .

قوله جل ذكره : « بل ادَّارَكَ[2] عِلْمُهم فى الآخرةِ بل هم فى شكٍّ منها بل هم منها عَمُون » .

فهم فى الجملة يَشُكُّون فيه ؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه .. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضِ القلب ، فلا حياةَ له فى الحقيقة ، ولا راحةَ له من يأسه ؛ إذ هو من البعث فى شكٍّ ، ومن الحياة الثانية فى استبعاد : —

« وقال الذين كفروا أإذا كُنَّا تُراباً وآباؤنا أئِنَّا لَمُخْرَجون * لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ إذ الحق هو الذى يستأثر بعلم الغيب .

(٢) يرى القرطبى أن القراءة هكذا والقراءة على (بل أدرك) معناها واحد لأن أصل (ادّارك) تدارك وأدغمت الدال فى التاء وجىء بألف الوصل (الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٢٢٦) .

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مِثْلُهم، وكانوا يسألون متى الساعة ؟ :

« ويقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم
صادقين ؟ » .

فقال الحقُّ : إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته : —

« قُلْ عسى أَنْ يكونَ رَدِفَ[1] لكم
بعضُ الذى تستعجِلون » .

ثم قال جل ذكره :

« وإنَّ رَبَّكَ لذو فَضْلٍ على الناسِ
ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

لأنهم لا يُمَيِّزُون بين مِحَنِهم ومِنَحِهم . وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة ؛ فإذاً تقاصَرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه ، فعسى أن يحب شيئًا ويظنَّه خيراً وبلاؤه فيه ، ورُبَّ شيء يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها ، وهى محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله فى صَرْفِها ! وبعكس هذا كم من شىء يظنه الإنسان بخلاف ما هو به ! .

قوله جل ذكره : « وإنَّ ربَّكَ ليَعْلَمُ ما تُكِنُّ
صدورُهم وما يُعْلِنون » .

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم ؛ فصادِقٌ يستوى ظاهِرُه وباطنُه يعلمه ، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه .. وهو — سبحانه — يعلمه ، وكافرٌ يستوى فى الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه ، وهو يجازى كلاً على ما عَلِمَه .. كيف لا .. وهو قَدَّرَه ، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه ؟ ! .

---

(١) من أردف أى تبع ، وقال الفراء : ردف لكم أى دنا .

قوله جل ذكره : « وما مِنْ غائبةٍ فى السماء والأرضِ إلَّا فى كتابٍ مبين » .

ما من شىء إلَّا مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ حُكْمُه ، ماضيةٌ فيه مشيئته ، متعلِّقٌ به عِلْمُه .

قوله جل ذكره : « إنَّ هـذا القرآنَ يَقُصُّ على بنى اسرائيل أكثرَ الذى هم فيه يختلفون * وإنَّه لَهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين » .

وهم يُخْفُون بعضاً ، وبعضاً يُظْهِرُون ، ومع ما يَهْوَوْن يدورون .

وفى هذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم ، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذى أخبر الصادقُ أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلُون .

« إنَّ رَبَّكَ يقضى بينهم بحُكْمِه وهو العزيز العليم » .

هو « العزيز » المُعِزُّ للمؤمنين ، « العليم » بما يستحقه كلٌّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فتوكَّلْ على اللهِ إنَّكَ على الحقِّ المبـين » .

أى اجتهد فى أداء فَرْضِه ، وثِقْ بصدق وعده فى نصره ورزقه ، وكفايته وعَوْنه . ولا يهولنَّكَ ما يجرى على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً ، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياءِ صِدْقٍ ، وهم على شكٍّ وظلمةِ شِركٍ .

قوله جل ذكره : « إنَّك لا تُسْمِعُ الموتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين » .

الذين أماتَ اللهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ ، وأصمَّهم عن سماع الحق — فليس فى قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشكِّ .

« وما أنت بِهادِى العُمْيِ عن ضلالتِهم
إنْ تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤْمِن بآياتنا فَهُم
مُسْلِمُون » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولـكنك لا تهدى أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان ، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .

أنت لا تُسْمِـعُ إلّا مَنْ يؤمِن بآياتنا ، فلا يَسْمَعُ منك إلّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق .

قوله جل ذكره : « وإذَا وَقَعَ القولُ عليهم أخرجنا لهم
دابَّةً مِنَ الأرضِ تُـكَلِّمُهم أَنَّ الناسَ
كانوا بآياتِنا لا يوقِنون » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها فى كلامِ الدَّابةِ المُخْرَجَةِ من الأرضِ[1] . وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « ويومَ نَحْشُرُ من كلِّ أمةٍ فوجاً مِمَّن
يُكَذِّبُ بآياتنا فهم يُوزَعون » .

وعند ذلك لا ينفعُ الإيمانُ ولا يُقْبَلُ العُذْرُ : —

---

(١) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم : «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً = زيادة من صحيح مسلم) طلوعُ الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» . ومن الأقوال فى هذه الدابة: أنها فصيل ناقة صالح ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة للصحابة والتابعين والمفسرين .

«وَوَقَعَ القولُ عليهم بما ظلموا فهم
لا ينطِقون » .

ثم كَرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« ألم يَرَوْا أنَّا جعلنا الليلَ لِيَسْكُنُوا
فيه والنهارَ مُبْصِراً إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يُؤْمِنون » .

أى ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم ، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم .

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ ففزِعَ مَنْ
فى السموات ِ ومَنْ فى الأرضِ إلّا مَنْ
شاء اللهُ وكُلٌّ أَتَوْه داخرين » .

أخبر أن اليومَ الذى يُنْفَخُ فيه فى الصور هو يومُ إزهاق الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛ فَمِنْ روحٍ ترق إلى عِلِّيين ، ومِنْ روحٍ تذهب إلى سجِّين .. أولئك فى حواصل طيرٍ تسرح فى الجنة تأوى بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرَّوْح والراحة ، ولبعضها الشهود والرؤية ... على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه فى دنياهم .

وأمّا أرواحُ الكفار ففى النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم .

قوله جل ذكره : « وترى الجبالَ تحْسَبُها جامِدةً وهى
تَمُرُّ مَرَّ السحابِ صُنْعَ اللهِ الذى أتقن
كُلَّ شىءٍ إنَّهُ خبيرٌ بما تفعلون » .

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين ، هم ساكنون بنفوسهم[1] سائحون فى الملكوت بأسرارهم .. قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ بائنٌ ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره ، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره .

---

(١) عُرِفَ الجنيدُ بسكونه وقلة اضطرابه عند السماع ، فلما سئل فى ذلك تلا : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى .... » (اللمع للسراج ص ١٢٨) .

قوله جل ذكره : « مَنْ جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها وهم مِنْ فزَعٍ يومئذٍ آمِنون * ومَنْ جاء بالسيئةِ فكُبَّتْ وجوهُهُم فى النار هل تُجْزَوْنَ إلّا ما كُنْتُم تعملون » .

يحتمل أن يكون « خير » ها هنا المبالغة ؛ لأن الذى له فى الآخرةِ من الثوابِ خيرٌ مِمّا منه من القُرَب : ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها . وهم آمنون مِنْ فزَعِ القيامة . ومن جاء بالسيئة : فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فحُكْمُهم غداً فى الآخرة بالضدِّ .

قوله جل ذكره : « إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ربَّ هذه البلدة ... »

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفيِّ ، والتبرِّى من الشِّركِ ؛ الجلىِّ منه والخفىِّ ، وبملازمةِ الطريقِ السَّوىِّ . وأخبر أنَّ مَنْ اتبعه وصَدَّقَه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه .

قوله جل ذكره : « وقُلْ الحمدُ للهِ سيريكم آياته .. »

سيريكم — عن قريبٍ — آياتِه ، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته ، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يسّر له فى دنياه وعُقْباه ، اسم عزيز مَنْ اشتاق إلى لُقْياه استَعْذَبَ فيه ما يلقاه من بَلْوَاه . ومَنْ طَلَبَ غيره مُؤْنِساً فى دنياه أو عُقْباه « ضَلَّ مَنْ تدعون إلّا إيّاه » .

قوله جل ذكره : « طسم * تلك آياتُ الكتابِ المبين » .

« الطاء » تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار الموحِّدين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سِرِّ اللهِ مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدرجات ، ومع المحبين بدوام المناجاة . « والميم » تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات فى سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « نتلو عليكَ من نبأِ موسى وفرعون بالحقِّ لقومٍ يؤمنون » .

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيب يُوجِبُ سلوةَ القلب ، وذهابَ الكَرْبِ ، وبهجةَ السِّرِّ ، وثَلَجَ الفؤاد . وقد كرَّر الحقُّ ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه ، ثم زيادةً فى البيانِ لبلاغة القرآن ، ثم إفادةً لزوائدَ فى المذكورِ قولُه فى كل موضعٍ يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إنَّ فرعونَ عَلاَ فى الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً يستضعف طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءَهم ويستحى نساءَهم إنه كان من المفسدين » .

تكبَّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقماه بحقٍّ ، وتجبَّرَ بغير استحقاق فأذلَّه الله باستحقاق واستيجاب ، وجعل أهلها شيعاً يذبِّح أبناءهم[1] بعد ما استضعفهم ، ويستحى نساءهم ، وأفنى منهم من كان (...)[2] ، وبالفساد حَكَمَ فيهم ، واللهُ لم يرضَ بتَرْكِ إتلافهم .

قوله جل ذكره : « ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا
فى الأرض ونجعلَهم أئمـةً ونجعلَهم
الوارثين * ونُمَكِّنَ لهم فى الأرضِ
ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم
ما كانوا يحذَرُون » .

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاصِ من أيديهم ، وأَنْ نجعلَهم أئمةً ، بهم يَهتَدِى الخلقُ ، ومنهم يتعلم الناسُ سلوكَ طريق الصدق ، ونبارك فى أعمارهم ، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُنَاوِيهم ، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم ؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ ، وسادةٌ وقَادَةٌ ؛ بهم يُقتَدَى وبنُورِهم يُهتَدَى .

« ونمكن لهم فى الأرض » : نُزِيلُ عنهم الخوفَ ، ونرزقهم البسطة والاقتدار ، ونمد لَهُمْ فى الأجل . ونُرِى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم ؛ وأَنَّ الحقَّ يُعْطِى — وإن كان عند الخَلْق أنَّهُ يُبْطِى .

قوله جل ذكره : « وأوحينا إلى أمِّ موسى أنْ أرضعيه
فإذا خِفْتِ عليه فأَلقيه فى اليمِّ ولا تخافى
ولا تحزنى إنَّا رادُّوه إليكِ وجاعِلوه
من المرسلين » .

---

(١) كان سبب سلوكه هذا السبيل مع بنى إسرائيل أن الكهنة قالوا له ان مولوداً يولدى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال له المنجمون ذلك ، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

(٢) مشتبهة .

أى ألقينا فى قلبها ، وأوحينا إليها وحىَ إلهامٍ ، فاتخذت خاطرها فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها .

لمّا وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ فىذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبنى اسرائيل، رجاءَ أن يقتلَ مَنْ رأى فى النوم ما عُبِّرله أن ذهابَ مُلْكِه على يدى إسرائيلى .. فألقى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه ربّاه فى حِجْرِه ذلك اليومَ — ليُعْلَمَ أنَّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى فى تابوتٍ ، وألقته فى نيل مصر ، فجاء الماء به إلى بِرْكةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأسَ التابوت . فلمّا رآه فرعون أَخَذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه ، وكذلك تمكّن حُبُّه من قلب امرأةِ فرعون ؛ قال تعالى : « وألقيت عليك محبةً منى » :[1] حيث خَلَقَ الله ملاحةً فى عينى موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حُبِّه .

قوله جل ذكره : « فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم
عدواً وحَزَناً إنَّ فرعونَ وهامانَ
وجنودَهما كانوا خاطئين » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأةُ فرعون :

« قُرَّةُ عينٍ لى ولكَ لا تقتلوه عسى
أن ينفعَنَا أو نَتَّخِذَه ولداً وهم
لا يشعرون » .

فلم يكن لهما ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يئول أمره .

« وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إن
كادت لَتُبْدِى به لولا أنْ رَبَطْنا على
قلبها لِتكونَ مِنَ المؤمنين » .

---

(١) آية ٣٩ سورة طه .

لمّا ألقته فى الماء سَكَّنَ اللهُ قلبَها ، وربط عليه ، وألهمها الصبر ، وأصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدى به من حيث ضعف[1] البشرية ، ولكن الله ربط على قلبها .

قوله جل ذكره : « وقالت لأخته قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون » .

أمَرَتْ أمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره ، وتنظرَ إلى ماذا يئول أمره ، فلمّا وجدوه واستمكن حبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه :

« وحَرَّمنا عليه المراضِعَ من قَبْلُ فقالَتْ هل أدُلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمِّه كى تقَرَّ عينُها ولا تحْزَنَ ولتعلَمَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولكنَّ أكثَرَهم لا يعلمون » .

أبَى موسى قبولَ ثدىٍ واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن .. فَمَنْ بالغداة كانوا فى اهتمامٍ كيف يقتلونه أمسوا — وهم فى جهدهم — كيف يُغَذُّونه[2] !

فلمّا أعياهم أمرُه ، قالت لهم أختُه : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ » فَقَبِلُوا نصيحتها شفقةً منهم عليه ، وقالوا : نعم ، فردُّوه إلى أمِّه[3] ، فلمّا وَضَعَتْ ثَدْيَها فى فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوا بذلك ، وكانوا يَدْعُون أمَّه حاضنةً ومرضعةً .. ولم يُضِرْها ، وكانوا يقولون عن فرعون : إنه أبوه .. ولم ينفعه ذلك[4] !

---

(١) هكذا فى م ، وقد أخطأ الناسخ فى ص حين أضاف لفظة (الله) بعد (ضعف) .

(٢) هكذا فى م ، وفى ص (يعذبونه) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٣) هكذا فى م ، وفى ص (آمره) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٤) يقصد القشيرى إلى شىء بعيد هو أن أحكام الناس ليست بالضرورة صائبة ، وأن للأمور حقائق وجواهر وبواطن خافية ، وأن أسماء الأشياء وظواهرها لا عبرة بها .

ولمّا أخذته أمُّه علمت بتصديق الله ظنها ، وسكن عن الانزعاج قلبُها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى .

قوله جل ذكره : « ولمّا بَلَغَ أَشُدَّه واستوى آتيناه حُكْماً وعِلماً وكذلك نجزى المحسنين »

لمّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمَّ عقلُه ، واستوى كمال خصاله « آتيناه حكما » : أى أَتْمَمْنَا له التحصيل ، ووَفَّرْنا له العلم ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء .

قوله جل ذكره : « ودَخَلَ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها فوجَدَ فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوِّه ... الآية .

قيل : دخل المدينةَ فى وقت الهاجرة، وتَفَرُّقِ الناس ، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان:أحدهما اسرائيليٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه ، والآخرُ قِبطيٌّ مخالفٌ لهما ، فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى على القبطى ، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلى،فمات الرجلُ بذلك الوَكْز ، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه ، فقال موسى : —

« هذا من عَمَلِ الشيطانِ إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبين » .

فقد تمَنَّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأَيْسَرَ مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان[1] ، ولكنَّ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأَنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة .

وهكذا .. إذا أراد اللهُ أمراً أجرى أسباباً ليَحْصُلَ بها مرادُه ، ولولا أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قَبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة ، فقد يُضْرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لايموت ؛ فموتُ القبطى بوكزةٍ اجراء لما قضاه وأراده .

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى : أن الشيطان ليس بيده شىء ، لأنه لو كان بيده شىء لأمسك على الهداية نفسه ، وكل عمل الشيطان أنه يوسوس فى صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نفسى فاغْفِرْ لى فغفَرَ له إنه هو الغفورُ الرحيم » .

تاب موسى عَمَّا جرى على يده ، واستغفر ربَّه ، وأخبر اللهُ أنه غفَرَ له ، ولا عتابَ[1] بعد المغفرة .

قوله جل ذكره : « قال رَبِّ بما أَنْعَمْتَ علىَّ فَلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين » .

قال موسى ربِّ بما أنعمت علىَّ من توفيقك لى بالتوبة[2] فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ منى .

قوله جل ذكره : « فأصبح فى المدينةِ خائفاً يترقَّبُ فإذا الذى استنصره بالأمسِ يَسْتَصْرِخُه قال له موسى إنَّكَ لَغَوِىٌّ مبين * فلمَّا أنْ أرادأَنْ يَبْطِشَ بالذى هو عدوٌّ لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلَنى كما قتلْتَ نَفْساً بالأمسِ إنْ تُرِيدُ إلاَّ أَنْ تكونَ جبَّاراً فى الأرضِ وما تريدُ أَنْ تكونَ من المُصْلِحين » .

أصبح فى المدينة خائفاً على نَفْسِه من فرعون لأنه كان يَدَّعى أنه يحكم بالعدل ، وخاف موسى أن ينسبه فى قَتْلِ القبطىِّ إلى العَمْدِ والقصد . فهو « يترقب » علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك فى وقته .

---

(١) هكذا فى النسختين ولا نستبعد أن تكون (عقاب) بالقاف فالسياق يحتملها أيضاً وإن كانت (عتاب) أليق بمقام النبوة .

(٢) حقيقة التوبة أن يتوب الله عليك أولاً ، ويهيء لك أسباب التوفيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فعملك لا يكفى ولا يغنى عن فضل الله .

وقيل « خائفاً » من الله مما جرى منه . ويقال « خائفاً » على قومه حلولَ العذابِ بهم .
وقيل « يترقب » نصرة الله إياه . ويقال « يترقب » مُؤْنِساً يَأْنَسُ به .

فإذا الذى استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ ، ويستعين به لِيُعِينَه ، فهَـمَّ موسى بأن يعين صاحبَه ، فقال الذى يخاصمه : « يا موسى ، أتريد أن تقتلنى كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس ؟ » : قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، ولـكن لـمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَّ على أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أَنَّ موسى هو الذى قتل القبطىَّ بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رَجُلٌ من أقصى المدينةِ يسعى
قال يا موسى إنَّ الملأَ يَأْتَمِرُون بِكَ
ليقتلوكَ فاخرُجْ إنّى لَكَ من الناصحين »

جاء اسرائيلىٌّ من معارف موسى يسعى ، وقال إن القوم يريدون قَتْـلَكَ ، وأنا واقفٌ على تدبيرهم ؛ وقد أرادوا إعلامَ فرعون .. فاخرُجْ من هذا البلد ، إنى لك من الناصحين .

« فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّبُ قال ربِّ
نَجِّنى من القومِ الظالمين » .

خرج[1] من مصر « خائفاً » أن يقتفوا أَثَرَه ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل « يترقب » الـكفايةَ والنصرةَ من الله ، ودعا الله فقال : « نجنى من القوم الظالمين » .

قوله جل ذكره « ولـمَّا تَوَجَّه تِلْقَاءَ مدينَ قال عسى ربى
أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السبيل » .

---

(1) ربما يذكرنا موقف موسى بقضية هامة فى الطريق الصوفى هى «السفر» : وضرورته أو عدمها ، وقد اختلف المشايخ فى أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى القشيرى ضرورة السفر . إن نبا المكان واشتد البلاء . (الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه غادر بلاده عند إطباق المحنة عليه .

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح[1] ، وتوجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديه ربُّه إلى النحو الذى هو خيرٌ له ، فقال : عسى ربى أن يهدينى إلى أَرْشَدِ سبيلٍ لى .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مدينَ وَجَدَ عليه
أُمَّةً من النـاسِ يسقون ووَجَدَ من
دونِهم امرأتين تذودانِ قال
ما خطبُكما ؟ قالتا لا نَسْقِى حتى يُصْدِرَ
الرِّعاء وأبونا شيخٌ كبير » .

لمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون المـاءَ فى الحياضِ ، ويسقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَرُه لـكثرة بكائه ؛ ففى القصة أنه بكى فذهب بَصَرُه ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى ، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُه ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبكى يا شعيب .. ؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أَمَّنْتُكَ ، وإن كان لِأَجْلِ الجنة فقد أَبَحْتُها لك .

فقال : ربِّ .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أُخْدِمُكَ نَبِيِّى وكليمى عَشْرَ حجج .

وكانت لشعيب أغنامٌ ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنمَ مكانَ الرعاة ، ولم يكن لهما قدرة[2] على استقاء المـاء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقضَوْا[3] فإنْ بَقِيَتْ فى الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

---

(١) وهكذا سفر الأكابر .
(٢) هكذا فى ص وهى فى م (قوة) .
(٣) من الجائز أن تكون فى الأصل (انفضوا) بالفاء فالسياق يحتملها بدليل قوله فيما بعد (فلما انصرف الرعاة)

فلمَّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبُه لهما وقال : ماخطبُكما ؟ فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير . فلمَّا انصرف الرعاةُ سَـقَى لهما ، ثم تولّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه خلال سَفَرِه ، ولم يكن قد تعوَّدَ قط الرحلةَ والغُرْبةَ ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

« فقال ربِّ إنِّى لِمَا أنزَلْتَ إلىَّ من
خيرٍ فقيرٌ » .

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه ، وقيل طَلَبَ حالًا يستقِلُّ بها . والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بها رَمَقَه — والمعرفة توجِب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلًا أو كثيراً[1] . فلمَّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسَّها بيديه فوجَدَ أثرَ الزيادة فى تلك الكَرَّة ، فسألَهما فذَكَرتا له القصة ، وما سمعتا منه حين قال : « ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٌ » ، فقال شعيب : إذاً هو جائع . وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه : —

« فجاءَتْهُ إحداهما تمشى على استحياءٍ
قالت إنَّ أبى يَدْعُوك ليَجْزِيَكَ أجْرَ
ما سَقَيْتَ لنا . فلمَّا جاءه وقصَّ عليه
القَصَصَ قال لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
القومِ الظالمين » .

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَماً[2] .

وقيل لمَّا دَعَتْه للضيافة تـكلمتْ مستحييةً — فالـكريم يستحى من الضيافة .

ويقال لم تَطِبْ نفسُ شعيب لمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه[3] لم يكافئه — وإن كان موسى

---

(١) لاحظ كيف طبق القشيرى (أدب السؤال) ومتى يجب ؟ وكيف يجب ؟ على موقف موسى الغريب المسافر الجائع المتعب ، وهذه الإشارة موجهة من بَيْن إلى أرباب الطريق .

(٢) المحرم من الرجال والنساء الذى يحرم التزوج به لرحمه وقرابته .

(٣) الضمير فى (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من السياق .

لم يُرِدْ مكافأةً منهم « فلمَّا جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقُلْ : فلما جاءه قدَّم السُّفرةَ[1] بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظاهرِه ماءَ مدين ، ووَرَدَ بقلبه مواردَ الأُنْس والرَّوْح . والموارد مختلفة ؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسْطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواح فيُكاشَفُون بأنوار المشاهدة ، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفْسِ ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ ، ولاقلبَ ولا أُنْسَ .. استهلاكٌ في الصمدية وفناءٌ بالكلية ! .

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرميَّة يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالها .. ولكن الذى بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألها عن قصتهما ، كما قيل :

أَجارَتَنا إنَّا غريبان ها هنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال : لمَّا سألها وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤهم .

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكان جائعاً ، وكان مقتضى الرِّفْقِ أنْ يُطْعِموه ، ولكنه قبَضَ القلوبَ عنه ، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنْ يعملَ عَمَلَ أربعين رجلاً ؛ لأن الصخرة التى نَحَّاها عن رأس البئر — وَحْدَه — كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً ، تولَّى إلى الظِّلِّ ، وقال : إنْ رأيتَ أنْ تُطْعِمَنِي بعد مُقاساة اللتيا والتى .. فذلك فَضْلُكَ ! .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسانَ أحلى من ذلك . وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا منْكَ .. بل منه إليه[2] .

---

(١) السفرة طعام يصنع للمسافر ، أو مائدة وما عليها من طعام .

(٢) لأنك بلا أنت ، فبالضرورة ليس منك شكوى ، فعلى الحقيقة لا وجود إلا له ، فاتركه ممسكاً بعنانك ، واستسلم لما يختار ، ولن يكون إلا الخير .

ويقال : تولَّى إلى ظلِّ الأُنْس ورَوْح البسط واستقلال السِّرِّ بحقيقة الوجود .

ويقال قال : « رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خيرٍ فقير » : فَزِدْنى فقراً ؛ فإنَّ فقرى إليك بوجِبُ استعانتى بك[1] .

قوله جل ذكره : « قالت إحداهما يا أبَتِ استأْجِرْه إنَّ خيرَ مَنْ استأجَرْتَ القوىُّ الأمينُ » .

كان شعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبُه إلى أحدٍ ، فلمَّا رأى موسى ، وسمع من ابنته وصفَه بالقوة والأمانة سأل :

عَرَفْتُ قوَّتَه .. فكيف عرفتِ أمانتَه ؟

فقالت : كنتُ أمشى قُدَّامَه فأَخَّرَنى عنه فى الطريق قائلاً : سيرى ورائى واهدينى ، لئلا يَقَعَ بَصَرُه علىَّ .. فقال شعيب :

« قال إنى أُريد أنْ أُنكِحَكَ إحدى ابنتىَّ هاتين على أنْ تأْجُرَنى ثمانِىَ حِجَجٍ فإنْ أتمَمْتَ عَشْرًا فمِنْ عِنْدِك ، وما أُريد أنْ أشُقَّ عليكَ ستجدنى إنْ شاءَ اللهُ من الصالحين » .

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حججٍ لشعيب .

وفى القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخلْ هذا البيتَ وَأَخْرِجْ مما فيه من العِصِىِّ عصاً ، وكان البيتُ مظلِماً ، فَدَخَل وأخرج العصا ، تلك التى أظهر الله فيها معجزاتِه ، ويقال : إنها كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبىٍّ إلى نبىٍّ . إذ يقال : إنه لما هَبَطَ آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع ، فأنزل عليه الله عصاً ، وأمَرَه جبريلُ أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا .

---

(١) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن ضعف العبد أمام عظمة الربوبية ، فكأنه نوع من التعبد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه ....)

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلمَّا أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب : ردَّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخرِجْ عصاً أخرى ، فَفَعَلَ غير مرة ، ولم تحصل كلَّ مرة في يده إلا تلك العصا ، فلمَّا تَكَرَّرَ ذلك عَلِمَ شعيبُ أنَّ له شأناً فأعطاه إياها ،

وفي القصة : أنه في اليوم الأول ساق غَنَمَه ، وقال له شعيب : إنَّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْن : على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ .. فلا تَسْلُكْه في الرعي فإنَّ فيه ثعباناً ، واسْلُكْ الشِّعْبَ الآخرَ . فلمَّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين ، تَفَرَّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه ، وسامت في الشِّعْبِ الكثيرِ الكَلأ ، فَتَبِعَها ، ووقع عليه النومُ ، فلمَّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً ، فإن العصا قتلته ، ولمَّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى في عصاه آياتٍ كثيرة ، ولذا قال : « ولي فيها مآرب أخرى » .

قوله جل ذكره : « فلمَّا قضى موسى الأجَلَ وسارَ بأهلِه
آنَسَ مِنْ جانبِ الطُّورِ ناراً قال لأهلِه
امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نارًا لَعَلِّي آتيكم
منها بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ من النارِ لَعَلَّكم
تصطلونَ » .

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر ، فَحَمَلَ ابنةَ شعيب ، وسارَ بأهله متوجِّهاً إلى مصر . فكان أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحقِّ ، ولمَّا ظَهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطَّلْقِ استصعب عليه الوقتُ ، وبينا هو كذلك إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً — أي أبصر ورأى — فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنْسٍ : وإنَّ اللهَ إذا أراد أمراً أجْرَى ما يليق به ، ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار ، وقد تَوَهَّمَ — أول الأمر — أنَّ ما يستقبله في ذلك الوقتِ من جملة البلايا ، ولكنه كان في الحقيقة سَبَبَ تحقيقِ النبوة . فلولا أسرار التقدير — التي لا يهتدى إليها الخَلْقُ — لما قال لأهله : « امكثوا إني آنست ناراً لعلِّي آتيكم منها بخبرٍ » .

ويقال : ألاح له ناراً ثم لوَّح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ ، وإنما سماع نداء : « إنى أنا اللهُ ربُّ العالَمين » .

قوله جل ذكره : « فلمَّا أتاها نُودِىَ من شاطىء الوادى الأيمنِ فى البقعةِ المُبَارَكة من الشجرة أنْ ... » الآية

أخفى تعيين قَدَمِ موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطىْ الواد الأيمن » ، ثم قال : « فى البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة ؛ وأعَزُّ الأماكنِ فى العالمِ مَشْهَدُ الأحباب :

وإنى لأهوى الدارَ ما يستمزنى لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال : كم قَدَمٍ وَطِئَتْ تلك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً ! . وكم ليلةٍ جَنَّت تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة ! .

ويقال : شتَّان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه ، وشجرة موسى وعندها افتتاحُ نُبُوَّتِه ورسالتِه ! .

ويقال : لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة[1] ، ولا يُدْرَى ما الذى كانت تثمره ، بل هى شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلُها فى أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ فى سماء الصفوة ، وأوراقها الزلفة ، وأزهارها تَتَفَتَّقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة :

فلمَّا سمع[2] موسى تغيَّر عليه الحال ؛ ففى القصة : أنه غُشِى عليه ، وأرسل اللهُ إليه الملائكة لِيُرَوِّحوه بمراوح الأُنْس ، وهذا كان فى ابتداء الأمر ، والمبتدئُ مرفوقٌ به . وفى المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِقًا ، وكان يفيق والملائكةُ تقول له : ياابن الحَيْض . أمثلك مَنْ يسأل الرؤية ؟ !

---

(١) قيل هى شجرة العليق وقيل العوسج والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد (القرطبى) .

(٢) معروف أن السماع عند الصوفية يصحبه -وخصوصاً لدى المبتدئين- تأثيرات عضوية ونفسية حادة .

وكذا الحديث والقصة[1] ؛ فى البداية لُطفٌ وفى النهاية عُنفٌ ، فى الأولِ خَتْل وفى الآخرِ قَتْل ، كما قيل :

فلمَّا دارت الصهبـــاء[2] دعا بالنِّطـــع والسيفِ
كذا مَنْ يشرب الراحَ مع التِّنِّين فى الصيفِ[3]

قوله جل ذكره : « وأنْ ألْقِ عصاك » .

ياموسى .. إخْلَعْ نعليكَ وألقِ عصاك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلة ، فلقد تَعِبْتَ فى الطريق — وذلك إن لم يكن فى النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

ياموسى .. كيف كُنْتَ فى الطريق ؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوَّبت[4] وكيف شرَّقْتَ وكيف غرَّبْتَ ؟ ما كنتَ فى الطريق وحدَكَ يا موسى ! أحصَيْنا خُطَاكَ — فقد أحصينا كلَّ شىء عَدَدًا . يا موسى .. تَعِبْتَ فاسترِحْ ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَح — كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافةَ فى القيامةِ ، وتبوَّأَ مَنْزِلَه من الجنة ؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون ، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أوالخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه . يبتدئ أولاً بخدمة السُّدَّةِ العَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك اليوم أمرنا[5] ؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم : ألا نشتغِلَ بشىء حتى نَفْتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق ، نحضر بساط الخدمة — أى الصلاة — بل نحضر بساط الدنوِّ والقربة ، قال تعالى : « واسجد واقترب »[6] : فالمُصَلِّى مُنَاجٍ رَبَّه . ولو عَلِمَ المُصَلِّى مَن

---

(١) يقصد حديث الحب وقصته

(٢) الرواية الصحيحة «فلما دارت الكأس» .

(٣) البيتان من المقطعة التى أنشدها الحلاج وهو يواجه مصرعه ، وأولها :

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيف

(طبقات الشعرانى حـ١ ص ١٢٠)

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (ضربت) ، وضرب فى الأرض أى جال وسار ، وقد أثبتنا (صوَّبت) لتتلاءم مع الأفعال المضعفة طبقاً لما نعرف من حرص القشيرى على الموسيقى اللفظية .

(٥) من هذا نفهم أن القشيرى يكتب كتابه أو يمليه من أجل الصوفية ، فضمير المتكلمين يدل على نوع من التخصيص .

(٦) آية ١٩ سورة العلق .

يناجي ما التفت ؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً وشمالاً في التسليم الذي هو التحليل[1] .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رآها تَهتَزُّ كأنَّها جَانٌّ وَلَّى
مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ
إنَّكَ مِنَ الآمنين » .

عند ما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول : حديثٌ أَوَّلُه تسليطُ ثعبان ! مَنْ ذا يُطِيقُ أوَّلَه ؟ ! .

فقيل له : لا تَخَفْ يا موسى ؛ إن الذى يَقْدِرُ أنْ يَقْلِبَ العصا حيةً يقدر أن يَخْلُقَ لك منها السلامة : « يا موسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ من الآمنين » : ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت ، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك ، فهذه معجزتُك إلى قومك ، وآيتُك على عدوِّك .

ويقال: شتان بين نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بثعبانٍ سَلَّطَه على عدوِّه ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى — لِيُوَافِيَ أُمَّتَه بالصلاة التي هي المناجاة ، وقيل له : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْلُكْ يَدَكَ في جيبِكَ تَخرجْ بيضاء
مِنْ غيرِ سوء واضمُمْ إليك جناحَكَ
من الرَّهبِ فَذَانِكَ بُرْهانان من ربِّكَ
إلى فرعونَ ومَلَئِه إنَّهم كانوا قوماً
فاسقين » .

قيل له : اسلُكْ يَدَكَ في جيبك، لأنَّ المدرعةَ التي كانت عليه لم يكن لهـا كُم . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمَّر ، وأن يجدَّ ،

(١) التحليل: الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن يشتغل بشيء بعدما تمت مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التي يؤثر القشيرى دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أنهوا صلاتهم يستمرون في الذكر والتأمل دون حدود .

وأنْ يُخْرِجَ يَدَه من كُمِّه . وإنه قال لموسى : أدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك تخرج بيضاء ، وألْقِ عصاكَ نجعلْها ثعباناً ، بلا ضَرْبِكَ بها ، وبلا استعمالِك لها يا موسى : الأمرُ بِنَا لا بِكَ ، وأنا لا أنت .

« واضم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك » : ياموسى ، فى وصف خضوعك تجِدُنى ، وبتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك تَصِلُ إلىَّ .

قوله جل ذكره « قال رَبِّ إنِّى قَتَلْتُ منهم نَفْسًا فأخاف أنْ يَقْتُلُونِ » :

تَعَلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجاءَ أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغِ ومقاساةِ البلاءِ ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ ، فلم يَجِدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّف ، وأجاب سُؤْلَه فى أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له رِدْءًا ، وضمن لهما النصرة .

ثم إنهما لَمَّا أتيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد[1] ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر[2] ، وجاوباه[3] بالحجة ، ودَعَوَاه إلى سَوَاءِ الحجَّة ، فأَبَى إلَّا الجَحْدَ .

قوله جل ذكره « وقال فِرْعونُ يأيها الملأُ ما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غيرى فأَوْقِدْ لى يا هامانُ على الطين فاجعل لى صَرْحًا لَعَلِّى أطَّلِعُ إلى إلهِ موسى وإنى لَأَظُنُّه من الكاذبين » .

ادَّعى الانفرادَ بالإلهية فزاد فى ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ ، ثم قال لهامان : « ابْنِ لى صَرْحا لعلِّى أطلع إلى إله موسى » وكان هذا من زيادة ضلاله ،

---

(١) (والجحد) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٢) (والسحر) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (وحارباه) .

حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولعمرى لو كان فى جهةٍ لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ! .

« واستكبر هو وجنودُه فى الأرضِ
بغير الحقِّ وظنُّوا أنّهم إلينا لا يُرْجَعُون *
فأخذناه وجنودَه فنبذْناهم فى اليمّ فانظُرْ
كيف كان عاقبةُ الظالمين » .

أبَى إلّا أنْ يدومَ جحودُه ، وعُنوده ، فأغرقه اللهُ فى البحرِ ، كما أغرق قلبَه فى بحر الكُفْر .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أئمةً يَدْعُون إلى النـارِ
ويومَ القيامة لا يُنْصَرون » .

لا لِشَرَفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَفِهم قَدَّمَهم فى الخزى والهوان على كلِّ أمة ، ولكن لم يُرْشِدُوا إلّا إلى الضلال . ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلّا على المُحَال ، وما حصلوا إلا على سوءِ الحال ، وما ذاقوا إلا خِزْىَ الوبال . أفاضوا على مُتَّبِعِيهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا فى خِسَّةِ[1] مطلوبهم .

قوله جل ذكره : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامةِ هم من المقبوحين » .

كانوا فى الدنيا مُبْعَدين عن معرفته ، وفى الآخرة مُبْعَدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ .

قوله جل ذكره : « ولقد آتَيْنا موسى الكتابَ مِنْ
بَعْدِ ما أهلَكْنا القرونَ الأولى بصائرَ

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خيبة)

للنـاسِ وهُدًى ورحمـــةً لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُون » .

إنما تطيب المنازلُ إذا خلَتْ من الأجانب ، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقباء وغَيْبَتِهِم ، فلمّا أهلك اللهُ فرعونَ وقومَه ، وأورث بنى اسرائيلَ أموالَهم وديارَهم ، ومحا عن جميعِها آثارَهم — طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ بجانب الغَربِيِّ إذ قَضَيْنا إلى موسى الأمرَ وما كُنْتَ من الشاهدين » .

لم تـكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولـكنهم رأوا أنَّ إخبارَكَ عنهم بحيث لا يكذبك كتابُهم . وبالضرورة عرفوا حالَكَ ، وكيف أنّك لم تَعلَمْ هذا من أحدٍ ، ولا قَرَأْتَه من كتاب ، لأَنَّكَ أُمِّيٌّ لا تُحْسِنُ القراءة ، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا لَكَ على ذلك .

ويقال : « وما كنتَ بجانب الغربى » : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ، وكَلَّمْنَاه ، وخاطبناه فى بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ ، ولم تقدح غَيْبَتُـكُم فى الحال ، وكَوْنى لـكم خيرٌ من كَوْنِـكم لـكم .

ويقال : لمَّا خَاطَبَ موسى وكَلَّمه سأله موسى : إنِّى أرى فى التوراة أُمَّةً صفتهم كذا وكذا .. مَنْ هم ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجابُ بأنَّها أمة أحمد[1] ، فاشتاق موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم ، فإنْ شِئْتَ أسمعتُكَ كلامَهم ، فأراد أن يسمعَ كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمةَ أحمد .. ، فأجابالـكلُّ من أصلاب آبائهم ، فَسَمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهُم[2] . والغنىُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا فى ص وهى فى م (أمة محمد) ، ونحسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً للآية «ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبى ح١٣ ص ٢٩٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفى رواية عن ابن عباس)[1] أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ ثاوياً[2] فى أهل مدين
تتلوعليهم آياتِنا ولكنا كُنَّا مُرْسِلين »

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم بالجميل . وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن فى الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفى ذكره متعلق لا باستفتاح . ولم نكن فى العَدَم أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا فى متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة . وذكرنا فى الخطاب الأزلىّ والكلام الصمدىّ والقول الأبدىّ .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ بجانبِ الطورِ إذ نَادَيْنَا
ولكِن رحمةً من ربِّكَ لِتُنْذِرَ قوماً
ما أتاهم مِنْ نذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لعلّهم
يتذكّرون » .

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو فى الوجود والظهور — ناديناكم وأنتم فى كتم العَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لى كما كُنْتَ فى حالٍ لم أكُنِ

قوله جل ذكره : « ولولا أن تُصِيبَهُم مصيبةٌ بما قَدَّمَت
أيديهم فيقولوا رَبَّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا
رسولاً فنَتَّبِعَ آياتِكَ ونكونَ من
المؤمنين * فلمَّا جاءَهم الحقُّ من عندنا

---

(١) أضفنا مابين قوسين من عندنا لنكتب الرواية بكاملها فهى ناقصة فى المتن .
(٢) ثاوياً «مقيماً .. قال العجاج : فبات حيث يدخل الثوى : أى الضيف المقيم »

قالوا لولا أوتى مِثْلَ ما أوتِى موسى
أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قَبْلُ
قالوا سِحْران تَظَاهَرا وقالوا إنَّا بكلٌ
كافرون » .

تمنوا فى زمانِ الفترة أن يبعث اللهُ إليهم رسولًا ليهتدوا به ، ووعدوا من أنفسِهم الإيمانَ والإجابة ، فلمَّا أتاهم الرسولُ كذَّبوه ، وقالوا : هلّا خُصَّ بمثل معجزات موسى فى الظهور ، وكان ذلك منهم خطأً ، واقتراحاً فى غير موضع الحاجة ، وتحكُّماً بعد إزاحة العِلّةِ :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال : أفلا تَذَكَّرُون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر ؟ .

وقال : إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْلِه ، واستعينوا بشركائكم . ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْلِه ، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وَصَّلْنَا لهم القولَ لَعَلَّهم
يتذكّرون » .

أتبعنا رسولاً بعد رسول ، وأردفنا كتاباً بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً ، وجحداً وعتواً .. فلا إلى الحقِّ رجعوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .

قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتابَ مِنْ قبلِه هم
به يُؤْمِنون » .

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية ، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس فى غوايته ، وانهمك فى ضلالته .

قوله جل ذكره : « وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنَّا به إنّه
الحقُّ مِن ربِّنا إنَّا كُنَّا من قبلِه
مُسْلِمِين » .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، وانقادوا بِحُسْنِ الاستسلام ، فلا جَرَمَ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم فى عاجلهم وآجلهم ، مرةً فى الآخرة وهى المثوبة وأخرى فى الدنيا وهى لطائف القربة .

قوله جل ذكره : « وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

« اللغو » : ما يُلْهِى عن الله . ويقال « اللغو » ما لا يوجِب وسيلةً عند الله ، ويقال ما لا يكون بالحقِّ للحقِّ ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبٍ غافلٍ ، ويقال هو ما يوجب سماعُه السَّهو .

قوله جل ذكره : « إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحببتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يشاء وهو أعلمُ بالمهتدين »[1] .

الهدايةُ فى الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ — سبحانه — وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسُّعاً ، وذلك جائزٌ بل واجبٌ فى صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وإنك تَهدى إلى صراط مستقيم » .

ويقال : لَكَ شَرَفُ النبوَّةِ ، ومنزلةُ الرسالةِ ، وجمالُ السفارةِ ، والمقامُ المحمودُ ، والحوض المورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنك لا تَهدى من أحببت ؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح)[2] لِمَنْ وَصْفُه البشرية .

قوله جل ذكره : « وقالوا إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرضنا أوَلَمْ نُمَكِّنْ لهم

---

(١) قال ابو اسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب حين أبى أن ينطق الشهادة وقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨)

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

حرَما آمِناً يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ
شيءٍ رِزقاً مِنْ لَدُنّا ولكنَّ أكْثَرَهم
لا يعلمون » .

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صدَّقْناكَ ، وآمَنَّا بِكَ ، (لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم)[1] فقال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون اللهَ أظفركم على عدوِّكم ، وحَكَّمنا بتعظيم بيتكم ، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيء من أقطار الدنيا ؟

ويقال من قام بحقِّ الله — سبحانه — سَخَّر له الكونَ بجملته ، ومَنْ اشتغل برعاية سِرِّه لله ، وقام بحقِّ الله ، واستفرغ أوقاته فى عبادة الله مُكِّنَ من التصرُّفِ بهمته فى مملكة الله ؛ فالخَلْقُ مُسَخَّرٌ له ، والوقتُ طَوعُ أمره ، والحقُّ — سبحانه — متولٍ[2] أيامَه وأعماله يُحقِّقُ ظنَّه ، ولا يُضَيِّعُ حقَّه .

أمَّا الذى لا يطيعه فيهلك فى أودية ضلاله ، ويتيه[3] فى مفازات خِزْيِه ، ويبوء بوِزْرِ هواه .

قوله جل ذكره : « وكمْ أهْلَكْنَا من قريةٍ بَطِرَتْ
معيشَتَها فتِلْكَ مساكنُهم لم تُسْكَنْ
مِنْ بَعْدِهم إلا قليلاً وكُنَّا نحنُ
الوارثين » .

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا فى أودية الكفران على وجوهِهم ، فَخَرُّوا فى أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهم ؛ فما كنهم منهم خالية ، وسقوفُها عليهم خاوية ، وغِربانُ الدمار فيها ناعية .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى النص ، ولكنها تتمه لسبب نزول الآية كما أورده الواحدى ، حيث ذكر أن الآية نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف الذى قال للنبى (ص) : إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن يمنعنا من اتباعك أنا نخاف .... الخ (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨) .

(٢) ومن هذا المنطلق يصدر القشيرى رأيه فى (الولاية) وما يتصل بها من (الكرامة) .

(٣) هكذا فى الأصل وهى تحمل معنيين : التكبُّر ، والضلال فى الأرض .

قوله جل ذكره : « وما كان رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حتى
يبعثَ فى أُمِّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ،
وما كُنَّا مُهْلِكِى القُرى إلّا وأهلُها
ظالمون » .

« وما كان ربُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يبعث فى أمِّها رسولاً » : بالتكليف يأمرهم . ويأمر التكوين — على ما يريد — يقفهم . وهو — سبحانه — يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمى السُّبَلَ عليهم اقتداراً ؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدى إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة .

قوله جل ذكره : « وما أوتيتم مِنْ شىءٍ فَمَتَاعُ الحياةِ
الدُّنيا وزينتُها وما عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأبقى
أفلا تعقلون » .

الدنيا حلوة خَضِرَة ، ولكنها فى التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة[1] ، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفْوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسْوٌ[2] ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

قوله جل ذكره : « أفَمَنْ وعدناه وَعْدًا حسناً فهو لاقيه
كَمَن متَّعْناه متاعَ الحياةِ الدنيا
ثم هو يوم القيامة من
المُحْضَرين »[3] .

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طعومَ عَسَلِها ، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطْفَ ما يظهر

---

(١) مذرت البيضة مذراً = فسدت ، فهى مذرة ، ومذرت معدته أى خبثت وفسدت (الوسيط) .
(٢) يقال يوم كحسو الطائر أى قصير جداً ، ونوم كحسو الطائر أى قليل متقطع .
(٣) عن مجاهد أن هذه الآية نزلت فى على وحمزة وأبى جهل .
وقال السدى : نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة
وقيل نزلت فى النبى (ص) وأبى جهل .

من أربها ، وليس من أُكْرِمَ بوجدان نعيم عقباه كَمَنْ مُنِيَ بالوقوع فى جحيم دنيه

قوله جل ذكره : « ويومَ يُناديهم فيقولُ أين شُرَكَائِىَ
الذين كُنْتُم تَزْعُمُون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل .. وإلّا فَمِنْ أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب ! والذى يسألُهم هو الذى على ما شاء جَعَلَهم ؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِه ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه . وإذْ تَبَرَّأَ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ، ولا لأحدٍ من النفى والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةَ أو منه شظيَّة .. كلاَّ بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويومَ يناديهم فيقول ماذا أجَبْتُمُ
المُرْسَلِين » .

يسألهم سؤالَ هيبةٍ ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ ، ولا قوةُ عقلٍ ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ ، قال جلَّ ذكره :

« فَعَمِيَتْ عليهم الأنباء يومئذٍ فَهُمْ
لا يتساءلون » .

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ ، واستمكن منهم الدهشُ ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فأَمَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً
فَعَسى أن يكونَ من المُفْلِحِين *
وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاء ويختارُ ما كان
لهم الخِيَرَةُ سبحان اللهِ وتعالى عمَّا
يشركون » .

يختار ما يشاء ومَنْ يشـاء من جملة ما يخلق . ومَنْ ليس إليه شىء من الخَلْقِ .. فما له والاختيار ؟ !

الاختيارُ للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له ، لأنَّه لو لم يُنَفِّذْ مشيئتَه واختيارَه لم يكن بوصف العِزِّ ، فَمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلاَّ ذليلاً ؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ ، والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاءٍ وقصور ؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبَارَكٍ عليه لأنَّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها ، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح فى نَفْسِه ، قال قائلُهم :

ومعالٍ إذا ادَّعاها سواه لَزِمَتْه جِنَايَةُ السُّرَّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها ، فما للإنسان والاختيار ؟ ! وما للمملوكِ والمُلْكِ ؟ ! وما للعبيدِ والتصدُّر فى دَسْتِ[1] الملوكِ ؟ !

قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »[2] .

قوله جل ذكره : « وربُّك يعـلم ما تُكِنُّ صدورُهم وما يُعْلِنون »

ولِمَ لا وقد قال : «ألا يعلم من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير » ؟ فالعِلْمُ — الذى لا يَعْزُبُ عنه معلومٌ — نعتُ من لم يَزَلْ ، والإبداع من العَدَمِ إلى الوجود يتفرَّدُ بالقدرة عليه لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « وهو اللهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ له الحمدُ فى الأولى والآخِرَةِ وله الحُكْمُ وإليه تُرْجَعُون »

« لا إله إلا هو » : تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيبته ، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته ، لا شبيهَ يساويه ،

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب ، أما فى ص فقد وردت (درس) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) واضح من مذهب القشيرى شىء هام جداً أنه يقف عند (ويختار) وتكون (ما) فى هذه الحالة نافية ، وهو بهذا ينسجم مع مذهب أهل السنة فى أن الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد .

أما الزمخشرى فيرى (ما كان لهم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاطف . ويرفض الطبرى أن تكون (ما) نافية لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما) تصلح لنفى الحال والاستقبال .

ولا نظيرَ يُضاهيه . «له الحمد » استحقاقاً على عَطِيَّتِه ، وله الشكر استيجاباً على نعمته ؛ ففى الدنيا المحمودُ اللهُ ، وفى العقبى المشكورُ اللهُ ؛ فالإحسان من اللهِ لأن السلطانَ للهِ ، والنعمةُ من اللهِ لأنَّ الرحمةَ للهِ ، والنصرةُ من اللهِ لأنَّ القدرةَ للهِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَداً إلى يوم القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياء أفلا تسمعون »

إن دامت ليالى الفترة فَمَنْ الذى يأتى بنهار التوبة غيرُ اللهِ ؟

وإنْ دامت ليالى الطَّلَبِ فَمَنْ الذى يأتى بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللهِ ؟

وإن دامت ليالى القبض فمن الذى يأتى بصبح البسطِ غيرُ اللهِ ؟

وإن دام ليل الفراق فمن الذى يأتى بصبح الوصالِ غيرُ اللهِ ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرأَيتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامةِ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه أفلا تُبْصِرون »

إنْ دام فى الوصلة نهارُكم فأىُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم ؟

وإن دام نهارُ معاشِكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه إلى الله إلا الله ، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللهِ إلا الله[1] .

قوله جل ذكره : « ومِنْ رحمتِه جَعَلَ لكم الليل والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا مِنْ فَضْلِه ولعلكم تَشْكُرون »

---

(١) منذ أشرقت على القشيرى آية : «وهو الله لا إله إلا هو ..»
ولفظ الجلالة لا يكاد يغيب عنا فى إشاراته ، مما يدل - والله أعلم - على أن الرجل ذاكر أخذته حالة أمحاء فى المذكور .. وقد حرصنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملحظ ليشعر بالفرق بين المفسر التقليدى والمفسر الإشارى .. إن الكلمات هنا أشبه بالتسابيح الوافدة من عالم بعيد !

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة ، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالى أهل الوصال ساداتُ الليالى ، وليالى أهل الفراق أسوأُ الليالى ؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم فى ليلهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالى إذا نأيتِ طوالٌ   وأراها إذا دَنَوْتِ قِصَار

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها   والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه   وحَوْلٌ نلتقى فيه — قصيرُ

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنَادِيهم فيقولُ أين شركائىَ الذين كنتم تَزْعُمُون * ونَزَعْنا من كلِّ أمّةٍ شهيداً فَقُلْنا هاتوا بُرْهانَكم فعَلِموا أَنَّ الحقَّ للهِ وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون »

كلا . . لا حُجَّة لهم ، ولا جوابَ يعذرهم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصِرَ يُعِينهم . اشتهرت ضلالاتُهم ، واتضحت للكافة جهالتُهم ؛ فدامَ بهم عذابُ الأبد ، وحاقَ بهم وبالُ السَّرْمَد .

قوله جل ذكره : « إنَّ قارونَ كان مِنْ قومِ موسى فبَغَى عليهم » .

جاء فى القصص أنه كان ابن عمٍّ موسى ، وكان من أعبد بنى إسرائيل ، وكان قد اعتزل الناسَ ، وانفرد فى صومعته يتعبَّد ، فتصوَّر له إبليسُ فى صورة بَشَرٍ ، وأخذ فى الظاهر يتعبَّدُ معه فى صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسنا فى شيء ؛ عيونُنا

على أيدى الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا ، ولا بُدَّ لنا من أَخْذِه ، فقال له قارون : وكيف يجب أن نفعلَه ؟

فقال له : أن ندخل فى الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وننفق ذلك القَدْرَ فى الأسبوع ، فأجابه إليه . فكانا يحضران السوق فى الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لستُ أنا وأنت فى شىء ، فقال : وما الذى يجب أن نعمله ؟

فقال له : نكتسب فى الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به ، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر : لسنا فى شىء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يومٍ ، فقال : وما نفعل ؟

قال : نكتسب فى الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للادخار ، فأجابه إليه . . فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه ، وقال :

إنِّى مُفارِقُكَ . . فَدُمْ على ما أنت عليه ، فصار من أمره وماله ما صار ، وحَمَلَه حُبُّ الدنيا على جَمْعِها ، وحَمَلَه جَمْعُها على حُبِّها ، وحَمَلَه حُبُّها على البغى عليهم ، وصارت كثرةُ مالِه سَبَبَ هلاكه ، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَح بوجود الدنيا ، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها ! وكان لا يأبى إلاَّ ضلالاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرضَ بدعاء موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :

يأرضُ خُذِيه .. وبينما كانت الأرض تُخْسَفُ به كان يستعين بموسى بحقِّ القرابة ، ولكن موسى كان يقول : يا أرضُ خُذِيه .

وفيما أوحي اللهُ إلى موسى : لقد ناداك بحقِّ القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه ! وأنا أقول : يا عبدُ ، نادِنى فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقُلْ .

وفى القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلمَّا حَبَسَ اللهُ يونسَ فى بطن الحوتِ أَمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به فى البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس ، حتى انتهى إلى قارون ، فسأله قارونُ عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى المَلَك :

لا تَزِدْ فى خَسْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه ، ووَصَلَ به رَحِمَه[1] .

قوله جل ذكره : « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرةَ
ولا تَنْسَ نصيبَكَ من الدنيا وأَحْسِنْ
كما أَحْسَنَ اللهُ إليْكَ ولا تَبْغِ الفسادَ
فى الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين »

وَعْظُ مَنْ حُرِمَ القبولَ كَمثلِ البَذْرِ فى الأرض السَّبِخَة ؛ ولذا لم ينفَعْه نُصْحُهم إياه ، ولم يكن للقبول فيه مساغٌ .

« ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا » : ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها ، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً ، ولا يُوجِبُ فى الآخرةِ عقوبةً .

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنَّفْس ، وعلى معرفته بالقلب ، وعلى ذِكْرِه باللسان ، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ .

« وأَحْسِنْ كما أحسنَ الله إليك » : إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله ؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَةَ له . والآية تدل على أن لله على الكافر نِعَماً دنيوية .

والإحسانُ الذى أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ فى وجوهِ الطاعةِ والخدمة ، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران .

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّمِ الاستحقاق .

قوله جل ذكره : « قال إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندى ... »

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه .

ويقال السُّمُّ القاتلُ ، والذى يطفئ السراجَ المضىءَ النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ ،

---

(١) الواقع أن القصص والأخبار والروايات التى تدور حول موضوعات سورة القصص كثيرة جداً ، خصوصا عند ابن عباس ومدرسته ، ولكن الملاحظ أن القشيرى يختار منها — فى ظلال القرآن — عينات خاصة تحقق مقاصده البعيدة من أجل إبراز الموضوعات الصوفية سواء من ناحية الرياضات أو المجاهدات أو من ناحية الأذواق والأحوال .

وتَوَهَّمُ أَنَّ منك شيئاً من النفى أو الإثبات[1] .

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ على قومِه فى زينتِه قال الذين
يريدون الحياةَ الدنيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ
ما أُوتِيَ قارونُ إنَّه لَذُو حَظٍّ عظيمٍ »

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّن كان فى حُبِّ الدنيا ساواه أَنْ يُعْطِيَه اللهُ مِثْلَ ما أعطاه .

أَمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته ، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم : —

« وقال الذين أوتوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً
ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون »

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء :

« لولا أَنْ مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا
ويْكَأَنَّه لا يُفْلِحُ الكافرون »

مَنَّ اللهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ فى نَهْجِه ، ولم ننخرط فى سِلْكِه ، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاك .

أَمَّا الْمُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا ، وأمّا الراضون بقسمته — سبحانه — فقد سَلِمُوا ؛ سَلِمُوا فى العاجل إلى أَنْ تَظْهرَ سعادتُهم فى الآجل .

قوله جل ذكره : « تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلُهـا للذين
لا يُرِيدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فساداً
والعاقبةُ للمتقين »

قيل « العلو فى الدنيا » أَنْ تَتَوهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك .

و « الفساد » أن تتحرك لحظٍّ نَفْسِك ونصيبك ولو بِنَفَسٍ أو خطوةٍ . . وهذا للأكابر ،

---

(1) هذه نظرة عامة نجدها عند جميع الصوفية ولكنها أصل هام فى تعاليم أهل الملامة تترتب عليه مناهج مميزة فى السلوك .

فأمّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض » كعُلُوِّ فرعون « ولا فساداً » كفَسَادِ قارون[1] .

ويقال الزهاد لا يريدون فى الأرض عُلُوًّا ، والعارفون لا يريدون فى الآخرة والجنة عُلُوًّا .

ويقال « تلك الدار الآخرة » للعُبَّادِ والزُّهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار .

قوله جل ذكره : « مَنْ جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها ومَنْ
جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذين عَمِلوا
السيئاتِ إلا ما كانوا يعملون » .

ثواب الحسنةِ فى التضعيف ، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف .

والمؤمنُ — وإن كان صاحبَ كبائر — فسيئاتُه تَقْصُرُ فى جَنْبِ حسناتِه التى هى إيمانُه ومعرفتُه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذى فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ
إلى مَعَادٍ قُلْ ربِّى أعْلَمُ مَنْ جاء بالهُدَى
ومَنْ هو فى ضلالٍ مبين » .

« لرادُّك إلى معاد » : فى الظاهر إلى مكة . . وكان يقول كثيراً : «الوطن الوطن»[2] ، فَحَقَّقَ اللهُ سُؤْلَه . وأمَّا فى السِّرِّ والإشارة فإنه « فرض عليك القرآن » أى يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن ، والمَعَادُ هو الوصفُ الذى كانت عليه روحُك قبل حلول شَجِّكَ[3] من مُلَادغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ .

---

(١) أحسن القشيرى إذ جعل وظيفة هذه الآية التعقيب على القصتين السابقتين فأبان تماسك الأسلوب القرآنى .

(٢) ولهذا يرى ابن عباس أن هذه الآية لا مكية ولا مدنية وإنما نزلت فى الجحفة .

(٣) هكذا فى النسختين ، فإن صحت فى النقل من الأصل فربما كان المقصود (ما أصابك من جراحات الحب) ، ويتأيد فهمنا بما يلى ذلك وربما كانت (شجنك) أى لوعة حبك — والله أعلم .

وقيل الذى ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق .

ويقال إن الذى أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُّك إلى الفناء عنك بحقك فى وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ ترجواْ أَنْ يُلْقَى إليك الـكتابُ إلَّا رحمةً من ربِّكَ فلا تـكونَنَّ ظهيراً للـكافرين » .

ما كنت تؤمِّل مَحَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « ولا يَصُدَّنَّك عن آياتِ اللهِ بعد إذْ أُنْزِلَتْ إليكَ وادعُ إلى ربِّكَ ولا تـكونَنَّ من المشركين » .

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحـكم الذَّوْبِ والشهود ، والإدراك والوجود . لا تتداَخَلَنَّكَ تُهْمَةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُون من أحـكام العقول ؛ فمَا يُدْرَكُ فى شعاع الشمس لا يَحْـكُمُ ببطلانه خفاؤه فى نور السراج .

قوله جل ذكره : « ولاتَدْعُ مع اللهِ إلٰهاً آخَرَ لا إله إلاهوَ كلُّ شىءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَه له الُحكْمُ وإليه تُرْجَعون » .

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حىٍّ ميت إلا هو ، قال تعالى : « إن امرؤ هلك » : أى مات ؛ فـكلُّ شىءٍ مُعَدٌّ لجوازِ الهلاك والعدَمِ ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقى وجهه فمن شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون[1] العقل ؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته .

(١) هكذا في م أما في ص فهي (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعْداً ، وسماعُه يوجب سلوة الواجدين نقداً [1].

اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إلى مثوبته فى آجله ، ومَنْ سمعه [2] حظى بقربته فى عاجله .

قوله جل ذكره : « الٓـمٓ * أحسِبَ الناسُ أنْ يُتْرَكُوا أن يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنون »

« الألف » إشارة إلى تَفَرُّده عن كل غير بوجه الغِنى ، وباحتياج كل شىء إليه ؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ .

« واللام » تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفى آخره صورة تعويجٍ ما ، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف ـ فهى منتصبة القامة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شىء ولكن اللام تتصل بغيرها ـ فلا جَرَم لا يكون فى الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .

أمّا « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِنْ » ؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق ، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ . . .

« أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا . . » بمجرد الدعوى فى الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا لا يكون ، فقيمة كلِّ أحدٍ ببلواه ، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه ؛ فعلى النفوس بلاء وهو

(1) النقد مكافأة فى الدنيا وهى المواصلات والمكاشفات ، والوعد مكافأة فى الآخرة وهى الجنة .

(2) المقصود بالسماع هنا ما يوجب الهيمان .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها فى أحسن العمل . وعلى القلوب بلاء وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاء وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعُد عن كل المساكنةِ لشىء من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاء وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّى إلى أن تصير مُسْتَهْلَكاً فيه .

ويقال فتنة العوام فى أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص فى حفظ آداب الوصول فى أوان المشاهدات . وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجرى عليك مَكْرٌ فى أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقِّ فيظن أنه الحق ، ولا يدرى أنَّه من الحقِّ ، وأنَّه لا يُقال إنَّه الحقُّ - وعزيزٌ مَنْ يهتدى إلى ذلك[1].

قوله جل ذكره : « ولقد فتنَّا الذين مِنْ قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين »

لم يُخْلِهِم من البلاء والمِحَن لِيُظْهِر صبرَهم فى البلاء أو ضدَّه من الضَجَرِ ، وشكرهم فى الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ . وهم فى البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر فى حال البلاء ، ويشكر فى حال النَّعماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر فى البلاء ، ولا يشكر فى النعماء . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يؤثِر فى حال الرخاء ألاَّ يستمتعَ بالعطاء ، ويستروح إلى البلاء ؛ فيَسْتَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء . . وهذا أَجَلُّهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُون »

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكون لأنفسهم بالنجاة . . ساءَ حُكْمُهم ! فمتى ينجو منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقَى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ ، وتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا .

---

(١) يفيد هذا الكلام عند البحث فى قضية الحلاج الذى قال وهو غائب فى غلبات الشهود : «أنا الحق»

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئاتِ أَنْ جرى التقديرُ لهم بالسعادة، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا .. كلا، فلا يشقى مَنْ جرَتْ قسمتُنا له بالسعادة، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة!

قوله جل ذكره: « مَنْ كان يرجو لقاءَ اللهِ فإنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وهو السميعُ العليمُ »

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فَسَيَلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ منَّا لأهل الخوف اليومَ. ومَنْ أَمَّلَ الثوابَ يومَ البعثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل. ومَنْ زَجَّى عُمْرَه في رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النظَّرَ إلينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة.

« وهو السميع » لأنين المشتاقين، « العليم » بحنين المحبين الواهين.

قوله من ذكره: « ومَنْ جاهَدَ فإنّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إنَّ اللهَ لَغَنيٌّ عن العالَمين ».

مَنْ أَحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها، وسعادة حالة حَصَّلَها. ومن أساء فعقوبة نفسه جَلَبها، وشقاوة جَدِّه اكتسبها.

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ.. والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يمسُّه من الشقاقِ شَيْنٌ..

قوله جل ذكره. « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهِم ولَنَجْزِيَنَّهم أحسن الذى كانوا يعملون ».

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال مِنَّا حظوة، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ منَّا صفوة، فنصيبهم من الخيرات موفور، وعملهم فى الزلاّت مغفور.. بذلك أجرينا سُنَّتنا، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا.

قوله جل ذكره: « وَوَصَّينا الإنسانَ بوالديه حُسْناً ».

أَمَرَ اللهُ العِبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية . وإذا كانت تربيةُ الوالدين — وهى إنْ حَسُنَتْ — فإلى حدٍّ يوجِبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى ، والإحسانِ العميمِ بالعبد والامتنان القديم الذى خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ؟ !

قوله جل ذكره : « وإنْ جاهداك لِتُشْرِكَ بى ما ليس لك به عِلْمٌ فلا تُطِعْهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بالله فإياك أَنْ تطيعَهما ، ولكن رُدَّ بِلُطْفٍ ، وخالِفْ برفقٍ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لندخلنهم فى الصالحين » .

أى لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم ، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله ، وإجراء المِثْلِ على حُكْمِ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « ومن الناسِ مَنْ يقول آمَنَّا بالله فإذا أوذى فى الله جَعَلَ فتنة الناسِ كعذابِ الله » . . .

المِحَنُ تُظْهِرُ جواهرَ الرجال ، وهى تَدُلُّ على قِيمِهِم وأقدارهم ؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يَظْهَرُ عند محنته ؛ فَمَنْ كانت محنتُه من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها ، أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس ، أو فَقْدِ حبيبٍ من الخلْقِ فحقيرٌ قَدْرُه ، وكثيرٌ فى الناسِ مِثْلُهُ . ومَنْ كانت محنته فى الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه ، وقليلٌ مَنْ كان مثله ، فهم فى العدد قليلٌ ولكن فى القَدْرِ والخَطرِ جليلٌ : وبقدر الوقوف فى البلاء تظهر جواهرُ الرجال ، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم .

والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى ، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى ، ويتشرب ولا يترشح بغير

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يُلقى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة[1] .

قوله جل ذكره : « ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين » .

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدود تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولْنَحْمِلْ خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم مِنْ شىء إنَّهم لكاذبون »

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على حَمْل نفوسهم ؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عملوا ، وطولبوا بوِزْر ما به أَمَرُوا[2] ، فضاعفَ عليهم العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب أخاه بيثرب .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم وَلَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يَفْتَرون »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتشبِّهون بأهل الحقائق :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[3] .. وهيهات هيهات !

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من قول الجنيد : (الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح) الرسالة ص ١٣٩ .

(٢) رأينا بناء (أمروا) للمعلوم حتى يتضح أن وزرهم أشد نتيجة قولهم للذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا) ؛ فالداعى إلى السوء يحمل وزر نفسه ووزر من يقتدى به. ومن الجائز أن تبنى للمجهول فتكون (أمروا) ولكن المعنى يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث
فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم
الطوفانُ وهم ظالمون * فأنجيناه ...» الآية

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شكا فى أمره ، وجهلا بحاله ، ومرْية فى صدقه ، ولم يزدد نوح ـ عليه السلام ـ لهم إلَّا نُصْحاً ، وفى الله إلا صبراً . ولقد عرَّفه اللهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشِّرْذِمةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأَمَرَهُ باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه . . فلا تبديلَ لِسُنَّتِه فى نصرة دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إذ قال لقومه اعبدوا اللهَ
واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم
تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ ابراهيم فى هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّة ، وأرشدهم إلى سَوَاء الحجة ، ولكنهم أصروا على ماجحدوا ، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لابراهيم كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُه ، ولا وَجَدَ منهم مساغاً وَعْظُه .

قوله جل ذكره : « إنَّما تعبدون من دون اللهِ أوثاناً
وتَخْلُقُون إفكاً إنَّ الذين تعبدون
من دون اللهِ لا يَمْلِكون لكم رِزْقاً
فابتغوا عند اللهِ الرزقَ واعبدوه واشكروا
له إليه تُرجَعون »

لا يُدْرَى أيهما أقبح . . هل أعمالكم فى عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم ـ فيما تزعمون كذباً ـ عن هذه الجمادات ؟ وهى لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً ، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وبيَّنَ أنهم فى هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق[1] فقال :
« فابتغوا عند الله الرزقَ واعبدوه » لتَصِلوا إلى خير الداريْن .

وابتغاء الرزق من الله إدامةُ الصلاة ؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق ، قال تعالى :
« وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نسألك رزقاً »[2]

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى
فى استجلاب الرزق .

وفى الآية تقديمٌ لابتغاء الرزق على الأمر بالعبادة ؛ لأنه لا يُمْكِنه القيام بالعبادة إلا بعد
كفاية الأمر ؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة ، وبالرزق يجد القوة ، قالوا :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه

فمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

« واشكروا له » : حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته[3] .

قوله جل ذكره : « وإنْ تُكَذِّبوا فقدْ كَذبَ
أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكم وما على الرسول
إلا البلاغُ المبين »

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب ، وليس على الرسول ــ بعد تبليغه الرسالة بحيث
لا يكون فيه تقصير كى يكون مُبَيِّناً ــ شىء آخر . وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام .

وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغى أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ
ثم يُعيدُه إنَّ ذلك على اللهِ يسيرٌ »

(١) فالعبادة الخالصة علامتها أن تكون خالصة للمعبود بلا تطلع لعوض أو غرض ؛ والغيبة عن أى (وارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب) الرسالة ص٤٠ .

(٢) آية ١٣٢ سورة طه .

(٣) عنى القشيرى بتوضيح النسق فى الأسلوب القرآنى حين ناقش ترتيب الكلام على نحو مقنع أخاذ .

الذى دَاخَلَهم فيه الشَّكُّ كان بعث الخَلْق ، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضِّيها على الوجه الذى كان فى العام الماضى . وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاء المكلَّفين بعد انقضاض البِنْية كإعادة فصول السنة ؛ فكما أن ذلك سائغٌ فى قدرته غيرُ مُسْتَنْكَرٍ فكذلك بعثُ الخَلْق .

وكما فى فصول السنة تتكرر أحوالُ العبادة فى الأحوال العامة المشتركة بين الكافة ، وفى خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس ، ثم زوالها ، إلى موالاة الطاعات ، ثم حصول الفترة ، والعود إلى مثل الحالة الأولى ، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة . . كذلك تتكرر عليهم الأحوال .

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم فى القبض والبسط ثم فى الهيبة والأُنْس ، ثم فى التجلى والسَّتْر ، ثم فى البقاء والفناء ، ثم فى السُّكْر[1] والصحو . . وأمثال هذا كثير . وفى هذا المعنى قوله :

« قُلْ سِيرُوا فى الأرضِ فانظروا كيف بَدَأَ الخَلْقَ ثم اللهُ يُنْشِئُ النشأَةَ الآخِرةَ إنَّ اللهَ على كل شئٍ قدير »

وفى معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا :

كلُّ نَهْرٍ فيه ماءٌ قد جَرَى
فإليه الماء يوماً سيعود

قوله جل ذكره : « يُعَذِّبُ مَنْ يشاء ويرحم مَنْ يشاء وإليه تُقْلَبون »

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده . . لا نهاية لها ولا حَصْرَ ؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان ، ويرحم من يشاء بالإيمان . يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود ،

(١) وردت فى ص (الشك) وفى م (السُّكر) والصواب هذه لأنها تلائم السياق : فالسكر والصحو حالان من أحوال الفناء .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة . يعذب من يشاء بإلقائه فى ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعـذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِهِ ، ويرحم من يشاء برضاه بحُكْمِ ربِّه . يعذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحُسْنِ تولِّيه . يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويمنعها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبته فى أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْجِزِين فى الأرضِ
ولا فى السماءِ وما لـكم من دون اللهِ من
ولىٍّ ولا نصير » .

نُقَلِّب الجملةَ فى القبضة ، ونُجْرى عليهم أحكامَ التقدير : جحدوا أم وَحَّدوا ، أقبلوا أم أعرضوا .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا بآياتِ اللهِ ولقائه
أولئك يَئِسُوا من رحمتى وأولئك لهم
عذابٌ أليمٌ »

تعجلت عقوبتهم بأن يئسوا من رحمته . . ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا .

قوله جل ذكره : « فما كان جوابَ قومِه إلَّا أنْ قالوا
اقتلوه أو حَرِّقوه فأنجاه اللهُ من النارِ
إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون »

لمَّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا فى معارضته بالتهديد والوعيد ، والسفاهة والتوبيخ ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم ، وكفاه مَكْرَهم ، وأفلج عليهم حُجَّتَه[1] ،

(١) أفلج الله عليهم حجته أى أظهرها وأثبتها .

وأظهر للكافة عجزَهم ، وأخبر عما يلحقهم فى مآلهم من استحقاق اللّعْنِ والطردِ ، وفنون الهوان والخزْى .

قوله جل ذكره : « فآمَنَ له لوطٌ وقال إنِّى مُهَاجِرٌ إلى ربِّى إنه هو العزيزُ الحكيم »

لاتَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلّا بالتبرِّى — بالكمالِ — بالقلبِ عن غير الله . والهجرةُ بالنَّفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب - وهى هجرة الخواص ؛ وهى الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجَمْعِ . والجمعُ بين التعريجِ فى أوطان التفرقة والكوْنِ فى مشاهد الجَمْعِ مُتَنَافٍ[1].

قوله جل ذكره : « ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا فى ذُرِّيتهِ النبوةَ والكتابَ وآتيناه أجرَه فى الدنيا وإنه فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين » .

لمَّا لم يُجِبْ قومُه ، وبذل لهم النصح[2] ، ولم يدَّخر عنهم شيئاً من الشفقة - حقَّقَ اللهُ مرادَه فى نَسْلِه ، فوهب له أولادَه ، وبارك فيهم ، وجعل فى ذريته الكتابَ والنبوة ، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول ، وأحوالُهم للإقبال عليها ، ونفوسُهم للقيام بعبادته ، وأسرارُهم لمشاهدته ، وقلوبُهم لمعرفته .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » للدنوِّ والزلفة والتخصيص بالقربة .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومِه إنَّكم لتأتون الفاحِشة ما سَبَقَكُم بها من أحدٍ من العالَمين » .

---

(١) ما يكون كسبا للعبد وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع فإثبات الخَلْق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) فى ص زاد الناسخ (فى أوطان) وهى غير موجودة فى م والسياق يستغنى عنها .

لامَهُم على خصالهم الشنعاء ، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء ، وما يُضيِّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذى جملته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم ، وترك القبض على أيديهم ، وقلة الاحتشام من اطّلاع الناس على قبائح أعمالهم . ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر ، ومنها التسويف فى التوبة ، ومنها التفاخر بالزلَّة .

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة ، فحلَّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك مَنْ شاركهم .

قوله جل ذكره : « ولمَّا جاءت رُسُلُنا ابراهيمَ بالبُشرى
قالوا إنَّا مُهْلِكوا أهل هذه القرية
إنَّ أهلَها كانوا ظالمين »

التبس على إبراهيمَ أمرُهم فظَنَّهم أضيافاً ؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ جرياً على سُنَّتِه فى إكرام الضيف . فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلَّمَ فى باب لوط ... إلى أن قالوا : إنَّا مُنَجُّوه . وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ — وإنْ كان بريئاً — لم يكن ظالماً ؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام — مع وفرة عِلْمِه — يشكل عليه حتى كان يجادل عنه . بل لله أن يعذِّب مَنْ يعذِّب ، ويُعَافِى مَنْ يُعَافِى[1] .

قوله جل ذكره : « ولمَّا أن جاءتْ رُسُلُنا لوطاً سِيءَ بهم
وضاق بهم ذَرْعًا وقالوا لا تَخَفْ
ولا تَحْزَنْ إنَّا مُنَجُّوكَ وأَهْلَكَ
إلَّا امرأتَكَ كانتْ من الغابرين » .

لمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُه لأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ ، فخاف عليهم من فساد قومه ؛ فكان ضِيقُ قلبِه لأَجْلِ الله — سبحانه ، فأخبروه بأنهم ملائكة ، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم ، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه ، وزال ضيقُ صَدْرِه .

---

(١) أى أبرأه من العلل والبلايا وأصحَّه .

ويقال أقربُ ما يكون العبد فى البلاءِ من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاء ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مُضْطَرًّا ، واللهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الاجابة[1] . كذلك كان لوط فى تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذَرْعًا ثم لم يلبث أَنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقه .

قوله جل ذكره : « ولقد تَرَكْنا منها آيةً بَيِّنَةً لقومٍ يَعْقِلون » .

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله فى قصتها عِبْرة .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيبًا . . . » الآيات .

ذَكَرَ قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون .. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ ، وسلك مسلكَهم ، ولم يَقْبَلوا النصحَ ، ولم يُبَالوا بمخالفة رُسلِهم ، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاءً لِسُنّتِه فى نصرة الضعفاء وقهر الظالمين .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين اتخذوا من دون اللهِ أولياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ اتخذت بيتًا وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون » .

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتًا ، ولكن كلما زاد نسجًا فى بيته ازداد بُعْدًا فى الخروج منه ؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى .. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجنى .

وبيتُ العنكبوتِ أكثره فى الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التَّقِيّةِ[2] والكتمان ، وأمَّا المؤمن فظاهِرُ المعاملةِ ، لا يستر ولا يُدَخْمِسْ[3] .

---

(1) يشير إلى قوله تعالى : «أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء» آية ٦٢ سورة النمل .

(2) التقية عند بعض الفرق الإسلامية معناها إخفاء الحق ومصانعة الناس فى غير دولتهم .

(3) دخمس عليه = لم يبيِّن له ما يريد ، ودخمس الشيء = ستره .

وبيتُ العنكبوتِ أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أَدْوَن[1] دَفْعٍ .. كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنيانه ، يرى شيئًا ولكن بالتخييل ، فأمَّا فى التحقيق .. فَلاَ .

قوله جل ذكره : « وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنـاسِ
وما يعقِلُها إلا العالِمون » .

الكلُّ يشتركون فى سماع الأمثال ، ولكن لا يصغى إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ ، كنودَ الحالِ ، متعوداً الكسلَ ، مُعَرِّجًا فى أوطان الفَشَلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ
إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « اتْلُ ما أوحِيَ إليكَ من الكتابِ
وأَقِمْ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن
الفحشاءِ والمُنْكرِ ولَذِكرُ اللهِ أكبرْ
والله يعلم ما تصنعون » .

أى من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهيَ عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبغى للمؤمن أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى المؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الايمان — كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من العبد انتهاء فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر .

---

(١) أى على أضعف دفع .

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان — وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها .

ويقال الفحشاء هى الدنيا ، والمنكر هو النّفْس .

ويقال الفحشاء هى المعاصى ، والمنكر هو الحظوظ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسبانُ النجاة بها ، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العِوض عليها .

« ولذكر الله أكبر »[1] : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُحْدَث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ، لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذِكْرُ اللهِ لَكَ أكبرُ من ذكْرِكَ له .

ويقال ذكْرُه لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرِكَ له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقِى للذاكر معه ذِكْر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقِى للزَّلةِ معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقِىَ معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلِحُرمة ذكره زَلاَّتُ الذاكر مغفورةٌ ، وعيوبه مستورةٌ .

قوله جل ذكره : « ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى

(١) رأى القشيرى فى «ولذكر الله أكبر» ، ليس فيه كما يلحظ القارىء تقليل من قيمة الصلاة العادية التى وردت فى الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يتهمون الصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالى لا يأبهون بها —.. وهذا — كما هو واضح — اتهام باطل .

هى أحْسَنُ إلا الذين ظلموا منهم
وقولوا آمنا بالذى أُنْزِلَ إلينا وأُنْزِلَ
إليكم وإلهُنا وإلهُكم واحِدٌ ونحن
له مُسْلمون »

ينبغى أن يكون منك للخصم تبيين ، وفى خطابك تايين ، وفى قبول الحق إنصاف ، واعتقاد النصرة — لما رآه صحيحاً — بالحجة ، وتَرْكُ الميل إلى الشيء بالهوى .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالذين آتيناهم الكتابَ يؤمنون به
ومنْ هؤلاء مَنْ يؤمِنُ به وما يجحد
بآياتنا إلا الكافرون » .

يعنى أنهم على أنواع : فمرحومٌ نظرْنا إليه بالعناية ، ومحرومٌ وسمْناه بالشقاوة .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبلْه من
كتابٍ ولا تخُطّه بيمينك إذاً
لارتابَ المبطلون » .

أى تجَرَّد قلبك عن المعلومات ، وتقدّس سرّك عن المرسومات ، فصادَفك من غير ممازجة طبعٍ ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية[1] ، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسومٍ ورَد عليك خطابُنا وتفهيمنا غيرَ مقرونٍ بهما ماليس منَّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ فى صدور
الذين أُوتوا العِلْمَ وما يجحدُ بآياتنا
إلا الظالمون » .

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبينات سِرِّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ؛ فقانون[2] الحقائق قلوبهم ، وكلُّ شيء يطلبُ من موطنه

(١) أى أن هذه الآفات تلحق علوم الإنسان حينما لا تكون خالصة .
(٢) من معانى كلمة (القانون) طريق الشيء وأصله .

ومحله ؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه ، والشمس تطلبُ من البروج لأنها مطلعها ، والشهد يُطْلبُ من النّحل لأنه عشه . كذلك المعرفة[1] تُطْلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته ، ومنها (. . . . .)[2]

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أنزِلَ عليه آياتٌ من ربِّه
قُلْ إنما الآياتُ عند اللهِ وإنما أنا
نذيرٌ مبين »

خَفِيَتْ عليهم حالتُكَ ـ يا محمد ـ فطالبوكَ بإقامة الشواهد ، وقالوا : « لولا أنزل عليه آيات . . . » أوَ لم يَكْفِهِم ما أوضحنا عليكَ من السبيل ، وأَلَحْنا لكَ من الدليل ؛ يُتْلَى عليهم ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكُنود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كفى باللهِ بيني وبينكم شهيداً
يعلم ما في السمواتِ والأرضِ والذين
آمنوا بالباطلِ وكفروا باللهِ أولئك هم
الخاسرون »

أنا على حقٍّ واللهُ ـ سبحانه ـ يعلمه ، وأنتم لستم على حق والله يعلمه .

قوله جل ذكره : « ويستعجلونك بالعذابِ ولولا أَجَلٌ
مُسَمًّى لجاءهم العذابُ ولَيَأْتِيَنَّهم بغتةً
وهم لا يَشْعرون »

لولا أني ضربْتُ لكلِّ شيء أَجَلاً لَعَجَّلْتُ لهم ذلك ، ولَيَأْتِيَنَّهم العذابُ ـ حين يأتيهم ـ بغتةً وفجأةً .

---

(١) ورد في ص بعد كلمة المعرفة (وصف الحق) وربما كانت (بوصف الحق) وهي غير موجودة في م ، ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل اقتران الضمير بـ (خواصه) .

(٢) في ص (توقع نسخة توحيده) وفي م (يرفع نسخة توحيده) وكلاهما غامض في الكتابة وإن كنا نستطيع أن نفهم أن التوحيد – وهو أقصى درجات المعرفة – محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره . « يومَ يغشاهم العـذابُ مِنْ فوقِهم ومن تحت أرجُلِهم ويقـول ذوقوا ما كنتم تعملون »

وإذا أحاطت بهم فى جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريخ لهم ، كذلك ـ اليومَ ـ مَنْ أحاط به العذابُ ؛ مِنْ فوقه اللَّعنُ ومن تحته الخسفُ ، ومن حوله الخِزْىُ ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان ، ويوسم بكَىِّ الحرمان ، ويُسْقَى شرابَ القنوط ، ويتوَّجُ بتاج الخيبة ، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط ، ويُغَلُّ بِغُلِّ العداوة ، فهُمْ يُسْحَبون فى جهنم الفراق حُكْماً ، إلى أن يُلْقَوْا فى جحيم الاحتراق عيناً .

قوله جل ذكره : « يا عبادىَ الذين آمنوا إنَّ أرضى واسعةٌ فإياى فاعبدونِ »

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيق بمريدٍ مكانٌ ، فإذا نَبَا به منزلٌ ـ لوجهٍ من الوجوه ـ إمَّا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاهٍ ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لِبَلَاءِ ضِدٍّ ، أو لوجهٍ من الوجوه الضارة . . . فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا[1] :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَـــرِيّاً
أنْ أُرى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِى

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن[2] .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرْجعون »

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه

---

(١) البحترى فى السينية .

(٢) تعبر هذه الفقرة عن رأى القشيرى فيما يعرف عند الصوفية (بالسَّفر) فهو يجيزه للعارف ، أما بالنسبة للمريد فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد فى مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آية ضعف فى الإرادة : (ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، ، فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل(الرسالة ص ٢٠٠).

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحُكْمِ الوقت ، كما قالوا :

لو قال لى مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً

وقلتُ لداعى الموت : أهلاً ومرحبا

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لنبوئنَّهم من الجنة غُرَفاً تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أَجْرُ العاملين »

هم ـ اليومَ ـ فى غُرَفِ معارفهم على أَسِرَّةٍ وَصْلِهم ، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتهم ، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ ، ويَحْبَرُون فى جِنانِ القُرْب ، وعداً كما قال : —

« الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتوكلون »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ فى أوطان الوفاء ، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها .

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ . . وأَعْزِزْ بها !

وأولُ الصبرِ تصبرٌ بتكلفٍ ، ثم صبرٌ بسهولة ، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة ، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان متحمِّلا .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله ، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تتبرَّم فى الخلوة بانقطاع الأغيار عنك . التوكل إعراضُ القلب عن غير الربِّ .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من دابةٍ لا تحمل رزقَها اللهُ يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كيسه أو خزائنه فالله يرزقه من غير مقاساة تعب منه .

ويقال « لا تحمل رزقها » المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .

ويقال إرادةُ اللهِ فى أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَك أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تَمَنِّيك لأَجْلِ بقائك .. فلا ينبغى أَنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك .

قوله جل ذكره : « ولئِنْ سألتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ
والأرضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ
ليقولُنَّ اللهُ فأنّى يُؤفَكُون » .

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله ، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله .. هذه مناقَضَةٌ ظاهرة !

قوله جل ذكره : « اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يشاء من
عبـاده ويَقْدِرُ له إنَّ اللهَ بكلِّ
شىء عليم » .

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعانى بحيث لا يحصره تكلف الكلام ، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَفَّهٌ عليه ، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه .

قوله جل ذكره : « ولئِنْ سألتَهم مَنْ نَزَّل مِنَ السماءِ ماءً
فأحيا به الأرضَ من بعد موتِها ليقولُنَّ
اللهُ قُلْ الحمـد للهِ بل أكثرُهم
لا يعقِلون » .

كما عَلِموا أنَّ حياةَ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَل الله فليعلموا أنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها — عند النَّشْرِ والبعث — بقدرة الله . وكما علموا ذلك فليعلموا أنَّ حياةَ الأوقات بعد نفرتها ، وحياة القلوب بعدفترتها ... بماء الرحمة بالله .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يعلمون » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكماله ، والتخلص — من الوحشة — بتمامه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فإذا رَكِبُوا فى الفُلْكِ دعوا اللهَ مُخْلصين له الدِّينَ فلمَّا نجَّاهم إلى البرّ إذا هم يُشرِكون » .

الاخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلّ ، والثقةُ بأن الاخلاص ليس إلا به — سبحانه ، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً فى المحمودات ولا فى المذمومات ، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدّين . وإذا توالت عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين (فإذا كشف الضُّرّ عنهم عادوا إلى الغفلة ، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل)[1] :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نُكْسِه

قوله جل ذكره : « أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِهم أفبالباطلِ يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » .

مَنَّ عليهم بدَفْعِ المحن عنهم وكَوْنِ الحَرَمِ آمنًا . وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم ، ثم إعراضهم عن شكر ذلك .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص ، والسياق يتطلبه ، لأن الشاهد الشعرى الموجود فى النسختين يؤيد معناه .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أظلمُ ممن افترى على اللهِ كَذِبًا أو كَذَّبَ بالحقِّ لمَّا جاءه أليس في جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين » .

أى لا أحدَ أشدُّ ظلمًا ممن افترى على الله الكذب ، وعَدَلَ عن الصدق ، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم السُّقَّاطُ فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين » .

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات . الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرَّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّى من الشواغل فى جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الحواسِّ لله ، وبِعَدِّ الأنفاس مع الله .

السورة التي يذكر فيها
الـــروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جودُه ، بلاء المتهمين قصودُه ، ضياء الموحِّدين عهوده . وسلوةُ المحزونين ذِكرُه ، وحِرفةُ[1] المُمتحنين شكرُه .

إسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وجبّارٌ سناؤه بهاؤه ، وبهاؤه علاؤه .

العابدون حَسْبُهم عطاؤه ، والواجدون حسْبهم بقاؤه[2] .

قوله جل ذكره : « آلمّ غُلِبَتْ الرومُ فى أدنى الأرض وهم من بَعْدِ غلبهم سَيغلبُون * فى بضْعِ سنين » .

الإشارة فى « الألف » إلى أنه ألِفَ صُحْبتَنَا مَنْ عرَف عظمتنا ، وأنَّه ألف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا .

والإشـارة فى « اللام » إلى أنه لزَم بابنا مَنْ ذاق محابّنـا ، ولزَم بساطَنَا مَنْ شهد جمالنا .

والإشارة فى « الميم » إلى أنه مُـكِّنَ من قُرْبنَا مَنْ قام على خدمتنا ، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا .

قوله : « غُلبتْ الروم » : سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم — وإن كان الـكفر يجمعهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمـان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية . . فـكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزنه واهتمامه لدين الله ؟

---

(١) الحرفة هنا معناها دأبه وديدنه (الوسيط) .

(٢) لأن بقاءهم به خلف لهم عن كل شيء ، فكل شيء زائل .

قوله جل ذكره : « للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ
ويومئذٍ يفرح المؤمنون * بنصرِ اللهِ
ينصُر مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيم » .

« قبلُ » إذا أُطلق انتظم الأزل ، « وبعدُ » إذا أطلق دلّ على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلىّ لله ، والأمر الأبدىّ لله ، لأنّ الرّبَّ الأزلىّ والسَّيِّدَ الأبدىّ اللهُ .

لله الأمرُ يومَ العرفان[1] ، ولله الأمرُ يومَ الغفران .
لله الأمرُ حين القسمة ولا حين ، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أى معين[2] .

ويقال : لى الأمرُ « من قبل » وقد علمتُ ما تفعلون ، فلا يمنعنى أحدٌ من تحقيق عرفانكم ، ولى الأمر « من بعد » وقد رأيتُ ما فعلتم ، فلا يمنعنى أحدٌ من غفرانكم .

وقيل « لله الأمر من قبل » بتحقيق ودِّكم ، ولله الأمر من بعد بحفظ عهدكم :

إنى — على جفواتها — وبربها
وبكلِّ مُتصلٍ بها مُتوسلِ[3]

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليومَ إرجافُ السرور وإنما
يومَ اللقاء حقيقةُ الإرجاف

اليومَ ترحٌ وغداً فرح ، اليوم عَبرة وغداً حَبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ، اليوم بكاء وغداً لقاء .

قوله جل ذكره : « وعدَ اللهِ لا يخلفُ اللهُ وعدَه
ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون »

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص يوم (القربان) ، والمعرفة والقرب يجريان فى هذه الحياة الدنيا ، أما الغفران فهو فى الآخرة يوم الحساب .

(٢) هكذا فى وهى فى ص : (ولله الأمر عند النقمة وليس فى معسر) وهى غامضة فى الكتابة والمعنى ، وقد آثرنا ما جاء فى م لوضوحه .

(٣) فى موضع آخر من الكتاب (المجلد السادس) نجد هذا البيت متبوعاً بالبيت التالى (الذى فيه خبر إن) :

لأحبها وأحب منزلها الذى
نزلت به وأحب أهل المنزلِ

الـكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته .

يقول المؤمنون : مِنا يومَ الميثاق وعدٌ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة ، فإن وَقع فى وعدنا تقصيرٌ لا يقع فى وعده قُصورٌ .

قوله جل ذكره : « يعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا * وهم عن الآخرة هم غافلون » .

استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهماكهم فى تعليق القلب بهـا . . مَنَعَهم عن العلم بالآخرة . وقيمةُ كلٍّ امرىءٍ عِلمه بالله ؛ ففى الأثر عن علىٍّ — رضى الله عنه — أنه قال : أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها فى غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أو لم يتفكروا فى أنفسِهم ما خلق اللهُ السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأَجَلٍ مسمًّى وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاءِ ربِّهم لـكافرون » .

إنَّ مَنْ نَظَرَ حقَّ النظر ، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلمَ واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات ، وعَلِمَ موعوده الصادق فى المستأنف — نجا عن كَدِّ التردد والتجويز[1] . فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبـةُ الذين من قَبْلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعَمَرُوها أكثَرَ مما عمروها ، وجاءتْهم

---

(١) التردد والتجويز آفتان تصيبان — فى نظر القشيرى — العقل ، بينما القلب والروح والسر وعين السر لا تصاب بهما .

رُسُلُهم بالبيناتِ فما كان اللهُ لِيَظْلِمَهم
ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمُون » .

سَيْرُ النفوسِ فى أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوبِ بجَوَلانِ الفِكْرِ فى جميع المخلوقات ، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجِبُ ثلج الصدر — ثم تلك العلوم على درجات . وسير الأرواح فى ميادين الغيب بنعت خرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترقى عن الحِدْثان[1] بأسْرِها ، والتحقق أولا بالصفات ، ثم بالخمود بالكلية عمَّا سِوى الحقّ[2] .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كان عاقبةَ الذين أساءوا
السُّوأىٰ أنْ كَذَّبوا بآياتِ اللهِ وكانوا
بها يَسْتَهْزِئُون » .

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُدْ الوَرْدَ ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار ، ومَنْ سَلَكَ طريق الغىّ لم يَحْلُلْ بساحة الرشد .

قوله جل ذكره : « اللهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده ثم إليه
تُرْجَعون » .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المجرمون» .

شهودُهم ما جحدوه فى الدنيا عيانًا ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعًا[3] هو الذى يفتت أكبادهم ، وبه تتمُّ محنتُهم .

قوله جل ذكره : « ولم يَكُنْ لهم مِنْ شركائهم شُفَعاءُ
وكانوا بشركائهم كافرين » .

---

(1) المقصود بالحدثان المخلوقات إذ لها أول وابتداء ولها آخر وانتهاء .

(2) أنظر بخصوص هذا الترقى صفحة ١٨١ (المجلد الثانى من هذا الكتاب) .

(3) لأن معرفتهم العينية تقطع كل شك كان يراودهم فى الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأمل زائف .

تغلب العداوةُ منْ بعضٍ على بعضٍ .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقوم الساعةُ يومئذٍ يتفرقون » .

فريقٌ منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة ، وفريقٌ للعذاب والمحنة . فريقٌ في السعير ، وفريقٌ في السرور . فريقٌ في الثواب ، وفريقٌ في العذاب . فريقٌ في الفراقِ ، وفريقٌ في التلاقي .

قوله جل ذكره : « فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فهم في روضةٍ يُحْبَرُون » .

فهم في رياضٍ وغياضٍ .

« وأمَّا الذين كفروا وكَذَّبوا بآياتِنا ولقــاءِ الآخرةِ فأولئك في العذابِ مُحْضَرون » .

فهم في بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فسُبْحان اللهِ حين تُمْسُون وحين تُصْبِحون * وله الحمدُ في السمواتِ والأرض وَعَشِيًّا وحين تُظْهِرون » .

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له في يومه ، ومن كان مساؤه بالله بورك له في ليله :

وإنَّ صَبَاحًا نلتقي في مسائه صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتَّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته ، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحه مختتم بعزيز قربته !

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس[1] ،

(١) قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . ف (حين تمسون) صلاة المغرب والعشاء ، (وحين) تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيا) صلاة العصر ، (وحين تظهرون) صلاة الظهر .

وإرادةَ الحقِّ من أوليائه بأَنْ يجددوا العهدَ فى اليوم والليلة خمْسَ مراتٍ ؛ فتقف على بساط المناجاة ، وتستدرك مافاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّتِ ويُخرِجُ المَيِّتَ من الحىِّ ويحيى الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخْرَجُون » .

« يخرج الحى من الميت » : الطيرَ من البيض ، والحيوان من النُّطفةِ .

و « يخرج الميت من الحىِّ » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .

والمؤمنَ من الكافِر والكافِرَ من المؤمن .

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات ؛ كالقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين أوقات القبض .

« ويحيي الأرض بعد موتها » : يحييها بالمطر ، ويأتى بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك يوم النشور يحيى الخلْقَ بعد الموت .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ من ترابٍ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون » .

خَلَقَ آدمَ من التراب ، ثم من آدم الذُّرِّيَةَ . فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة ، القيمةُ لما مِنْهُ لا لأعيان المخلوقات . اصطفى واختار الكعبة فهى أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ! ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر ! واختار الإنسانَ ، وهذا المختار مَدَرٌ ! والغنىُّ غنىٌّ لِذَاتِهِ ، غنىٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْمٍ وأثر .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أَنْ خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجَعَلَ بينكم

مودةً ورحمةً إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يتفكّرون » .

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل ، وربَطَ الشكلَ بالشكلِ ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعضِ ، ولكنَّ ذلك للأشباح والصُّوَر ، أمَّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ[1] . وأمَّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه خَلْقُ السموات والأرضِ
واختلافُ ألْسِنَتِكُمْ وألوانِكم إنَّ
فى ذلك لآياتٍ للعالِمين » .

خَلَقَ السماواتِ فى علوِّها والأرضَ فى دنوِّها ؛ هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها . وهذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومَدَرِها .

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض ، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم سكان السماء . وإنَّ اختصاصَ كلِّ شىءٍ منها بحُكمٍ — شاهدُ عَدْلٍ ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجى أفكار المتيقظين ، وتنادى على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه منامُكم بالليل والنهارِ
وابتغاؤكم مِنْ فَضْلِه إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يسمعون » .

غَلَبَةُ النوم بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُه مِنْ غيرِ اكتسابٍ له بِوُسْعِه يدلُّ على موته وبَعْثِه بعد ذلك وقتَ نشوره . ثم فى حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه ، وعلى أوصافٍ كثيرة أمره .. كذلك الميت فى قبره .. اللهُ أعلمُ كيف حاله فى أمره ، وما يلقاه من خيره وشرِّه ، ونفعه وضرِّه ؟

---

(1) فكرة اغتراب الروح عن مصدرها الأصيل ، ولبثها فى داخل البدن ، ذلك القفص المادى أو السجن الترابى — تحتل اهتماماً كبيراً عند شعراء الصوفية (أنظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » فصل الفطرية) .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه يريكم البَرْقَ خوفاً وطمعاً
ويُنَزِّلُ من السماءِ ماءً فيُحيِي به الأرضَ
بعد موتِها إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ
يعقلون » .

يُلْقِي فى القلوب من الرجاءِ والتوقع فى الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمِنْ عبدٍ يحصُل مقصودُه ، ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه .

والأحوال اللطيفة كالبروق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار[1] ، فاللوائح فى أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف[2] ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِه أَنْ تقومَ السماء والأرضُ
بأمْرِه ثم إذا دعاكُم دعوةً من الأرضِ
إذا أنتم تَخْرُجون » .

يُفْنِي هذه الأدوار ، ويُغَيِّر هذه الأطوار ، ويبدِّل أحوالا غير هذه الأحوال ؛ إماتةٌ ثم إحياءٌ ، وإعادةٌ وقبلها إبداءٌ ، وقبرٌ ثم نَشْر ، ومعاتبةٌ فى القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ .

قوله جل ذكره : « وله مَنْ فى السمواتِ والأرضِ كُلٌّ له
قانِتُون » .

له ذلك مِلْـكاً ، ومنه تلك الأشياء بَدْءاً ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده وهو
أهون عليه وله المَثَلُ الأَعْلى فى السموات
والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) يتفق موقف القشيرى من هذه المصطلحات هنا مع ما ذكره فى «الرسالة» وإن كان قد زاد عليها هنا (متوع النهار) .

(٢) نفهم من هذا أن القشيرى يرى هذا الترتيب : العلم ثم الفهم ثم المعرفة أو العرفان ، ونفهم أن التوحيد أعلى درجات العرفان .

« وهو أهون عليه » أى فى ظنِّكم وتقديركم[1] .

وفى الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقِّ لا تجوز .

« وله المَثَلُ الأعلى » : له الصفةُ العليا فى الوجود بحقِّ القِدَم ، وفى الجود بنعت الكَرَم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النصرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التعلُّق ، وفى الحكم بوجوب التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية[2] بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العزِّ والجلال ، وفى الملكوت بنعت المجد والجمال .

قوله جل ذكره : « ضربَ لكم مثلاً من أنفسِكم هل لكم مما مَلَكَتْ أيمانُكم مِنْ شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سَواء تخافونهم كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكم كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعقلون » .

أى إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون[3] بكلِّ وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم - فمَا تقولون فى الذى لم يَزَلْ ، ولا يزال كما لم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقَدَّرَ فى وصفه أن يُسَاوِيَه عبيدُه ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه ؟ تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً !.

قوله جل ذكره : « بل اتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا أهواءهم بغير عِلمٍ فَمَنْ يهدِى مَنْ أضَلَّ اللهُ وما لَهم من ناصرين » .

---

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإعادةُ أسهلُ من الإنشاء .. فَلِمَ أنكرتم الإعادة ؟ فضلا عن أنه ليس عند الله سهل ولا عسير .

(٢) القضية : هى قضاء الله .

(٣) متشاكلون معناها : متشابهون ومتساوون ولا فرق فى الجوهرية بينكم وبينهم .

أشدُّ الظلمِ متابعةُ الهوى ، لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ ، قال تعالى : « أفرأيتَ مَنْ اتخذ إلهه هواه »[1]. فمَنْ اتَّبعَ هواه خالف رضا مولاه ؛ فهو بوضعه الشيء غيرَ موضعه صار ظالمًا ، كما أنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ .. كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار فى الظلم متمادياً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وجهَك للدِّين حنيفاً فِطْرَةَ اللهِ
التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله
ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ
لاَ يعلَمون » .

أخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله ، واحفَظْ عهدك مع الله ، وأَفرِدْ عملَكَ فى سكناتِك وحركاتِك وجميعِ تصرفاتِك لله .

« حنيفاً » : أى مستقيما فى دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضًا عن غيره[2]. والزَمْ « فطرةَ الله التى فطر الناس عليها » أى أثبتَهم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعلٌ ولا كَسْبٌ ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْر ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولاعصيان . فاعرف بهذه الجملة ، ثم افعل ما أُمِرْتَ به ، واحذر ما نُهيتَ عنه .

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » أى إعرَفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التى فطر الناس عليها : تجَرُّدُهم عن أفعالهم ، ثم اتصافهم بما يكسبون — وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله[3].

وعلى هذا تكون « فطرةَ » الله منصوبة بإضمار إعْلَمْ — كما قلنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) فكلمة « حنيف » من الأضداد .

(٣) يذكرنا هذا بتفسير أبى طالب المكى لقول رابعة « أحبك حبين .. » فالحب الأول فطرى تفضل الله به ، والحب الثانى عانته هى بكسبها ولكنها حتى فى هذا الحب الكسبى لا فضل لها ، ولذلك استدركت :

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

أنظر (قوت القلوب للمكى حـ٢ ص٥٦ وماتلاها) وانظر أيضا كتابنا (نشأة التصوف الإسلامى) ط دار المعارف .

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ماعَلِمَ أنه يكون فى السعادة أو الشقاوة ، ولا تبديلَ لحُكْمه ، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه . فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته ، وخَلَقَه فى حُكْمه سعيداً . ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقيًا وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه فى حكمه شقيًا .. ولا تبديل لحُكمه ، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح[1].

قوله جل ذكره : « مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاةً ولا تكونوا من المشركين » .

أى راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفاقه ، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه ، متَّقين صغيرَ الإثم وكبيره ، قليلَه وكثيره ، مُؤثرين يسيرَ وفاقه وعسيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً ، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً .

قوله جل ذكره : « من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حِزْبٍ بما لديهم فرحُون » .

أقاموا فى دنياهم فى خمار الغفلة ، وعناد الجهل والفترة ؛ فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وتموَّلوا مِنْ كيس غيرهم ، وظنوا أنهم على شىء . فإذا انكشف ضبابُ وقتهم ، وانقشع سحابُ جحدِهم . . انقلب فرُحهم ترحًا ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرِّجوا إلاَّ فى أوطان الجهالة .

قوله جل ذكره : « وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دعوْا ربَّهم مُنيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربِّهم يشركون » .

---

(١) نحسب أن القشيرى قد حاول إيضاح مشكلة هامة من مشاكل علم الكلام ، فليست الجبرية عنده بناقضة لحرية الإنسان واختياره ، ما دامت الأمور كلها مرتبطة بعلم الله الذى سبق كل شىء ، وبفضل الله الذى فطر على ما علم .

إذا أظلّتهم المحنةُ ونالتهم الفتنةُ ؛ وَمَسَّتْهُم البليَّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين، وبلطفه مستجيرين ، وعن محنتهم مستكشفين[1] .

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم : إذا فريقٌ منهم — لا كلُّهم — بل فريقٌ منهم بربهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران ، ويقابلون إحسانه بالنسيان ، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء ، ولا في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « لِيَكفرُوا بِمَا آتيناهم فتمَتعوا فسوف تعلمون » .

أى عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع ، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءًا من التخشع ، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم .

قوله جل ذكره : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بِمَا كانوا به يُشركون » .

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقَهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى غير شَرعٍ من الله أو حجةٍ أو بيانٍ أَسَّسُوا مذاهبَهم .

قوله جل ذكره : « وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإنْ تُصِبْهمُ سيئةٌ بما قدّمَت أيديهم إذاهم يقنطُون » .

تستميلهم طوارقُ أحوالهم ؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح .. وليس وصفُ الأكابر كذلك ؛ قال تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[2] .

---

(١) أى راجين كشف الغمة عنهم .
(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أَو لم يَروا أنّ اللهَ يبسُط الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ إنّ فى ذَلك لآياتٍ لِقومٍ يُؤمنون » .

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله ؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله ، وما يسرُّهم ليس وجودُه إلا من الله ، فالبسطُ الذى يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده ، والقبض الذى يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه ، فالواجبُ لزوم عَقْوَةِ[1] الأسرار ، وقطعُ الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فآتِ ذا القربى حَقَّه والمسكينَ وابن السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجهَ اللهِ وأولئك هم المفلحون » .

القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابة الدِّين ، وقرابةُ الدين أَمسُّ ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلا بالعبادة ، غيرَ متفرِّغ لطاب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ ، وتفقُّدَه أَوْجَبَ .

« ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله » : المريدُ هو الذى يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه ؛ فإيثارُ المريد وَجه اللهِ أَتمُّ من مراعاته حال نفسه ، فهِمَّتُه فى الإحسانِ إلى ذوى القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته .

قوله جل ذكره : « . . وما آتيتُم مِنْ زكاةٍ تريدون وَجْهَ اللهِ فأولئك هم المُضْعِفون » .

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من رافقة[2] ،

---

(1) العقوة الموضع المتسع أمام الدار .

(2) الرافقة = الرفق واللطف ، تقول : أولاه رافقة (الوسيط) .

بل أفضل الصدقة على ذى رَحمٍ كاشح[1] حتى يكون إعطاؤُه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه ، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أجْرَهم: قَهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها ، وفوزُهم بالعِوَض مِنْ قِبَلَ الله .

ثم الزكاة هى التطهير ، وتطهيرُ المـالِ معلومٌ ببيان الشريعة فى كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاةُ السِّرِّ . . كلُّ ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ثم رَزَقَكُمْ ثم يُميتُكم ثم يُحْيِيكم هل مِن شُرَكائِكُمْ مَنْ يفعلُ مِنْ ذلكم مِنْ شىء سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكون » .

« ثم » حرفٌ يقتضى التراخى ؛ وفى ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك ؛ كنتَ فى ضعف أحوالك ابتداء ما خَلَقَكَ ، فأثبتك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أُمِّك : إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ فى بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق — إنْ حَقٌّ ما قالوا : إن الجنينَ يتَغَذَّى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لَبَنِ الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره .

« ثم يميتكم » بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يحييكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يحييكم بربِّكم .

---

(١) كاشح أى مبغض . وربما كان خير مثل للتصدق على ذى رحم مبغض ، ما حدث من أبى بكر حينما امتنع عن تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف فى قصة الإفك ، فعوتب أبو بكر فى ذلك ونزلت فيه «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » آية ٢٢ سورة النور .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُمْكِنَةَ لكَ فى تبديل خَلْقِكَ ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تَعَسُّر رزقِك ، فالمُوَسَّعُ عليه رزقُه — بِفَضْلِهِ سبحانه . . لا بمناقِب نَفْسِه ، والمُقَتَّرُ عليه رزقُه بحُكْمِه سبحانه . . لا بمعايب نَفْسِه .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذلكم من شىء ؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أى من الأصنام أو توهمتموهم من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ « سبحانه وتعالى » تنزيهاً له وتقديساً .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الفسادُ فى البَرِّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدى الناسِ لِيُذِيقَهُم بعضَ الذى عَمِلوا لَعَلَّهم يرجِعون » .

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

وفسادُ البرّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشّرّ والفِسْقِ . . وغير ذلك . وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلِها من أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ فى غير قيامٍ بِجِدٍ ، والإغراق فى الدعاوَى من غير استحياء من الله تعالى .

« ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » : بعض الذى عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب ، وعدم التأسُّف على مافاته من الحقِّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلُ كان أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِين » .

« سيروا » بالاعتبار ، واطلبوا الحقَّ بنعت الأفكار .

« فأنظروا » كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حُكْمَكُمْ في جميع الأحوال. « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرَهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أقلَّهم وزناً وقَدْراً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين القيِّم من قبل أَنْ يأتىَ يومٌ لا مَرَدَّ له من الله يومئذٍ يَصَّدَّعُون » .

أَخْلِص قَصْدَك وصِدْقَ عَزْمِكَ للدين القيِّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فمَنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانُه أَتَمَّ من رِبْحِه ، ونقصانُه أَعَمُّ من نَفْعه[1] .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنْ يُرْسِلَ الرياحَ مُبَشِّرَاتٍ ولِيُذِيقَكم مِنْ رحمته ولتجرىَ الفُلْكُ بأمره ولتبتغوا من فَضْلِه ولَعَلَّكُم تشكرون » .

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال. ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدوام الوصال .. فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك .

---

(١) يرى كبار الصوفية — والقشيرى منهم — أن التأدب بشيخ أمر ضرورى فى الطريق الصوفى كى يكبح جماح المريد ، ويهديه إلى ربه عند رعونة نفسه ، ويبعد به عن الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، ويشير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إلى

إلى قومِهِم فجاءوهم بالبيِّناتِ فانتقمنا

من الذين أجرموا وكان حَقًّا علينا

نَصْرُ المؤمنين » .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا ، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشوَّشْنا عليهم ما أمَّلوا ، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا ، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

« وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين » بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمنا بنيانهم ، وأخمدنا نيرانَهم ، وعَطَّلْنا عنهم ديارَهم ، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم ، فظَلَّتْ شموسُهم كاسفة ، ومكيدةُ قَهْرِنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى يُرْسِلُ الرياحَ فتثيرُ سحابًا

فيبسُطُهُ فى السماءِ كيف يشاء ويجعله

كِسَفًا فترَى الوَدْقَ يخرج من خلالِهِ

فإذا أصاب به مَنْ يشاء مِنْ عباده

إذا هُمْ يستبشرون » .

يرسل رياح عَطفِهِ وجُودِهِ مبشراتٍ بوَصْلِهِ وجوده ، ثم يُمْطِر جودَ غيبه على على أسرارهم بلُطفِهِ ، ويطوى بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبه ، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِهِ ، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِهِ ، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِهِ ، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه ، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم — لا بِهِمِ — ولكنْ بِنَفْسه ، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ ، والإشارات دونها طُمْسٌ .

قوله جل ذكره : « فانظُرْ إلى آثارِ رحمةِ الله كيف يحيي الأرضَ بعد موتها إنَّ ذلك لمحيي الموتى وهو على كلِّ شيء قدير » .

يحيي الارضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخْرِجَ زَرْعَها وثمارَها ، ويحيي النفوس بعد نَفْرتها ، ويوفقها للخيرات بعد فترتها ، فتعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار المحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة ، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ العسر من أصحاب الإرادات ، ويحيي الأرواح بعد حَجْبَتِها — بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة ، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحبُ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب ، ويُحْيي الأسرارَ — وقد تكون لها وَقْفَةٌ في بعض الحالات — فتنتفي بالكلية آثارُ الغيرية ، ولا يَبْقَى في الدار ديَّار ولا من سكانها آثار ؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله . . سقط الماء والقطرة ، وطاحت الرسوم والجملة[1] .

قوله جل ذكره : « ولئن أرسَلْنا ريحاً فرأوْهُ مُصْفرًّا لَظَلُّوا مِنْ بعده يكفُرُون » .

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات .. كذلك مَنْ حقَّتْ عليهم الشقاوةُ جرَّته إلى نفسها — وإنْ تبَوَّأَ الجنةَ منزلاً .

قوله جل ذكره : « فإنَّكَ لا تُسمِعُ الموتى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرين » .

مَنْ فقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم ، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فسَمْعُ الظاهر لا يفيده آكَدُ الحُجَّة . وكما لا يُسْمِعُ[2] الصُّمَّ الدعاء فكذلك لا يمكنه أن يهدى العُمْيَ عن ضلالتهم .

---

(١) أي انتفت آثار البشرية ، وصار العبد مستهلكاً بالكلية .

(٢) الفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على الرسول صلوات الله عليه ، فإن الخطاب في الآية الكريمة موجه إليه.

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكم من ضَعْفٍ ثم جَعَلَ من بعد ضَعْفٍ قُوةً ثم جَعَلَ من بَعْدِ قوةٍ ضَعْفًا وشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وهو العليمُ القديرُ » .

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية[1] ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نعت التردد والحيرة فى الطلب ، ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولًا ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان فى حال العرفان ، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود ، لأن الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال « خلقكم من ضعفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين »[2] .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمون ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُؤْفَكون » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إمَّا لأنهم كانوا أمواتًا .. والميت لا إحساسَ له ، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهم تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جملة ما كانوا يظهرون من جَحْدِهم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسْمَعُ عذْرُهم ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهم .

---

(١) الطفولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى بسند رجال ثقات عن عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضوع ، وأبطل ذلك الحافظ بن حجر .

وأخبر بعد هذا فى آخر السورة عن إصرارهم وانهما كهم فى غيِّهم ، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم .

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم .

« فاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ
ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون » .

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةُ مَنْ سمعها أَقَرَّ أنَّه لا يسمع مِثْلَها ، ومَنْ عَرَفَها أَنِفَ أَنْ يسمعَ غيرها . كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُه ، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُه ، وتَمَّتْ من النِّعَمِ في الدنيا والعقبى حِصَّتُه ، وزَهِدَ في دنياه من غير رغبةٍ في عقباه ؛ لأنَّها ـ وإنْ جَلَّتْ ـ غيرُ مولاه[1] .

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فنائه ، ولم يتحشم[2] سرعةَ وفائه .

قوله جل ذكره : « الٓمٓ * تلك آياتُ الكتابِ الحكيم »

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلى لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه ، وبلطفه وعطائه يثبت المحبةَ في أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » : المحروس عن التغيير والتبديل .

« هُدًى ورحمةً للمحسنين * الذين يقيمون الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يُوقنون »

هو هدًى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادةَ اللهِ كأنهم

---

(١) فالحب الخالص منتف عن الغيرية .

(٢) لم يتحشم أي : لم يتجنب .

ينظرون إلى الله . وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم، ومطيعِهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها فى الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة ، واستقبال القِبْلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف فى مكانٍ طاهر . وفى الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق ، وسَتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب ، لأنها مهما تكن فالله يراها ؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى الله عيوبَك فاحذَرْها حتى لا تكون . والوقوف فى مكان طاهر ، وهو وقوف القلبِ على الحدِّ الذى أُذِنْتَ فى الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، وَرَحِمَ اللهُ مَنْ وقف عند حدِّه . والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القبلةَ بنفْسِك، وتعلِّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقُطْرٍ أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هُدًى من ربِّهم وأولئك هم المفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقِّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا فى الدنيا والعقْبى فسلِموا ونَجَوْا .

قوله جل ذكره : « ومِنَ الناسِ مَنْ يشترى لَهْوَ الحديثِ لِيُضِلَّ عن سبيل اللهِ بغير عِلْمٍ ويتَّخِذَها هزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهِينٌ »

« لهو الحديث » : مايشغل عن ذكر الله[1] ، ويَحْجُبُ عن اللهِ سماعُه . ويقال : هو لَغْوُ الظاهر الموجِبُ سَهْوَ الضمائر ، وهو ما يكون خَوضاً فى الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك.

---

(١) اعتاد كثير من المفسرين أن يفسروا اللهو هنا (بالغناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيرى المعنى فى هذا الاتجاه ، لأننا نعلم من مذهبه أنه لا يرى بأساً فى سماع الغناء ولكن بشرط أن يحرك الوجدان نحو غاية سامية فى السماع ، وألا يبعث فيها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشىء محرَّم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى ونزعته فى التصوف) ط مؤسسة الحلبى .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْـلَى عليه آياتنا ولّى مستكبراً
كأنْ لم يَسْمَعْهما كأنَّ فى أُذُنَيْهِ وَقْراً
فَبَشِّرْه بعذابٍ أليم »

المُفْـتَرِقُ بِهمِّه ، والمُتَشَتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً ؛ فسماعُه كَـلاَ سماع ، ووعظه هباء وضياع ، كما قيل :

إذا أنا عاتَبْتُ الملولَ فإنما
أَخُطُّ بأقلامى على الماء أحرُفا

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم
جنّاتُ النعيم * خالدين فيها وَعْدَ اللهِ
حَقّاً وهو العزيز الحكيم »

« آمنوا » : صَدَّقوا « وعملوا الصالحات » : تَحَقَّقُوا ؛ فاتصافُ تحقيقِهم راجعٌ إلى تصديقهم ، فنَجَوْا وسَلِمُوا ؛ فهم فى راحاتهم مقيمون ، دائمون لا يَبْرَحُون .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ بغير عَمَدٍ تَرَوْنها
وألقى فى الأرضِ رواسِيَ أنْ تميدَ بِكُمْ
وبَثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وأنزلنا من
السماء ماء فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم »

أمسكَ السمواتِ بقدرته بغيرِ عِماد ، وحَفِظَها لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد ، بل بحُكْمِ الله وبتقديره ، ومشيئته وتدبيره .

« وألقى فى الأرض رواسى . . » فى الظاهر الجبال ، وفى الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق ، بهم يقيهم ، وبهم يَصرِف البلاء عن قريبهم وقاصيهم .

« وأنزلنا من السماء ماء . . » المطر من سماء الظاهر فى رياض الخُضْرَة ؛ ومن سماء الباطن فى رياض أهلِ الدنوِّ والحَضْرَة .

قوله جل ذكره : « هذا خَلْقُ اللهِ فأرونى ماذا خَلقَ الذين
مِنْ دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

هذا خَلْقُ الله العزيز فى كبريائه ، فأرونى ماذا خَلقَ الذين عَبدْتم من دونه فى أرضه وسمائه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا لُقمانَ الحكمةَ أن اشكرْ
للهِ ومَنْ يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسِه
ومَنْ كفرَ فإنّ اللهَ غنىٌّ حميدٌ » .

« الحكمة » الإصابة فى العقل والعقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى . ويقال « الحكمة » الكوْن بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفةُ قدْر نَفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجا عن كسائك . ويقال « الحكمة » ألا تستعصى عَلَى مَنْ تعلم أَنك لا تقاومه .

« أن أشكر لله » : حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرَّبِّ . فهو مقلوب قولهم : كَشَرَتْ عن أنيابها الدابةُ ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وجبذَ .

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره . ويقال الشكر مابه يحصل كمالُ استلذاذ النعمة . ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور . ويقال الشكر نعتُ كلّ غنىٍّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلٍّ لئيم . ويقال الشكر قرُع باب الزيادة[1] . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال.
« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »[2] : لأنه فى صلاحها و نصيبها يسعى .

قوله جل ذكره : « وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يعظه يا بُنَىَّ
لا تُشْرِكْ بالله إنّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيم » .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى «لئن شكرتم لأزيدنكم» آية ٧ سورة ابرهيم .
(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشِّرْكُ عَلَى ضربين : جَلِىّ وخفِىّ ؛ فالجلىُّ عبادة الأصنام ، والخفىّ حسبان شىء من الحدثان من الأنام . ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب . ويقال الشرك ظلم عَلَى القلب ، والمعاصى ظلم عَلَى النفس، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران ، ولـكنّ ظلمَ القلوب لاسبيل إليه للغفران .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حملته
أمه وَهناً على وَهن وَفصاله فى عامين أن
أشكرْ لى ولوالديكَ إلىّ المصير » .

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكتَفَى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنَّ شُكْرَ الحقِّ لا يكْفى فيه مجرَّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل ؛ وذلك بالتزام الطاعة ، واستعمال النعمة فى وجه الطاعة دون صَرفِها فى الزَّلَّة ؛ فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير ، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير.

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جاهداكَ على أنْ تشركَ بى
ما ليس لكَ به علم فلا تُطعْهما وصاحِبْهما
فى الدنيا معروفاً ، واتّبع سبيلَ منْ
أنابَ إلىّ ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما
كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله،أو تسعى بما هو زلةفى أمر الله—فلا تطعهما ،ولـكن عاشرهما بالجميل ؛ تخشين فى تليين ، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ ، وانفرد بسرِّك لله ، «واتبع سبيل منْ أناب إلىّ » : وهو المنيبُ إليه حقاً من غير أن تبقى بقية فى النفْس .

قوله جل ذكره : « يا بُنىَّ إنها إنْ تَكُ مثقالَ حبةٍ
مِن خردلٍ فتَكُنْ فى صخرةٍ أو فى السموات
أو فى الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن اللهَ
لطيفٌ خبيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمةُ فلا محالةَ تصل إلى المقسوم له بغير مرية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

قوله جل ذكره : « يابُنيَّ أَقِمْ الصلاةَ وأْمرْ بالمعروف وآنْهَ
عن المنكر واصبرْ عَلَى ما أَصابكَ إنَّ
ذلك مِنْ عزْم الأمور » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه ، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نَفسه لا ينفذ حكمه على غيره .

والمعروف الذى يجب الأمرُ به هو مايُوَصِّلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذى يجب النهى عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« واصبر عَلَى ما أصابك » تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام لله بحقٍّ امْتُحِنَ فى الله ؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله — فإنّ منْ صبرَ لله لا يخسر عَلَى الله .

قوله جل ذكره : « ولا تصعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تمشِ
فى الأرض مَرحًا إنّ اللهَ لا يحبّ كلَّ
مختالٍ فخور » .

يعنى لا تتكبرْ عَلَى الناسِ ، وطالِعهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك . ومَنْ عَلِمَ أنّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل .

قوله جل ذكره : « وَاقْصِد فى مَشيكَ وَاغضُض مِنْ
صوتِكَ إنّ أنكرَ الأصوات لصوْتُ
الحمير » .

كُنْ فانياً عن شواهدك ، مُصْطَلَماً عن صَوْلَتِك ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتِك ، مُنْتَشِقاً[1] مما استولى عليك من كشوفات سِرِّك .

---

(١) (انتشق) الماء وغيره : جذب منه بالنَّفَس فى أنفه ، ورجل نشق إذا دخل فى أمر لا يكاد يتخلص منه (الوسيط) .

وانظر مَنْ الذى يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير » : فى الإشارة هو الذى يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقّ . وقالوا : إنه الصوفىُّ يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لكم ما فى السموات وما فى الأرضِ وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهِرةً وباطنةً ومِنَ الناسِ مَنْ يجادِل فى اللهِ بغيْرِ عِلْمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير » .

أثبت فى كل شىء منها نَفْعًا لكم ، فالسماء لتكونَ لكم سقفاً ، والأرض لتكون لكم فِراشاً ، والشمس لتكون لكم سراجاً ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم لتهتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : الإسباغُ ما يَفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : « نعمه ظاهرة وباطنة » : تكلموا فيه فأكثروا . فالظاهرةُ وجودُ النعمة ، والباطنةُ شهودُ المنعِم . والظاهرةُ الدنيويةُ ، والباطنةُ الدينيةُ . والظاهرة حُسْنُ الخَلْق ، والباطنة حُسْنُ الخُلُق . الظاهرةُ نَفْس بلا زَلّة ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة . الظاهرةُ العطاء ، والباطنة الرضاء . الظاهرة فى الأموال ونمائها ، والباطنة فى الأحوال وصفائها . الظاهرةُ النعمةُ ، والباطنةُ العصمةُ . الظاهرةُ توفيقُ الطاعات ، والباطنةُ قبولُها . الظاهرة تسوية الخَلْقِ ، والباطنة تصفية الخُلُق . الظاهرة صحبة الصالحين ، والباطنةُ حِفْظُ حُرْمَتِهم . الظاهرةُ الزهدُ فى الدنيا ، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى[1] . الظاهرة الزهد ، والباطنةُ الوَجْدُ . الظاهرة توفيق

---

(1) هذه أعلى درجات الزهد ، وهى تهمنا ونحن نؤرخ للتطور التاريخى الذى حدث عندما تطور الزهد إلى تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامى (ط دار المعارف) .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النَّفْس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق ، والباطنةُ اشتغالُك بربِّك عن نَفْسِك . الظاهرة طَلَبُه ، الباطنةُ وجودُه[1] . الظاهرةُ أَنْ تَصِلَ إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ما أنزل اللهُ
قالوا بل نَتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءنا
أو لو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذابِ
السعير » .

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم . فأمَّا مَنْ سَمَتْ نَفْسُه ، وخلص فى الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسَلَكَ الحجَّةَ المُثْلَى : —

« ومَنْ يُسْلِمْ وجْهَه إلى اللهِ وهو مُحْسِنٌ
فقد استمسك بالعروةِ الوُثقَى وإلى اللهِ
عاقبةُ الأمور » .

وعلى العكس : —

« ومَنْ كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه
إلينا مرجِعُهم فَنُنَبِّئُهُم بما عَمِلوا إنَّ
اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدور » .

إلينا إيابُهم ، ومِنَّا عذابُهم ، وعلينا حسابُهم . ولئن سألتَهم عن خالقهم لأَقَرُّوا ، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم نقضوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « للهِ ما فى السمواتِ والأرضِ إنَّ
اللهَ هو الغنىُّ الحميدُ » .

لله ما فى السموات والأرضِ مِلْكاً ، ويُجْرِى فيهم حُكْمَه حَقًّا ، وإليه مَرْجِعُهم حتْما .

(١) الوجود مرحلة تأتى بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّ ما فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِنْ بعده سبعةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم » .

لو أنَّ ما فى الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تُنْفَقُ القراطيسُ ،ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ ، وتفنى البحارُ ،وتستوفى القراطيسُ ،وتفنى أعمارُ الكُتَّاب .. ما نَفِدَت معانى مالنا مَعَكَ من الكلام ، والذى نُسْمِعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أَبَدَ الأبد ، والأبدىُّ من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ :

صحائفُ عندى للعتابِ طَوَيْتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

قوله جل ذكره : « ما خَلْقُكُمْ ولابَعْثُكُمْ إلّا كنفسٍ وَاحدةٍ إنَّ اللهَ سميعٌ بصير » .

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان ؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر ، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر ،إنما أَمْرُهإذا أراد شيئاً أن يقول له:« كن فيكون»[1] يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وُسْعٍ ، ولا بدعاء خاطرٍ ، ولا بطُرُوء غَرَضٍ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنَّ ما يَدْعُون من دونهِ الباطِلَ وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ الكبيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائنُ الموجودُ ، مُحِقُّ الحقِّ[2] ، وما يدعون من دونه الباطل : من العَدَمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم[3] .

---

(١) آية ٨٢ سورة يس .

(٢) فى ص جاء بعدها (وما يدعونه هو التلاوة) ويقول مجاهد ، إنه الشيطان . ويقال : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . .

(٣) شغلت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى القشيرى هنا يصلح عند المقارنة بين أرباب وحدة الشهود وأرباب وحدة الوجود فى شأن هذين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجرى فى البحرِ
بنعمة اللهِ لِيُرِيَكُم من آياتهِ إنَّ فى
ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور » .

فى الظاهر سلامتُهم فى السفينة ، وفى الباطن سلامتُهم من حدثان الكون،ونجاتُهم فى سفائن العصمة فى بحار القدرة .

« إن فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ » وَقُوفٍ لا ينهزم من البلايا ، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسى البلايا والعطايا .

قوله جل ذكره :« وإذَا غَشِيَهُم مَوجٌ كالظُّلَلِ دَعَوا
اللهَ مُخْلِصين له الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهم إلى
إلى البَرِّ فمنهم مُقْتَصِدٌ وما يَجْحَدُ بآياتِنا
إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بحِلْمِنا أحباءَنا : كم تجهلون ونَحْلُمُ !

قوله جل ذكره : « يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخْشَوْا
يوْماً لا يَجْزِى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ
هو جازٍ عن وَالدِهِ شيئاً إنّ وعدَ اللهِ حقّ
فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَكم
بالله الغَرور » .

يخوِّفهم مرةً بأفعاله فيقول : « اتقوا يوما » ، ومرةً بصفاته فيقول: « ألم يعلم بأن الله يرى» ومرةً بذاته فيقول : « ويحذركم الله نفسه » .

قوله جل ذكره : « إنّ اللهَ عنده عِلْمُ الساعةِ ويُنَزِّلُ
الغيثَ ويعلم مافى الأرحام » .

يتفرّد بعلم القيامة ، ويعلم مافى الأرحام ذكورَها وإناثها ، شقيها وسعيدها ، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِّل الغيث ، وكم قطرة يُنزلها ، وبأى بقعة يُمطرها .

« وما تدرى نَفسٌ ماذا تكسبُ غداً
وما تدرى نفْسٌ بأى أرضٍ تموت
إن اللهَ عَليمٌ خبير »[1] .

ما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً من خير وشر ، ووفاق وشقاق ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؛ أتدرك مرادَها أم يفوت ؟ .

---

(1) قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل .

سُورَةُ السَّجْدَة

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم »

كلمةٌ سماعُها ربيعُ الجميع ، من العاصى والمطيع ، والشريف والوضيع . مَنْ أصغى إليها بسَمْعِ الخضوعِ ترك طَيِّبَ الهجوع ، ومَنْ أصغى إليها بسمع المحابِّ تَرَكَ لذيذَ الطعامِ والشراب .

قوله جل ذكره . « الـم * تنزيلُ الـكتابِ لا ريبَ فيه مِنْ ربِّ العالَمين »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتى فلا يصبرون عنى ، وأَلِفَ العارفون تمجيدى فلا يستأنسون بغيرى .

والإشارة فى اللام إلى لقائى المُدَّخرِ لأحبَّائى ، فلا أبالى أقاموا على ولائى أم قصَّروا فى وفائى .

والإشارة فى الميم : أى تَرَكَ أوليائى مرادَهم لمرادى .. فلذلك آثرتُهم على جميع عبادى .

« تنزيل الـكتاب لاريب فيه من ربِّ العالمين » : إذا تعَذَّرَ لقاء الأحبابِ فأَعَزُّ شىء على الأحباب كتابُ الأحباب ؛ أَنْزَلْتُ على أحبابى كتابى ، وحَمَلَتْ إليهم الرسالةُ خطابى ، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابى ، فَهُمْ فى أمانٍ من عذابى .

قوله جل ذكره : « أَمْ يقولون افتراه بل هو الحقُّ من ربِّك لِتُنْذِرَ قوماً ما أَتاهم مِنْ نذيرٍ من قَبْلِكْ لعلَّهم يَهْتَدُون »

الذى لـكم منا حقيقة ، وإنْ التبس على الأعداء فليس يضيركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

صحبةَ الحبيب مع الحبيب أَلَذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرضَ
وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوى
على العرشِ ما لكم من دونه من وَلِىٍّ
ولا شفيعٍ أَفَلا تتذكَّرون »

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام ، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه فى وقتٍ ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ فى غير الوقت[1] . وكما يستغنى فى كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت .

« ثم استوى على العرش » : ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر ؛ استوى على العرش ولكن القديم ليس له حدٌّ ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد ، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة ؟ ، ولكنَّ العرشَ جمادٌ .. وأنَّى يكون للجماد مراد ؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ .

« ما لكم من دونه من وَلِىٍّ ولا شفيعٍ » : إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظِلُّكم ، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم ، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم ، ولا أحدَ — إذا لم يُعْنَ بشأنكم فى الدنيا والآخرة — ينظر إليكم .

قوله جل ذكره : « يُدَبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرضِ
ثم يَعْرُجُ إليه فى يومٍ كان مقدارُه
ألفَ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّون »

خَاطَبَ الخَلْقَ — على مقدار أفهامهم ويجوز لهم — عن الحقائق التى اعتادوا فى تخاطبهم .

« ذلك عالِمُ الغيبِ والشهادة العزيزُ الرحيم »

« العزيز » مع المطيعين « الرحيم » على العاصين .

« العزيز » للمطيعين ليكسِرَ صولتَهم « الرحيم » للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهم .

---

(١) لأن الزمان سَرْمَدٌ لا يرتبط بالوقت ولا يقتطع به .

قوله جل ذكره : « الذى أَحْسَنَ كُلَّ شىء خَلَقَه
وبَدَأ خَلْقَ الإنسانِ من طين * ثم جعل
نَسْلَه من سُلالةٍ من ماء مهين »

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراء ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع ، وجبريلُ طاووس الملائكة ، والحور العين — كما فى الخبر — فى جمالها وأشكالها ، والجِنانُ — كما فى الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : « وخَلَقَ الإنسانَ من طينٍ . ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين »[1] . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن
عليك من الورى وقع اختيارى

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن « يحبهم ويحبونه »[2] ، وخلق الإنسان من طين ولكن : « فاذكرونى أذكركم »[3] ، وخلق الإنسان من طين ولكن « رضى الله عنهم ورضوا عنه » !

قوله جل ذكره : « وقالوا أَئِذا ضَلَلْنا فى الأرضِ أَئِـنا لفى خلْقٍ جديد بل هم بلقاء ربِّهم كافرون »

لو كانت لهم ذَرَّةٌ من العرفان ، وشَمَّةٌ من الاشتياق ، ونَسْمَةٌ من المحبة لَمَا تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب فى إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال : « بل هم بلقاء ربِّهم كافرون » .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الموتِ الذى وُكِّلَ بكم ثم إلى ربِّكم تُرْجَعون »

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَمَا أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت ؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أَثَرَ منه فى أحدٍ ، ولا له تصرفات فى نَفْسِه ، وما يحصل من التوفِّى فمن خصائص قدرة

---

(١) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٣) آية ٨ سورة البينة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ فخاطبَهم على مقدار فهمهم ، وعَلَّقَ بالأغيار قلوبَهم ، وكلٌّ يُخَاطَبُ بما يَحْتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِه وضعفه .

قوله جل ذكره : « ولو تَرَى إذ المجْرِمون ناكِسُو رءوسِهم عند ربِّهم ربَّنَا أَبْصَرْنا وسَمِعْنا فارجِعْنا نعملْ صالحًا إنَّا موقِنون »

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبتهم الخجْلَةُ ، فاعتذروا حينَ لا عُذْرَ ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف .

قوله جل ذكره : « ولو شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ولكنْ حَقَّ القولُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين »

لو[1] شئنا لَسَهَّلنا سبيلَ الاستدلال ، وأَدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بإغواء قومٍ ، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم ، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان ، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكان ، ولأَنَّا عَلِمْنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ ، فمِنَ المُحَالِ أن نُريدَ ألا يقعَ معلومُنا ، ولو لم يحصل لم يكن عِلماً ، ولو لم يكن ذلك عِلْماً لم نكن إلهاً . . ومن المحال أن نريد ألا نكونَ إلهاً .

ويقال : مَنْ لم يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ فى مُلْكِه ما يكرهه .

ويقال : يا مسكين أفنيتَ عُمْرَكَ فى الكَدِّ والعناء ، وأمضيتَ أيامَكَ فى الجهد والرجاء ، غيَّرت صفتك ، وأكثرتَ مجاهدتك . . فما تفعل فى قضائى كيف تُبَدِّله ؟ وما تصنع فى مشيئتى بأىِّ وسعٍ ترُدُّها ؟ وفى معناه أنشدوا :

شكا إليكَ ما وَجَدَ من خانَهُ فيك الجَلَدْ
حيرانُ لو شئتَ اهتدى ظمآنُ لو شئتَ وَرَدْ

---

(1) هذه الإشارة المستوحاة من الآية تمثل أقصى درجات الجبرية فى مذهب هذا الباحث الصوفى ، ولكن القارىء لا يعزب عنه أن يجدها جبرية ممزوجة بالحب .. ويكفى أنها مرتبطة بمشيئة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نَسِيتُم لقاءَ يومِكُم هذا إنّا نَسِينا كُمْ وذوقوا عذابَ الخُلْدِ بما كنتُم تعملون »

قاسِ من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك ، واخْلُدْ فى دار الخِزى لما أسلفتَه من كفرانك .

قوله جل ذكره : « إنَّما يُؤْمِنُ بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بحمد ربِّهم وهم لا يَسْتَكْبِرون »

التصديقُ والتكذيبُ ضدان ـ والضدان لا يجتمعان ؛ التكذيب هو جحودٌ واستكبار ، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق ، فَمَنْ اتَّصَفَ بأحد القسمين امَّحى عنه الثانى .

« خرُّوا سُجَّداً » : سجدوا بظواهرهم فى المحراب ، وفى سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكْمِ الخمود .

ويقال : كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كمالَ راحتهِ ولا حقيقةَ أُنْسِهِ إلا فى تَذَلُّلِه بين يدى معبوده ، ولا يؤثِرُ آجلَ جحيمه على نعيمه ، ولا شقاءه على شفائه ؟ !

قوله جل ذكره : « تَتجافَى جُنُوبُهم عن المضاجع يَدْعون رَبّهم خوفاً وطَمعاً ومما رزقناهم يُنفِقُون »

فى الظاهر : عن الفِراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد ، وفى الباطن: تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال، ورُؤية قَدْرِ النفس ، وتوهُّمِ المقَام ـــ فإنَّ ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌّ قاتل ـــ فلا يساكنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم . ويفارقون مآلِفَهم ، ويَهجُرون فى الله معارفَهم .

والليل زمان الأحباب ، ، قال تعالى : « لتسكنوا فيه » : يعنى عن كلّ شُغل وحديثٍ سوى حديث محبوبكم . والنهارُ زمانُ أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النّهار معاشاً » ، أولئك قال لهم : « فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض » :

إذا ناجيتمونا فى ركعتين فى الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .

وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إمَّا فى طرَب التلاقى وإما فى حرَب الفراقِ ، فإن كانوا فى أنسِ القربة فلَيْلُهم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارنى مَنْ هَوَيْتُ بعـــد بعادٍ
بوصــــال مُجَـــدَّدٍ ووداد
ليـــلة كاد يلتقى طرفاها
قِصَراً وهى ليـــلة الميعـادِ

وكما قالوا :

وليلةٍ زَيْنُ ليالى الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر
لم تَسْتَبِن عن شفقٍ وفجرِ حتى تولَّت وهى بِكْرُ الدهر

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فلَيْلُهم طويل ، كما قالوا :

كم ليـــلةٍ فيك لا صباحَ لها أفنَيْتُها قابضاً على كبـدى
قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

قوله : يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » : قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً فى الثواب ، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً فى التلاقى ، وآخرون خوفاً من المـكر وطمعاً فى الوَصْلِ .

« ومما رزقناهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذى خصصناهم به ؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الـكدورات حضروا بأحوالٍ مُقَدَّسة ، وإنْ دَنَّسْنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسَة ، « ومما رزقناهم ينفقون » ؛ فالعبدُ إنما يتجر فى البضاعة التى يودعها لديه سَيِّدُه :

يفـــديكَ بالروح صَـــبٌّ لو يكون له
أعـــزّ من روحـــه شىء فـــداك به

قوله جل ذكره : « فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِىَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ جزاء بمـا كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ عينُكَ برؤية مَنْ تحبه ، أو ما تحبه ؛ فطالبْ قلبكَ ورَاعِ حالك ، فيحصل اليومَ سرورُك ، وكذلك غداً . . وعلى ذلك تحشر ؛ ففى الخبر :

« مَنْ كان بحالة لقى الله بها » .

ثم إنّ وصفَ ماقال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ — مُحَالٌ ، اللهم أن يُقال: إنها حال عزيزة ، وصفةٌ جَليلة .

قوله جَل ذكره : « أفمنْ كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون »[1] .

أفمنْ كان فى حال الوصال يَجرّ أذيالَه كمنْ هو فى مَذلةِ الفراق يقاسى وبالَهَ ؟

أفمن كان فى رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو فى هوْل العقوبة يعانى مشقة الكلفة ؟

أفمن هوفى رَوْح إقبالنا عليه كمن هو فى محنة إعراضنا عنه ؟

أفمن بقى معنا كمنْ بقى عَنَّا ؟

أفمنْ هو فى نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو فى ليالى الكفران ووحشة العصيان ؟

أفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربِطَ بالخذلان ووُسم بالحرمان ؟ لا يستويان ولا يلتقيان !

قوله جَل ذكره : « أَما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّاتُ المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » .

« الذين آمنوا » : صدَّقوا ، « وعملوا الصالحات » : بما حَقّقوا — فلهم حُسْنُ الحال ، وحميدُ المآلُ وجزيلُ المنال ، وأَما الذين كذّبوا وجحدوا ، وفى معاملاتهم أساءوا

---

(١) عن ابن عباس : أن الوليد بن عتبة قال لعلى بن أبي طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال علىّ : اسكت فإنما أنت فاسق ... فنزلت الآية (الواحدى ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، فصاراهم الخزىُ والهوان ، وفنونٌ من المحن وألوان .. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً ، وكلما أمَّلوا نجاةً جُرِّعوا وزيدوا يأساً .

قوله جل ذكره : « وَلَنُذِيقَنَّهم من العذابِ الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجِعون » .

قومٌ عذابهم الأدنى مِحَنُ الدنيا ، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العنبى .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم فى عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ فى قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة فى سلوكهم تُنيبهم ، والعذابُ الأكبرُ لهم حجبةٌ عن مشاهدهم تنالهم ، قال قائلهم :

أَدَّبتنى بانصـــرافِ قلبـــك عنِّى
فانظرْ إلىَّ فقد أحســـنت تأديبى[1]

ويقال العذاب الأدنى الخذلان فى الزلة ، والأكبر الهجران فى الوصلة .

ويقال العذاب الأدنى تكدُّرُ مشاربهم بعد صفوها ، كما قالوا :

لقد كان ما بينى زمانا وبينـــه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخِرٍ لها ، كما قيل :

تطاول نأينـــا يا نور حتى كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

قوله جل ذكره : « ومنْ أظلمُ ممنْ ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه ثم أعرضَ عنها إنَّا من المجرمين منتقمون»

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الزَّجر ، وحُرِّكَ — لتركِهِ حدودَ الوفاق — بصنوفٍ من التأديب

(١) الشطر الأول غير موزون ، والشطر الثانى من البسيط .

ثم لم يرتدعْ عن فعله ، واغترّ بطول سلامته ، وأَمِنَ من هواجم مَكْرِه ، وخفايا سِرِّه . . أَخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته . قال تعالى : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون »[1]

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فلا تكن في مِريةٍ من لقائه وجعلناه هُدًى لبني اسرائيل » .

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيتة لنا[2] .

« وجعلناه هدًى لبني إسرائيل » :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جُعِلَ رحمةً للعالمين .

قوله جل ذكره : « وجعلنا منهم أئمةً يهدُون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

لمّا صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا ، وتعدّى مانالوا من أفضالنا إلى مُتّبعيهم ، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهلِهم ؛ فهم للخلْق هُداةٌ ، وفي الدين عيون ، وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره : « إنّ ربك هو يفصل بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون » .

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول ، والمهجور من الموصول ، والرضيّ من

---

(١) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(٢) صرف القشيري الرؤية واللقاء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيلقى ربه ويراه . بينما يرى قتادة أن المقصود : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه — أي محمد — فيها ، كما لقيته ليلة الإسراء . وعن الحسن : فلا تكن — يا محمد — في شك من أنك ستلقى مالقيه من التكذيب والأذى ، فالهاء عائدة على محذوف .

وقيل إن الكلام متصل بقوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت » ... فلا تكن في مرية من لقائه ، وجاءت «ولقد آتينا موسى» اعتراضاً .

الغويّ ، والعـــدو من الوليّ . . . فكم من بهجةٍ دامت هنالك ! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أوَلم يَهْدِ لهم كم أهلَكْنَا مِنْ قبلِهم من القرونِ يمشون فى مساكِنِهم إنّ فى ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون »

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا فى حَبرَةٍ فصاروا عِبْرَةً ، كانوا فى سرورٍ فآلوا إلى ثبور ؛ فجميع ديارهم ومزارِهم صارت لأغيارهم ، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا فى ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعمةٌ كانت على قومٍ زمانا ثم بانت
هكذا النعمةُ والإحسانُ مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أوَلَمْ يَرَوْ أنَّا نسوق الماءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ[1] فَنُخْرِجُ به زَرْعًا تأكل منه أنعامُهم وأنْفُسهم أفلا يبْصِرون »

الإشارة فيه : تُسْقى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عُودِها ، وزوال المأنوسِ من معهودِها ، فيعود عودُها مورِقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الفتحُ إن كنتم صادقين * قلْ يومَ الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانُهم ولا هم يُنْظَرون » .

---

(١) يقول الزمخشرى (الجرز) الأرض التى جزر نباتها أى قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز ، ويدل عليه قوله تعالى «فنخرج به زرعاً» .
وقال عكرمة : هى الأرض الظمأى .
ويحاول بعضهم أن يطلقها على مكان بعينه (ابن عباس : أرض باليمن) ومجاهد : (أرض النيل) .

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه .

قوله جل ذكره : « فَأَعْرِضْ عنهم وانتظرْ إنهم منتظرون » .

أعْرِض عنهم باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا .

« وانتظر » زوائدَ وَصْلِنا ، وعوائدَ لطفنا .

« إنهم منتظرون » هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا .. وعن قريب يجد كلٌّ منتظرَه محتضرًا .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله شهود وجودِه يوجِبُ لكَ تلفاً فى تَلَفٍ ، ووجودُ جودِه يوجِبُ لكَ شرفاً فى شرف ، ففى تَلَفِكَ يكون (هو)[1] عَنْكَ الخَلَف ، وفى شرفك تصل إلى كلِّ لُطَف .

قوله جل ذكره : « يأيها النبىُّ اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعْ الكافرين والمنافقين إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً » .

يأيها المُشَرَّفُ حالاً ، المُفَخَّمُ قَدْراً مِنَّا ، المُعَلَّى رُتْبَةً من قِبَلِنا . . يأيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُّتَبِ بأسنى القُرَبِ . . يأيها المُخَبَّرُ عنا ، المأمونُ على أسرارنا ، المُبَلِّغُ خطابَنا إلى أحبابنا . . . اتقِ اللهَ أنْ تلاحِظَ غيراً معنا ، أو تساكِنَ شيئاً مِنْ دوننا ، أو تُثْبِتَ أحداً سوانا ، أو تَتَوَهَّمَ شظيةً مِنَ الحِدثان مِنْ سوانا . « ولا تطع الكافرين » إشفاقاً منك عليهم ، وطمعاً فى إيمانهم بنا لو وافقتَهم فى شىء أرادوه منك[2] .

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعهم فى أنفاسهم ، وسَكَنَاتِهم ، وحَرَكَاتِهم أن ينظروا إلى غيره — أو يُثْبِتوا معه غيره — إلا منصوباً لقدرته ، مصرَّفاً بمشيئته ، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته .

---

(١) وضعنا (هو) من عندنا ليتضح المعنى كما نفهم من أسلوب القشيرى فى مثل هذا المجال .

(٢) يقال نزلت هذه الآية حينما دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعور السلمى على النبى (ص) بعد قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا للرسول : «أرفض ذكر آلهتنا ، وقل إن لها شفاعة ومَنَعَة وندعك وربك» فشق على النبى (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب – وكان بصحبة النبى : ائذن لى يا رسول الله فى قتلهم ، فقال النبى : إنى قد أعطيتهم الأمان . . . وأمر بإخراجهم من المدينة . (الواحدى ص ٣٦) .

التقوى لجـامٌ يكبحك عمّاً لا يجوز ، زمامٌ يقودك إلى ما تحب ، سوطٌ يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به ، شاخصٌ يحملك على القيام بحقِّ الله ، حِرْزٌ يعصمك مِنْ توَصل أعدائك إليك ، عُوذَةٌ تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلةٌ إلى ساحات كرَمه ، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عفوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتّبِـعْ ما يوحى إليكَ مِنْ ربك إنّ اللهَ كان بمـا تعملون خبيراً » .

اتبعْ وَلا تبتدع ، وَاقتدِ بمـــا نأمرك به ، وَلا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك ، وَلا تُعرِّج فى أوطان الـكسل ، ولا تجنحْ إلى ناحية التوانى ، وكن لنا لا لكَ ، وقم بنا لا بِكَ .

قوْله جل ذكره : « وتوكلْ على اللهِ وكــفى بالله وكيلا » .

انسلخْ عن إهابك ، واصدق فى إيابك إلينا ، وتشاغلْ عن حسبانك معنا ، واحـذرْ ذهابَكَ عنا ، وَلا تُقَصِّرْ فى خطابك معنا .

وَيقال التوكل تحقُّقٌ ثم تخَلُّقٌ ثم توثق ثم تملق ؛ تحقُّقٌ فى العقيدة ، وَتخلقٌ بإقامة الشريعة ، وتوثق بالمقسوم من القضية ، وَتملقٌ بين يديه بحُسْنِ العبودية .

ويقال التوكلُ تحققٌ وتعلقٌ وتخلقٌ ؛ تحققٌ بالله وتعلقٌ بالله ثم تخلقٌ بأوامر الله .

وَيقال التوَكل استواء القلب فى العدم والوجود .

قوله جل ذكره : « ماجعلَ الله لرَجُلٍ مِنْ قلبين فى جوفه » .

القلبُ إذا اشتغل بشىء شُغِلَ عما سوَاه ، فالمشتغلُ بمـا مِنَ العَدَمِ منفصِلٌ عمن له القِدَمُ ، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغلٌ عمَّا من العدَم . والليل والنهار لايجتمعان ، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائى تُظَاهرُون

منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم
أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم » .

اللائى تظاهرتم[1] منهن لسن أمهاتكم ، والذين تبنيتم ليسوا بأبنائكم ، وإن الذى صرتم إليه من افترائكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردودٌ عليكم ، غيرُ مقبولٍ منكم ، وإنْ أمسكتم عنه بعد البيان نجوْتم ، وإنْ تمادَيتم بعد ما أعلِمتم أطلت المحنةُ عليكم .

قوْله جل ذكره : « أدْعوهم لآبائهم هو أقسطُ
عند اللهِ فإنْ لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم
فى الدِّين ومواليكم وليس عليكم
جُناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَّدَتْ
قلوبُكم وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

راعُوا أنسابهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوّةُ فى الدِّين تجمعكم ، وقرابةُ الدِّين والشكلية أوْلى من قرابة النَّسبِ ، كما قالوا :

وقالوا قريبٌ من أبٍ وعمومةٍ
فقلتُ : وإخوانُ الصفاء الأقاربُ
يُناسبهم شكلا وعِلْماً وألفةً
وإن باعدتهم فى الأصول المناسبُ

قوله جل ذكره : « النبيُّ أوْلى بالمؤمنين منْ أنفسهم
وأزواجُه أمهاتهم ، وأولو الأرحام
بعضهم أوْلى ببعض فى كتابِ اللهِ
من المؤمنين والمهاجرين . . »

---

(1) يعنى أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، وسيأتى تفصيل ذلك فى سورة المجادلة (المجلد السادس من هذا الكتاب) .

الإشارة من هذا : تقديم سُنته على هواك ، والوقوفُ عند إشارته دون ما يتعلقُ به مُناك ، وإيثار مَنْ تتوسل به سبباً ونسباً على أعِزَّتِكَ ومَنْ والاكَ .

« وأولو الأرحَام بعضهم أوْلَى ببعض » :

ليَكنْ الأجانبُ منك على جانب ، ولتكن صلتك بالأقارب . وصلةُ الرحِم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار ، ولكن بموافقة القلوب ، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب :

أروَاحنا فى مكانٍ وَاحدٍ وَغدتْ
أشباحُنا بشآمٍ[٢] أو خراسان

قوله جل ذكره : « وإذْ أخذْنا من النبيين ميثاقَهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأَخذنَا منهم ميثاقا غليظاً » .

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج الذرية من صُلب آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكلِّ . ثم عند بَعْثِ كلِّ رسول ونُبُوَّةِ كلِّ نبيٍّ أَخذ ميثاقه ، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام ، وقد استخلص اللهُ سبحانه نبيَّنا عليه السلام ، فأسمعه كلامَه — بلا واسطة — ليلةَ المعراج . وكذلك موسى عليه السلام - أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا - صلى الله عليه وسلم - زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية[١] .

ثم أخذ المواثيق من العُبَّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكلٍّ من الأنبياء والأولياء والأكابر على مايُؤَهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « لقد كان فى الأمم

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (بعراق)

(٢) فى كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعرى جواز ذلك ، أما القشيرى : فبينما يشير هنا إلى ذلك إذ به كما سيأتى فى بسملة سورة البروج يقول : «بسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً مختلف فيه» (المجلد السادس هذا الكتاب) .

مُحَدَّثون فإن يكن فى أمتى فعُمَر » وغيرُ عمر مشارِكٌ لعمر فى خواص كثيرة ، وذلك شىء يتمّ بينهم وبين ربِّهم .

قوله جلّ ذكره : « ليسألَ الصادقين عن صِدْقهم
وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً » .

يسألهم سؤالَ تشريفٍ لا سؤال تعنيف ، وسؤالَ إيجابٍ لا سؤال عتاب . والصدقُ ألّا يكونَ فى أحوالِكَ شَوْبٌ ولا فى اعتقادك رَيْبٌ ، ولا فى أعمالك عَيْبٌ . ويقال من أمارات الصدق فى المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق . والصدقُ فى الأحوال تصفيتُها من غير مداخلة إعجاب .

والصدق فى الأقوال سلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس التباعدُ عن التلبيس ، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرِّى من الحَوْلِ والقوة ، ومواصلة الاستعانة[1] ، وحفظ العهود معه على الدوام .

والصدق فى التوكل عَدَمُ الانزعاج عند الفَقْدِ ، وزوال الاستبشار بالوجود[2] .

والصدق فى الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة وكثيرها ، وألا تتركَ ذلك لِفَزَعٍ أو لِطَمَعٍ ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْقِى ، وتتصف بما تأمر ، وتنهى (نَفْسَك)[3] عما تَزْجُر .

ويقال الصدق أن يهتدى إليكَ كلُّ أحد ، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد . ويقال الصدق ألا تجنحَ إلى التأويلات[4] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الاستغاثة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) هكذا فى ص و م وربما كانت (الموجود) إذ نحسب أن مقصد القشيرى أن تكون راضياً إذا فقدت أو وجدت ، وفى ذلك يقول عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود) الرسالة ص ٨١ والشاكر الذى يشكر على (الموجود) والشكور الذى يشكر على المفقود (الرسالة ص ٨٩) . ومع ذلك فقد وردت (الوجود) فى قول النورى : الصوفى نعته السكون عند العدم والإيثار عند الوجود ... فالوجود بهذا المعنى ضد العدم ؛ أى وجود الأشياء وفقدانها . ولكننا نفضل أن يقتصر اصطلاح (الوجود) على الدرجة القصوى بعد التواجد والوجد ، وهو للحق . (الرسالة ص ٣٦ و ٣٧) وأنظر أيضا تفسير القشيرى للآية ٣٩ سورة سبأ (فى هذا المجلد)

(٣) وضعنا (نفسك) من عندنا ليتضح المعنى .

(٤) معروف أن القشيرى يكره التأويلات المؤدية إلى الاسترخاص بالنسبة للصوفية .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ
عليكم إذ جاءتْكم جنودٌ فأرسَلْنا عليهم
ريحاً وجنوداً لم ترَوْها وكان اللهُ بما
تعملون بصيراً » .

ذكرُ نعمةِ اللهِ مُقابَلَتُها بالشكر ، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساةُ البلاءِ فى الحال ، ولو تذكرتَ ما أولاكَ فى الماضى لَقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ فى إيصال ما تؤمِّلُه فى المستقبل .

ومن جملة ماذكَّرهم به :[1] « إذ جاءتْكم جنودٌ ... » كم بلاءٍ صَرَفَه عن العبدِ وهو لم يشعر ! وكم شُغْلٍ كان يقصده فصدَّه عنه ولم يعلم ! وكم أمرٍ عَوَّقَه والعبدُ يَضِجُّ وهو — (سبحانه) — يعلم أن فى تيسيره له هلاكَ العبد فمَنَعَه منه رحمةً به ، والعبدُ يتَّهِمُ ويضيق صَدْرُه بذلك !

قوله جل ذكره : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ
منكم وإذ زاغَتْ الأبصارُ وبَلَغَتْ
القلوبُ الحناجِرَ وتظنون باللهِ الظنونا »

أحاط بهم سُرَادقُ البلاء ، وأحدقَ بهم عَسْكرُ العدوِّ ، واستسلموا للاجتياح ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتَقَسَّمَتْ الظنونُ ، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياب ، وبدا فى سويدائهم جَوَلانُ الشكِّ .

« هنالك ابتُـلِىَ المؤمنون وزُلْزِلوا
زلْزالاً شديداً » .

ثم أزال عنهم جملتها ، وقَشَعَ عنهم شِدَّتَها ، فانجاب عنهم سحابُها ، وتفرَّقَتْ عن قلوبهم همومُها ، وتفجَّرَتْ ينابيعُ سكينتهم .

---

(١) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنده (نِعَم المنع) وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنح) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتخفى عليه تلك .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللهُ ورسوله
إلّا غروراً » .

صَرَّحوا بالتكذيب — لما انطوت عليه قلوبُهم — حين وجدوا للمقال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لكم فارجعوا ويستأذِنُ
فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنَّ بيوتَنا
عورةٌ وما هى بعورة إنْ يُرِيدون
إلّا فِراراً » .

تواصَوْا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينُهم من وشك ظَفَرِ الأعداء . قوله : « ويستأذن فريق . . . » : يتعلّلون[1] بانكشافِ بيوتهم وضياعِ مُخَلَّفَاتِهم ، ويكذبون فيما أظهروه عُذْراً ، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهم وقلةُ يقينهم .

قوله جلّ ذكره : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
لا يُولُون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا »

وَلَكن لما عزم الأمر ، وظهر الجدّ لم يساعدهم الصدقُ ، ولم يذكروا أنهم سَيُسْأَلون عن عهدهم ، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ لن ينفعكم الفرارُ إنْ فررتم
من الموتِ أو القتل وإذاً لا تُمتعون
إلا قليلاً » .

لأنّ الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديم عليها ، وكما قالوا : « إنّ الهاربَ عمّا هو كائن فى كفّ الطالب يتقلبُ » .

« وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً » : فإنّ ما يدّخرُه العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ أو نفيسٍ أو قريب لا يُبارَك له فيه ، ولا يجدُ به مَنعَةً ، ولا يُرزقُ منه غبطة .

(١) يغمز القشيرى هنا — من بعيد — بالمتعللين فى الطريق بعلل الاستر خاص ودعاوى النفس .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَنْ ذا الذى يعصمكم من
اللهِ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم
رحمةً ولا يجدون لهم من دون اللهِ
وليًّا ولا نصيراً » .

من الذى يحققُ لكم منْ دونه مَرْجُوًّا ؟ ومن الذى يَصرف عنكم دونه عَدُوًّا ؟.

قوله جل ذكره : « قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم والقائلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأسَ
إلا قليلاً » .

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصرة النبى عليه السلام ، ويمنعون غيرهم ليكونَ جمعُهم أكثرَ وكيدُهم أخفى ، وهم لا يعلمون أنّ الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام عليهم ثم ذَكَرَ وَصْفَهم فقال :ـ

« أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ
رأيتَهم ينظرون إليكَ تدور أعينهم
كالذى يُغشى عليه من الموتِ فإذا
ذهبَ الخوفُ سَلقوكم بألسنةٍ حِداد »

إذا جاء الخوفُ طاشتْ من الرعبِ عقولُهم ، وطاحت بصائرهم ، وتعطلت عن النصرة جميعُ أعضائهم . وإذا ذَهبَ الخوْفُ زَيَّنوا كلامَهم ، وقدّموا خداعهم ، وَاحتالوا فى أحقاد خستهم ... أولئك هذه صفاتهم ؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبَهم ، ولا صدقوا فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم .

قوْله جلّ ذكره : « يَحْسَبُون الأحزابَ لم يذْهبوا
وَإِنْ يأتِ الأحزابُ يوَدّوا لو أنهم
بادُون فى الأعرابِ يسألون عن أنبائكم
وَلو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً » .

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا ، ويخافون من عَوْدهم ، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم

إذا وَقعوا على آثارهم ، ولوْ اتفق هجومُ الأعداء عليكم ما كانوا إلا فى حرز سيوفهم وَدرِيّةَ[1] رماحهم .

قوله جلّ ذكره : « لقد كان لـكم فى رسولِ اللهِ
أُسوةٌ حسنةٌ لمنْ كان يرجو اللهَ
واليومَ الآخِرَ وذكرَ الله كثيراً » .

« كان » صلة ومعناها : لـكم فى رسول الله أسوة حسنة ، به قدْوتكم ، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لـكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب إلى أن يقومَ دليل التخصيص ، فأما أحْواله فلا سبيلَ لأحدٍ إلى الإشراف عليها ، فإن ظَهرَ شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مُكْتَسَباً مِنْ قِبَلِه فيُلحق فى الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله ، وإن كان غير مكتسبٍ له فهى خصوصيةٌ له لا ينبغى لأحد أن يتعرّض لمقابلته لاختصاصه — صلى الله عليه وسلم — بعلوِّ رتبته[2] .

قوله جلّ ذكره : « ولما رأى المؤمنون الأحْزابَ
قالوا هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ وصَدَقَ
الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وَتسليما »

كما أنّ المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء ، فالمؤمنون وأهلُ اليقين ازدادوا ثِقَةً ، وعلى الأعداء جرأةً ، ولحكم الله استسلاماً ، ومن الله قوةً .

قوله جل ذكره : « من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ماعاهدوا
الله عليه فمنهم منْ قضى نحبه ومنهم
منْ ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

شَكَرَ صنيعَهم فى المراس ، ومدح يقينهم عند شهود الباس ، وسماهم رجالاً إثباتا

---

(١) الدرية ما يستتر به الصائد من الصيد فيرميه إذا أمكنه .

(٢) يفيد هذا الكلام فى توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنّة كمصدر أساسى من مصادر التشريع ، فالسُّنّة أقوال وأفعال وأحوال ، منها ما يصلح للعموم ، ومنها ما يختص به الرسول نَفْسُه .

لخصوصية رتبتهم[1] ، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوِّ الحالة والمنزلة ، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صِدْقه[2] ، ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله فى الحياة والممات ، ولم يزيغوا عن عهدهم ، ولم يراوغوا فى مراعاة حدِّهم ؛ فحقيقةُ الصدقِ حِفْظُ العهْد وتَرْكُ مجاوزة الحدِّ .

ويقال : الصـــدقُ استواء الجهر والسِّرِّ .

ويقال : هو الثباتُ عندما يكون الأمرُ جِدًّا .

قوله جـــل ذكره : « لِيَجْزِىَ اللهُ الصادقين بصدْقهم
ويُعذِّبَ المنافقين إن شـاء أو يتوبَ
عليهم إن الله كان غفوراً رحيما » .

فى الدنيا يجزى الصادِقين بالتمـكين والنصرة على العـدو وإعلاء الراية ، وفى الآخرة بجميلِ الثواب وجزيلِ المـآب والخـلودِ فى النعيم المقيم والتقـديمِ على الأمثال بالتـكريم والتعظيم . .

« ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » على الوجْه الذى سَبق به العلم ، وَتَعلَّقتْ به المشيئة .

ويقال : إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعَلَّقَ القولَ فيه بالرجاء فبالحرىّ ألا يُخَيِّبَ المؤمنَ فى رجائه .

قوله جل ذكره : « ورَدَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم
ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ
وكان اللهُ قوياً عزيزاً » .

لم يُشمتْ بالمسلمين عَدُوًّا ، ولم يُوصِّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءًا ، ووضع كيدهم فى نحورهم ، واجتثَّهم مِنْ أصولهم ، وبيَّن بذلك جواهر صِدْقهم وغير صدقهم ، وشكَر مَنْ استوجب شكره مِنْ جملتهم ، وفضحَ مَنْ استحقّ الذمّ من المدلسِّين منهم .

---

(١) «من المؤمنين رجال ..» : عن أنس أنها نزلت فى عمه أنس بن النضير الذى أبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ، حتى قتل وبه ثمانون جراحة بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم .. رواه البخارى عن بندار ، ومسلم عن محمد بن حاتم .

(٢) «فمنهم من قضى نحبه» نزلت فى طلحة بن عبيد الذى ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الواحدى ص ٢٣٨) .

« وأنزل الذين ظاهروهم مِنْ أهل الكتاب مِنْ صَيَاصيهم وقذفَ فى قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً » .

إنّ الحقَّ — سبحانه — إذا أَجمل أكمَل ، وإذا شفى كفى ، وَإذا وَفى أوْفى .. فأظفر المسلمين عليهم ، وأورثهم معاقلَهم ، وأذلّ مُتعزِّزَهم ، وكفاهم بكلِّ وجهٍ أمرَهم ، ومكَّنهم من قَتْلِهم وأَسرِهم ونَهْبِ أموالهم ، وسَبْى ذراريهم .

قوله جل ذكره : « يا أيهَا النبىّ قُل لأزواجِك إنْ كنْتنّ تُرِدْن الحياةَ الدنيا وزينتَهَا فَتعَالين أُمتعكنّ وأُسرِّحكنّ سراحاً جميلا * وإن كنتنّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن اللهَ اعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيما » .

لم يُرِدْ أنْ يكونَ قلبُ أحد من المؤمنين والمؤمنات منه فى شُغل ، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب ، فَخَيَّرَ — صلى الله عليه وسلم — نساءه[1] ، ووفقَ اللهُ سبحانه عائشةَ أمّ المؤمنين — رضى الله عنها — حتى أخبرت عن صِدْقِ[2] قلبها ، وكمالِ دينها ويقينها ، (وبمـا هو المنتظر مِنْ أصلها وتربيتها)[3] ، والباقى جرَيْن على منهاجها ، ونَسَجْنَ على مِنوالها .

قوله جلّ ذكره : « يا نساء النبىِّ منْ يأتِ منكنّ

(١) يقال إنه قال لعائشة : إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن لاتعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، ثم قرأ عليها القرآن ، فقالت : أفى هذا أستأمرُ أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسولَه والدارَ الآخرة . فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (كذب) وهى خطأ قطعاً .

(٣) مابين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

بفاحشة مُبَيِّنَة يُضاعَفْ لهـا العذابُ
ضِعفَـين وكان ذلك على اللهِ يسيراً » .

زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أمارات الفضيلة ، ولذا فضل حدُّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النقص ؛ فلما كانت منزلتُهن فى الشرف تزيد على منزلة جميـع النساء ضاعَفَ عقوبتهن على أجْرامهن ، وضاعف ثوابَهن على طاعاتِهن . وقال :

« ومنْ يَقْنُتْ منكُنَّ لله ورسولِه
وتَعمَلَّ صالحـا نُؤْتِها أَجْرَها مرّتَين
واعتّدنا لها رِزقا كريما » .

ثم قال :

« يا نساء النبيِّ لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساء
إن اتقَيْتُنَّ فلا تخضعنَ بالقولِ فيطمعَ
الذى فى قلبـه مرَضٌ وقُلْنَ قولا
معروفا » .

نهاهن عن التبذُّل ، وأمَرَهُنَّ بمراعاةِ حُرْمَةِ الرسول (ص) ، والتصاون عن تَطَمُّعِ المنافقين فى مُلاينتهن .

قوله جل ذكره : « وقَرْن فى بيوتكُنَّ ولا تبرَّجنَ
تبرُّجَ الجـاهليةِ الأولى وأَقِمْنَ الصلاة
وآتين الزكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسـولَه
إنمـا يريد اللهُ ليُذْهِبَ عنكم
الرجـسَ أهـلَ البيتِ ويُطَهِّرَكم
تطهيراً » .

« الرجس » : الأفعالُ الخبيثةُ والأخلاقُ الدنيئة ؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهرَ منها وَما بطن ، وما قلّ وما جلّ . والأخْلاقُ الدنيئةُ الأهواء والبِدَعُ كالبخل والشحِّ

وقَطْعِ الرَّحِمِ ، ويريد بهم الأخلاقَ الكريمةَ كالجُودِ والإيثار والسخاء وصِلَةِ الرَّحِمِ ، ويديم لهم التوفيقَ والعصمةَ والتسديد ، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب .

قوله جل ذكره : « واذكُرْن ما يُتلَى فى بيوتكنّ من آياتِ الله والحكمة إنّ اللهَ كان لطيفا خبيراً » .

أذكُرْنَ عظيمَ النعمة وجليلَ الحالةِ التى تجرى فى بيوتكن ؛ من نزولِ الوحى ومجىء الملائكة ، وحُرْمَةِ الرسول — صلى الله عليه وسلم — والنور الذى يقتبس فى الآفاق ، ونور الشمس الذى يَنبسط على العالم ، فاعرفن[1] هذه النعمة ، وَارعين هذه الُحرمة .

قوله جل ذكره : « إن المسلمين والمسلمات . . . »

الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والمبالغة فى المجاهدة والمكابدة .

« والمؤمنين والمؤمنات . . . »

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات ، ويقال هو التصديق والتحقيق ، ويقال هو انتسامُ الحقيقةِ فى القلب . ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل ، ولقومٍ بالعلم ، ولآخرين بالفهم عن الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالمعرفة ، ولآخرين إيمانُهم حَياةُ قلوبهم بالله .

« والقانتين والقانتات . . . »

القنوتُ طولُ العبادة .

« والصادقين والصادقات . . . »

فى عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

---

(١) عرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وبهذه المناسبة أكشف للقارىء عن شىء حيرنى دهراً طويلا حينما كنت أقرأ فائية ابن الفارض التى أولها :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى   روحى فداك عرفت أم لم تعرف

فطالما أزعجنى الشطر الثانى من هذا البيت ؛ لأنى كنت أربط بين عرف وبين علم . فكنت أسائل نفسى كيف يخاطب ابن الفارض ربه على هذا النحو ؟ حتى اهتديت إلى أن المعنى : أننى سأفتديك بروحى حتى ولو تلفتُ فى ذلك ، وسأبقى عليه ، سواء ذكرت لى ما أصنع ، واحتسبته .. أم لم تفعل .

« والصابرين والصابرات .. »

على الخصال الحميدة ، وعن الصفات الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية .

« والخاشعين والخاشعات .. » .

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوادِه الحقيقة .

« والمتصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم[1] .

« والصائمين والصائمات .. »

الممسكين عمَّا لا يجوز فى الشريعة والطريقة .

« والحافظين فروجَهم والحافظات .. »

فى الظاهر عن الحرام ، وفى الإشارة عن جميع الآثام .

«والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات..»

بألسنتهم وقلوبهم وفى عموم أحوالهم لا يَفْتُرون ، ولا يَتَدَاخَلُهم نسيان .

« أعدَّ اللهُ لهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيماً » .

فهؤلاء لهم جميلُ الحُسْنَى ، وجزيلُ العُقْبَى .

قوله جل ذكره : « وما كان لِمُؤْمِن ولا مُؤْمِنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمْرِهم ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً » .

الافتياتُ عليه فى أمره والاعتراضُ عليه فى حُكْمِه وتَرْكُ الانقيادِ لإشارته .. فَرْعٌ لباب الشِّرْكِ ؛ فَمَنْ لم يُمْسِكْ عنه سريعاً وَقَعَ فى وهدته .

قوله جل ذكره : « وإذ تقول للذى أنعم اللهُ عليه وأنعمْتَ

(١) وهذا من أمارات الفُتُوَّة (أنظر الرسالة ص ١١٣)..

عليه أَمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتقِ اللهَ وتُخْفِي فى نفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه وتَخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه فلماَّ قضى زيدٌ منها وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لكى لا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهن وَطَرًا وكان أَمْرُ اللهِ مفعولاً » .

أنعم اللهُ عليه بأن ذَكَرَه وأفرده من بين الصحابة باسمه .

ويقال : أنعم اللهُ عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيكَ له . ويقال : بأن أَعْتَقْتَه ، ويقال : بالإيمان والمعرفة . وأَنْعَمْتَ عليه بالعتق وبأن تَبَنَّيْتَه . « أَمْسِكْ عليكَ زوجكَ » إقامةً للشريعة مع عِلْمِك بأن الأمر فى العاقبة إلى ماذا يئول ؛ فإنَّ اللهَ أَطْلَعَكَ عليه ، وقلت له : « اتق .. » .
قوله : « وتخفى فى نفسك ما اللهُ مُبْدِيه » : أى لم تُظْهِرْ لهم أَنَّ اللهَ عَرَّفَكَ ما يكون من الأمر فى المستأنف .

« وتخفى فى نفسك .. » مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجهٍ لا يَحِلُّ . « وتخشى الناس.. » أى وتخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة من قصة زيد ، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منكَ عليهم ، ورحمةً بهم .

ويقال : وتستحى من الناسِ — واللهُ أحقُّ أن تَستَحِيَ منه .

ويقال : تخشى الناسَ ألا يطيقوا سماعَ هذه الحالة ولا يَقْوَوْا على تَحَمُّلِها ، فربما يخطر ببالهم ما يَنْفى عنهم وُسْعَهم .

« فلماَّ قضى زيدٌ منها وَطَراً زوجناكها .. » لكى لا يكونَ عليكَ حَرَجٌ ، ولكى لا يكونَ على المؤمنين حرج فى الزواج بزوجات أدعيائهم ، فإنما ذلك يُحَرَّمُ فى الابن إذا كان من الصُّلْبِ .

« وكان أمرُ اللهِ قَدَرَاً مقدوراً » .

لايُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد . وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ لكونه معصوماً .

قوله جل ذكره : « الذين يُبَلِّغون رسالاتِ اللهِ ويَخْشَوْنَه
ولا يَخْشَوْن أحداً إلا اللهَ وكفى باللهِ
حسيبًا » .

« ويخشونه » : علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ عَلِموا أنه لا شيء لأحدٍ مِنْ دونه .

قوله جل ذكره : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ مِن رجالِكم
ولكن رسولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبِيِّين
وكان اللهُ بكلِّ شيء عليماً » .

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بأبيكم .

ويقال نَسَبُه ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعْرَفُ بِي لا بنَسَبِه ؛ فقلمَّا يقال : محمدُ بن عبد الله ، ولكن إلى أبد الأبد يقال : محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ — بعد لا إله إلا الله — محمدٌ رسولُ الله .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا آذكروا اللهَ ذكْراً
كثيراً * وسَبِّحُوه بُكْرَةً وأصيلاً »

الإشارة فيه أَحِبُّوا الله ؛ لأنَّ النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره » فيجب أن تقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال : اذكروا الله بقلوبكم ؛ فإنَّ الذكرَ الذى تمكن استدامته ذكرُ القلب ؛ فأمّا ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْرَمَداً كالمتعذر .

« وسبِّحوه بكرةً وأصيلا » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذَكَرَه بلفظين لئلا تعتريك سآمة[1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُصَلِّى عليكم وملائكتُه
ليُخْرِجَكم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ
وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاةُ فى الأصلِ الدعاء[2] ؛ فصلاتُه — سبحانه — دعاؤه لنا بالتقريب ، وصلاةُ الملائكة دعاؤهم إليه لنا : بالغفرانِ للعاصى ، وبالإحسانِ للمطيع .

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة

« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يعصمكم من الضلال بَرْوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر فى قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال يصونكم من الشِّرْكِ ، ويُثَبِّتُكم بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهم يومَ يَلْقَونَه سلامٌ ،
وأعدَّ لهم أجراً كريمًا » .

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية ، واللقاء إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر .

والسلام خطاب يفاتَح به الملوك إخباراً عن عُلُوِّ شأنهم ورتبتهم ، فإلقاؤه حاصِلٌ وخطابُه

---

(١) هذه لفتة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنه (نعم المنع) ، وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنح) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتخفى عليه تلك .

مسموعٌ ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر[1] .

« أجراً كريماً » : الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة ، وكريماً أى حسناً .

وفى الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير ؛ فإنَّ الكريم لا يستقصى عند البيع والشراء فى الأعداد ، وذلك تعريفٌ بالإحسانِ السابق فى وقت غيبتك[2] .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً * وداعياً إلى اللهِ بإذنه وسراجاً منيراً * وبَشِّرْ المؤمنين بأنَّ لهم من اللهِ فضلاً كبيراً » .

يأيها المُشَرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا ، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا ، وتحذِّرُ من مخالفة أَمْرِنا ، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف مِنَّا ، وداعياً إلينا بنا ، وسراجاً يستضيئون به ، وشمساً ينبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بك ، فلا يصل إلينا إلاَّ مَنْ اتَّبعَكَ وخَدَمَك ، وصَدَّقَك وقَدَّمَك .

« وبَشِّرْ المؤمنين » بفضلِنا معهم ، ونَيْلِهم طَوْلَنا عليهم ، وإحسانِنا إليهم . ومَنْ لم تُؤَثِّرْ فيه بَرَكَةُ إيمانه بك فلا قَدْرَ له عندنا .

قوله جل ذكره : « ولا تُطِعْ الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتَوَكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً » .

لا توافِقْ مَنْ أعرضنا عنه ، وأضللنا به من أهلَ الكفر والنفاق ، وأهل البِدَع والشّقاق . وتوكلْ على الله بدوام الانقطاع إليه ، وكفى بالله وكيلا .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذى يتحمس له القشيرى وهو الرؤية العيانية للحق فى الآخرة .

(٢) يقصد القشيرى : أولئك الذين أحسن الله إليهم فى سابق علمه ، وهم ما زالوا فى كتم العدم — على حد تعبيره فى مواضع مناظرة .

المؤمنات ثم طلّقتموهنّ من قبل أن
تمسّوهنّ فما لكم عليهن من عِدّةٍ
تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً
جميلاً » .

إذا آثرتم فراقهنّ فمتّعوهن ليكونَ لهن عنكم تذكرة فى أيام الفرقة فى أوائلها إلى أن تتوطّنَ نفوسُهن على الفرقة .

« وسرحوهن سراحاً جميلاً » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئاً تخلّفتم به معهن ، فلا تجمعوا عليهن الفراقَ بالحال والإضرارَ من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إنّا أحللنا لكَ أزواجَكَ
اللاتى آتيتَ أجورَهُنَّ وما ملكتْ
يمينُك مما أفاءَ اللهُ عليكَ وبنات عمِّكَ
وبناتِ عمّاتِكَ وبناتِ خالِكَ . . . . .
غفوراً رحيماً » .

وسّعْنا الأمرَ عليكَ فى باب النكاح بكم شئتَ ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الحيْفِ عليهن . والتّوْسِعةُ فى بابِ النكاحَ تَدُلُّ على الفضيلة كالحرِّ والعبد .

« تُرْجِي مَنْ تَشاء منهنَّ وتُؤْى إليكَ
مَنْ تشاء ومَنْ ابتغيتَ مِمَّنْ عزلْتَ
فلا جُناحَ عليكَ ذلكَ أدْنَى أنْ تقرَّ
أعينُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ ويرْضَيْنَ بما آتيتَهنَّ
كُلُّهُنَّ واللهُ يعلم ... » .

« مَنْ تشاء » : على ما تتعلّق به إرادتُك ، ويقع عليه اختيارُك ، فلا حَرَجَ عليكَ ولا جُنَاح .

« لا يَحِلُّ لكَ النساءُ من بَعْدُ ولا أَنْ
تَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعْجَبَكَ
حُسْنُهنَّ إلا ما مَلَكَتْ يمينُكَ وكان
اللهُ على كلِّ شيءٍ رقيباً » .

لمَّا اخْتَرْتَهُنَّ أثبت اللهُ لهن حُرْمة ، فقال : « لا يحل لك النساء من بعد » فكما اخترْنَكَ فلا تَخْتَرْ عليهن امرأةً أخرى تطييباً لقلوبهن ، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن ، وهذا يدل على كَرَمِه — والحِفَاظُ كَرَمٌ ودَيْنٌ[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تَدْخُلوا بيوتَ
النبيِّ إلاَّ أنْ يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ
غيرَ ناظرين إناَهُ ولكنْ إذا دُعِيتُم
فادخلوا ... » الآية .

أمَرَهم بحفظ الأدب فى الاستئذان ، ومراعاة الوقت ، ووجوب الاحترام ؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب ، وحِفْظِ أحكام تلك الحضرة ، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ، ولا تتغافلوا عنكم ، ولا يَمْنَعَنَّكم حُسْنُ خُلُقِه من حِفْظِ الأدب ، ولا يحملنَّكم فرطُ احتشامِه على إبرامه[2] .

« فإذا طَعِمْتُم فانتشروا ولامستأنسين لحديثٍ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم » : حُسْنُ خُلُقِه — صلى الله عليه وسلم — جرَّهم إلى المباسطة معه ، حتى أنزل اللهُ هذه الآية .

« وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن » : نَقَلَهم عن مألوفِ العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة ، وبَيَّنَ أن البَشَرَ بَشَرٌ — وإن كانوا من الصحابة ، فقال :

« ذلك أطْهَرُ لقلوبكم وقلوبِهِنَّ »

---

(١) ضبطناها هكذا (دين) بفتح الدال وتسكين الياء فبها يستقيم المعنى ويقوى السياق .

(٢) أى إضجاره وإملاله .

فلا ينبغى لأحدٍ أن يأمن نفسه — ولهذا يُشَدَّدُ الأمرُ فى الشريعة بألا يخلوَ رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَة .

« وما كان لكم أنْ تُؤْذُوا رسولَ اللهِ ولا أنْ تنكحوا أزواجَه مِن بَعْدِه أبداً إنَّ ذلكم كان عند اللهِ عظيماً[1] » .

وهذا من خصائصه — صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئًا من هذا ، فيهتم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنَّ بغيرهن بعد وفاته — وإنْ كان التحرُّزُ عنه — وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ — أتمَّ وأعلى .

قوله جل ذكره : « إنْ تُبْدُوا شيئًا أو تُخْفُوه فإن اللهَ كان بكلِّ شىءٍ عليماً » .

حِفْظُ القلبِ مع الله ، ومراعاةُ الأمر — بينه وبين الله — على الصِّحَةِ فى دوام الأوقات لا يَقْوى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جُنَاحَ عليهنَّ فى آبائهنَّ ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء إخوانهنَّ ، ولا أبناء أخواتهنَّ ولا نسائهنَّ ... » الآية .

لما نزلت آيةَ الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال فى الاستتار ، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية للرخصة فى نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

---

(١) يستند القرطبى إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيرى — ابن القشيرى صاحب هذا الكتاب — عن ابن عباس الذى يقول : قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع الرسول على حراء — فى نفسه — لو توفى الرسول لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . ولكن هذا الرجل ندم على ما حدثت به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وكَفَّرَ بالتصدق وعتق الرقيق . (القرطبى ج١٤ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبيِّ يأيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليماً » .

أراد الله — سبحانه — أن تكون للأمة عنده — صلى الله عليه وسلّم — يَدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يَدُ نعمةٍ ، فأَمَرَهم بالصلاة عليه ، ثم كافأ — سبحانه عنه ؛ فقال صلى الله علية وسلم : مَنْ صَلّى عليَّ مرةً صلى اللهُ عليه عشر مرات . وفى هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغنى عن الزيادة من الله فى وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبةَ فوق رتبةِ الرسولِ ، وقد احتاج إلى زيادةِ صلوات الأُمَّةِ عليه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُؤْذون اللهَ ورسولَه لَعَنَهم اللهُ فى الدنيا والآخِرة وأَعَدَّ لهم عذاباً مُهيناً * والذين يُؤْذون المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهْتاناً وإثماً مُبيناً » .

يُؤْذون اللهَ ورسولَه بعمل المعاصى التى يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أولياءه . ولمَّا قال : مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله ، فكذلك مَنْ آذى رسولَه وأنبياءه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبتهم .

ثم ذكر قوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إيذاء الرسولِ مقروناً بما ذكر من إيذاء الله ، ثم ذكر إيذاء المؤمنين ، ويدلُّ ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ قُلْ لأزواجك وبناتِكَ ونساءِ المؤمنين يُدْنِين عليهنَّ مِنْ

---

(١) فى هذا رد ضمنى على من يدعى الوصول ، ويجهر بأن لواء الأنبياء يعقد له فى معاريجه ، وأن الأنبياء أدنى من الأوليا .

جـلابيبهنّ ذلك أدنى أنْ يُعْرَفْنَ
فلا يُؤْذَيْنَ وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

هذا تنبيهٌ لهن على حفظِ الحُرْمة وإثبات الرُّتْبَة ، وصيانةٌ لهن ، وأمرٌ لهن بالتصاونِ والتعففِ . وقرَنَ بذلك تهديده للمنافقين فى تعاطيهم ما كان يشغل قلبَ الرسول صلى الله عليه وسلَّم من الإرجاف فى المدينة : —

« لئِنْ لمْ يَنْتَهِ المنافِقُونَ والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ والمُرْجِفُون فى المدينة لَنُغْرِيَنَّك
بهم ثم لا يجاورونكَ فيها إلا قليلاً
* ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا
تقتيلاً * سُنَّةَ اللهِ فى الذين خَلَوْا مِنْ
قَبْلُ ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلاً » .

إنهم إنْ لَمْ يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنا فى التدمير على مَنْ سَلَفَ من الكفار(1) .

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامَها من غير استعدادٍ لها ، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التى علم أنه يُعَذِّبهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة على ما فرَّطوا .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذَوْا موسى فَبَرَّأه اللهُ مما قالوا ، وكان
عند اللهِ وجيهاً » .

نسبوه إلى الأُدْرَة(2) ، وأنَّ به عيباً فى الخِلْقَة ، ولكنه كان رجلاً حَيِيًّا ، وكان إذا اغتسل لا يتجرَّد (من ثوبه)(3) ، فتوهموا به ذلك . وذات يومٍ خلا ليغسله ، ووضع ثيابَه

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (الكبائر) .
(2) الأدرة (على وزن الغرفة) = انتفاخ الخصية ، والآدر = المصاب بذلك .
(3) مابين قوسين من عندنا ليتضح السياق .

على حَجَرٍ فأمشى اللهُ الحجرَ بثيابه ، وموسى يعدو خَلْفَه حتى تَوَسَّطَ بنى إسرائيل ، وشاهدو خِلْقَتَه سليمةً ، فوقف الحجرُ ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها[1] ، وهذا معنى قوله : « فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » فى القَدْرِ والمنزلةِ . والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، فقبولُ الناسِ لا عِبْرَةَ به ولا خَطَرَ له ، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُون بلا شىء ، ويَرُدُّون بلا شىء قال قائلهم :

إنْ كنتُ عندك يا مولاى مطرحاً

فعنـــد غيرك محمولٌ على الحدق

وقالوا : فإنْ أكُ فى شِرَارِكُمُ قليـــلاً

فإنى فى خِيارِكُمُ كثيرُ

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لكم أعمالَكم ويغفِرْ لكم ذنوبَكم ومَنْ يُطِعْ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً » .

القول السديد كلمةُ الإخلاص ، وهى الشهادتان عن ضميرٍ صادق .

ويقال سدادُ أقوالِكم سدادُ أعمالِكم ، ولقد هَوَّن عليكم الأمرَ فَمَنْ رضى بالقالة — وهى الشهادة بأن تَرَكَ الشِّرْكَ — وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللهُ له أعمالَه الدنيوية من الخَلَل ، وغَفَرَ له فى الآخرة الزَّلَل ؛ أى حصلت له سعادةُ الدارين .

ويقال ذَكَرَ « أعمالَكم » بالجمع[2] ، وقدَّمها على الغُفران ؛ لأنه ما لم يُصْلِح لك فى حالِكَ أعمالَكَ و إنْ لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالك . . لم تتفرغْ إلى حديث آخرتِكَ .

قوله جل ذكره : « إنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنها

---

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفي رواية أخرى : اتهم بقتل أخيه هارون .

(٢) أى أن الله بفضله ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وأشفقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان ظلوماً جَهُولاً » .

هنا إضمار أي : أهل السموات والأرض والجبال .

وقيل أحياها وأعْقَلَها ، وهو كقوله : « إئْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتَيْنا طائِعِين[1] » .

« فأبين أن يحملنها » : أي أبين أنْ تَخُنَّ فيها ، « وحملها الإنسان » : أي خان فيها . وهم مراتب : فالكفار خانوا في الأصل الأمانة — وهي المعرفة — فكفروا . ومَنْ دُونَهم خانوا بالمعاصي ، وبعضهم أَشَدُّ وبعضهم أهون ، وكلٌّ احتقب من الوِزْرِ مقدارَه .

ويقال « أبين » إباء إشفاقٍ لا إباء استكبارٍ ، واستعفين . . . فعفا عنهن ، وأعفاهن مِنْ حَمْلها .

« وحملها الإنسان » : قَبِلَها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها . . كلٌّ بقدره .

« « إنه كان ظلوماً جهولاً » بصعوبة حَمْلِ الأمانة في الحال ، والعقوبة التي عليها في المآل . وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ وعَرَضَها على الإنسان ، فهن استعفين وهؤلاء[2] لم يستعفوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجباتِ أصولها وفروعها .

ويقال : الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً .

ويقال : لمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانة وأولاده قال تعالى : « وحملناهم في البر البحر »[3] . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ويقال حمل الإنسانُ بالله لا بنَفْسِه . ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السمواتُ والأرضون . والظُّلْمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه .

ويقال كاشَفَ السمواتِ والأرضَ بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا ، وكاشَفَ آدمَ

---

(١) آية ١١ سورة فصلت .

(٢) الإنسان هنا اسم جنس .

(٣) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وذُرِّيتَه بوصف اللطفِ فقَبِلوا وحملوا ، وفى حال بقاء العبد بالله يحمل السمواتِ والأرضَ بشعرة من جَفْنِه . ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمبانى فأشفقوا من حَمْل الأمانة . والحِملُ إنما تحمله القلوب . وآدم كان صاحبَ معنىً فحَمل ، وأنشدوا :

حملت جبال الحكم فوق وإننى لَأَعْجَزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَه ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها ، فلمَّا أبَوْا وأشفقوا حَمَلَها الإنسانَ طوعاً لا كرهاً .

قوله جل ذكره : « لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمُشْرِكات ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمناتِ وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

اللام فى « ليعذب » للصيرورة والعاقبة ؛ أى صارت عاقبةُ هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز .

(تمَّت السورة)[1] قد يقال : المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم . . فأين العابدون وذكرهم ؟

ولكنهم فى جملة مَنْ مضى ذِكْرُهم ، وليسوا فى المشركين ولا فى المنافقين ، فلا محالة فى جملة العاصين الذين تاب عليهم .

فيأيها العاصى ، كنت تحذر أنْ يُخْرِجَك العابدون من جملتهم ، فاشهد الجبَّارَ — فى هذا الخطاب — كيف أدرجك فى جملتهم[2] ؟ !

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهذه أول مرة يستدرك بها المصنف شيئاً عقب خاتمة سورة .

(٢) هذا الاستدراك لافت للنظر من حيث يدل على رحابة صدر الصوفية ، وشدة حرصهم على فتح أبواب الأمل أمام العصاة الراغبين فى التوبة ، «لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» .

سورة سبأ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله كلمةٌ سلاَّبةٌ غلاَّبة ، نهَّابةٌ وهابةٌ ؛ تسلب القلوب .. ولكن لا كل قلب ، وتغلب الألبابَ ولكن ليس كل لب ، وتنهب الأرواح ولكن مِنَ الأحباب ، وتَهَبُ الارتياح .. ولكن لقوم مخصوصين مَنْ الطلاَّب .

قوله جل ذكره : « الحمدُ لله الذى له مافى السموات وَمافى الأرضِ وله الحمدُ فى الآخرة وهو الحكيمُ الخبيرُ » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، ومَدْحُه لنفسه إخبارٌ عن جلاله ، واستحقاقه لنعوت عزِّه وجماله ، فهو فى الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ ، وواحدٌ موجود ، فى الآزال معبود ، وبالطلبات مقصود .

« الذى له مافى السموات ومافى الأرض » : المُلْكُ لا يكون بالشركة ؛ فلا مَلِكَ إلا الله . وإنْ أجرى هذا الاسمَ على مخلوق فالزنجيُّ لا يتغير لونُه وإنْ سُمِّيَ كافوراً !

« وله الحمد فى الآخرة » مِنَ الذين أعتقهم ، وفى النعمة أغرقهم .

« وهو الحكيم » بتخليد قومٍ فى الجنة ، وتأبيد قومٍ فى النار .

قوله جل ذكره : « يعلم ما يلجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزلُ من السماء وما يَعْرُجُ فيها وهو الرحيم الغفور » .

« يعلم ما يلج فى الأرض » من الحبِّ تحتَ الأرض ، والماء يرسب فيها ،

والأشياء التى تُلقَى عليها ، والناس يُقْـبَرُون فى الأرض . .

« وما يخرج منها » من النبات والأزهار ، والموتى يُبعثون .

« وما ينزل من السماء » من القَطْرِ والمَلَكِ ، والبركة والرزق ، والحُـكْمِ .

« وما يعرج فيها » من الصحف ، وحوائج الناس : وهِمَمِ الأولياء .

« وهو الرحيم » بعباده ، « الغفور » لجميع المذنبين من المسلمين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ
قُلْ بلى وربى لَتَـأْتِيَنَّكُم عالِمِ الغيبِ
لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ فى السموات
ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك
وَلا أكبرُ إلا فى كتابٍ مبين » .

كرّر فى القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستبعادهم لذلك ، والردَّ عليهم . وأخبر عن سابق عِلمه بهم ، وأنه لا يخرج شىء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شىء وشموله لـكل شىء . . لأنه لو لم يكن له علم لـكان نقصاً ، ولأنه لو خرَجَ معلومٌ واحدٌ عن علمِه لـكان بقدرته نقصٌ ، والنقصُ — بأى وصفٍ كان — لا يجوز فى صفته بحالٍ .

قوله جل ذكره : « ليجزىَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ
أولئك لهم مَغفرةٌ ورزقٌ كريم »
الآياتَ . .

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة ، والـكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غيرَ منفصلة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذى أَتَيْتَ به حَقًّا وصِدْقا . والذين كفروا قال بعضهم لبعض : إنّهم يرون أن هذا الذى تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ ، أو أنّ بِك جِنَّةً ، ثم أقام عليهم حُجة التجويز بما أجرى به سُنَّتَه فى الخلق والإبداع . . فما زادهم ذلك إلا جحوداً ، وما قابلوه إلا عتوداً .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داودَ منّا فضلا يا جبالُ
أَوّبى معه والطيرَ وألَنّا له الحديد *
أن اعملْ سابغاتٍ وقدّرْ فى السّرْدِ
واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير »

« داود » اسم أعجمى ، وقيل سمى داود لأنه داوى (جَرْحه ، وَرَدَ فى القصة أنه قال فى إحدى مناجاته : يا رب ، إنى أرى فى التوراة ما أعطيتَ لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطنيها)[1] فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : إنى أصبر على بلائك ، فأعْطنى ما أعطيتّهم ، فأبلاه ، فوقف ، فأعطاه ما أعطاهم .

« ولقد آتينا داود منا فضلا » : تكلموا فى هذا الفضل ؛ فمنهم مَنْ أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير : « أوبى معه » ، وكذلك الجبال ، وكان فى ذلك تنفيس فى وقت حُزْنه وبكائه . وقيل ذلك الفضلُ رجوعُه إلى الله — فى حال ماوقع له[2] — بالتنصل والاعتذار . ويقال هو شهودُه موضعَ ضرورته وأنه لا يُصْلِحُ أمرَه غيرُه . ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان ليرْغبُ فى متابعته مَنْ يسمع إليه[3] . ويقال حلاوةُ صوته فى المناجاة . ويقال حُسْنُ خُلقه مع أمته الذين اتبعوه ، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل …

قوله : « يا جبال أوبى معه والطيرَ » أمرَ الجبالَ والطيرَ بمجاوبته حتى خرَجَ إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه .

ويقال أوحى الله له : يا داود ، كانت تلك الزّلّةُ مباركةً عليك ! فقال . يارب ، وكيف ؟ فقال : كنتَ تجىء قبلها (كما يجىء المطيعون والآن)[4] تجىء كما يجىء أهل الذنوب !

---

(١) مابين القوسين ساقط من ص موجود فى م .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى قصة داود مع زوجة أوريا ، وكيف تاب وأناب .

(٣) يقول القرطبى : كان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسْن صوته ، وكانت الجبال تتجاوب صداه ، والماء الجارى ينقطع جريه . ويضيف القرطبى : « أيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة ، فإذا دخلت الفترة اهتاج أى ثار وتحرّك ، وقوىَ بمساعدة الجبال والطير .

(٤) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

يا داود ، إن أنينَ المذْنبين أحبُّ إلىّ من صُراخ العابدين !

ويقال ، كان داود يقول . اللهمّ لا تَغفرْ للخاطئين ، غيرةً منه وصلابةً في الدين ... فلما وقع له ما وقع كان يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، فعسى أن تغفرَ لداود فيما بينهم .

ويقال لمّــا تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطير بمجالسه ، وَرفع صوتَه ، وأداره في حَنَكِهِ على حسب ما كان من عادته تفرّقت الطيور وَقالوا . الصوتُ صوتُ داود والحال ليست تلكْ ! فأوحَى اللهُ إليه هذه وَحْشةُ الزّلة ، وتلك كانت أُنسَ الطاعة .. فكان داودُ يبكي وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه .

وَيقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى[1] ، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير ...

« أن أعملْ سَابغاتٍ وقدِّرْ في السَّرْد واعملوا صالحـا » . ألان له الحديدَ ، وجعل ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسعةَ رزقه ، ليجدَ في ذلك مكسبا ، ليَقْطَعَ طَمَعَه عن أُمته في ارتفاقه بهم ليباركَ لهم في اتِّباعِه[2] .

قوله جل ذكره : « ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ »

أي آتينا سليمانَ الريح أي سَخَّرناها له ، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر ؛ وبالرواح مسيرةَ شهر .

وفي القصة أنه لاحظ يوما مُلْكَه ، فمال الريحُ ببساطه ، فقال سليمان للريح : استوِ ، فقالت الريح : استوِ أنت ، فما دمتَ مستويا بقلبك كنتُ مستوياً بك ، فلما مِلْتَ مِلتُ .

« وأسلنا له عينَ القِطْر ومنَ الجنّ مَنْ يعملْ بين يديه بإذن ربه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْه من عذاب السعير »

(١) هذه غمزة بمن يتظاهرون بالتواجد في مجالس السماع الصوفية ، إذ ينبغي الصدق ليتحول التواجد إلى وجد ثم إلى وجود .

(٢) هذا تنبيه لمن يتصدر منزلة الإمامة : ألا يرتفق ، وألا يطلب عوضاً ، وألا يطمع في الذين يتبعونه .

أى وآتيناه ذلك ، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرةً له ، يعملون ما يشاء من الأشياء التى ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داود شُكْرًا وقليلٌ من عبادىَ الشَّكور »[1] .

أى إعملوا يا آل داود للشكر ، فقوله : « شكراً » منصوب لأنه مفعول له .

ويقال شكراً ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »[2] .

وقد مضى طَرَفٌ من القول فى الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل فى الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلَفِ ؛ فالشكور الذى يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثالُه وأضرابُه . وإذا كان الناسُ يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره فى البلاء .

والشاكر يشكر على البَذْلِ ، والشكور على المنع[3] ... فكيف بالبذل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله ، والشاكر ببعض هذه .

ويقال فى«وقليل من عبادى الشكور» قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة منى ولا يحملها على الأسباب؛ فلا يشكر الوسائطَ ويشكرنى . والأكثرون يأخذون النعمة من الله ، ويَجِدُون الخيرَ مِنْ قِبَلِه ثم يتقلدون المِنَّةَ من غير الله ، ويشكرون غيرَ الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنا عليه الموتَ ما دَلَّهُم على مَوْتِهِ إلاَّ دابةُ الأرضِ تأكل مِنْسَأَتَه فلمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الجِنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا فى العذابِ المُهين » .

---

(١) يقول السهروردى فى عوارفه : «فى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى (عوارف المعارف ص ٣٤٤)

(٢) آية ٤ سورة المؤمنين .

(٣) وردت العبارة فى الرسالة هكذا : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المطل (الرسالة ص ٨٩) .

كان سليمانُ — عليه السلام — يتكئ على عصاه وقتما قُبِضَ ، وبقى على ذلك الوصف مدةً ، والشياطين كانو مُسَخَّرين يعملون ما أمرهم به ، ويتصرفون على الوجه الذى رَسَمَ لهم ، وينتهون عمَّا زَجَرَهم ، فقد كانوا يتوهمُّون أنه حيٌّ . ثم إنَّ الأَرَضَةَ[1] أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا المَلِكُ الذى يقوم مُلكُهُ بغيره ، ويكون استمساكه بعصا .. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومَنْ قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « لقد كان لسبأٍ فى مَسْكَنِهم آيةٌ جَنَّتَانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رِزْقِ ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفورٌ » .

كانوا فى رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته ، فأُمِروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضَيَّعوا الشكر ، فَبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ وبَدَّلْناهم بجنتيهم جنتين ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل » .

كذلك من الناس من يكون فى رَغَدٍ من الحال ، واتصالٍ من التوفيق ، وطَرَبٍ من القلب ، ومساعدةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسىء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به ، فيتغير عليه الحالُ ؛ فلا وقتَ ولا حالَ ، ولا طربَ ولا وصالَ ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا[2] :

---

(١) الأرضه = دودة تأكل الخشب .

(٢) هكذا فى ولكنها فى ص : كما قالوا .

ما زلت أختال فى زمانٍ وحالٍ حتى أمِنْتُ الزمانَ مَكْرَه
حال علىَّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتَ ذرَّة

قوله جل ذكره : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور .

* وجعلنا بينهم وبين القُرَى التى بارَكْنا فيها قرى ظاهرة وقَدَّرْنا فيها السيْرَ سيروا فيها ليالِيَ وأياماً آمنين » .

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلاَّ مِمَّا ثَبِطُوا[1] ، وما وقعوا إلاَّ فى الوَهْدَةِ التى حَفَرُوا ، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذى صَنَعُوا !

« وجعلنا بينهم وبين القرى .. » : ما كان من شأنهم إلا التمادى فى عصيانهم ، والإصرار على غيهم وطغيانهم .

« فجعلناهم أحاديثَ ومزَّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شكور »

فرَّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلا مضروباً ؛ يقولون : ذهبوا أيدىَ سبأٍ ، وتفرَّقوا أيادى سبأ . وفى قصتهم آياتٌ لكل صبَّار على العاقبة ، شكور على النعمة .

قوله جل ذكره : « ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه فاتَّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يؤْمِنُ بالآخرةِ ممن هو منها فى شكٍ وربُّكَ على كُلِّ شىء حفيظ » .

صدَّق عليهم إبليس ظنّه — وإنْ كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليس مُسَلَّطٌ على أتباعه

(1) ثبط = حمق فى عمله .

من الجنِّ والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يَضُرَّ غيرَه لأمكنه أن يمسكَ على الهداية نَفْسَه، قال تعالى: إن عبادى ليس لك عليهم سلطان[1] ».

« وربك على كل شيء حفيظ »: يهدى من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر — سبحانه وتعالى — أنه بمُلْكِه متفرِّدٌ، وفى الألوهية متوحِّدٌ، وعن الأضداد والأنداد متعزِّزٌ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وأن الملائكةَ فى السماء بوصف الهيبة فَزِعُون، وفى الموقف الذى أثبتهم الحقُّ واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون.

ثم قال جل ذكره: « قُلْ مَنْ يرزقُكم من السمواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ وإنَّا وإياكم لعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين ».

لم يَقُلْ أحدٌ — مع شِرْكِه — إنه يُحِيلُ فى الرزق على أحدٍ غيره، فكما لا شريكَ له فى الرزق ولا شريكَ له فى الخَلْق فلا شريكَ له فى استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جل ذكره: « قُلْ لا تُسألون عمَّا أجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عمَّا تعملون * قُلْ يجمع بيننا رَبُّنا ثم يفتح بيننا بالحقِّ وهو الفتاحُ العليمُ ».

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم.. ويومَ الجمع يحاسِب اللهُ كُلاًّ على أعماله، ويُطَالِبُ كُلاًّ بشأنه، لا يؤاخِذُ أحداً بعمل غيره، وكلٌّ يُعْطَى كتابَه، ويَطْلُبُ اللهُ مِنْ كلِّ واحدٍ حسابَه.

وقد أجرى الله سُنَّتَه بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم. فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ فى الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب اللهُ — سبحانه — الذين يتفرقون عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومَدَحَ مَنْ لا يتفرّق إلا عن استئذان.

---

(1) آية ٦٥ سورة الإسراء.

والشيوخُ ينتظرون فى الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية :
« قل يجمع .... »

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرُونى الذى أَلحقتم به شُركاء
كلاً بل هو اللهُ العزيزُ الحكيم » .

كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيكَ لاشريك لكَ ، هو لك ، تملكه ومامَلك[1] ، لانهماكهم فى ضلالتهم . وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر ، ولا تسمع ولا تُبصر ، وقعت لهم شبهةُ استحقاقها العبادة ، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم ... وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين .

قوله جل ذكره : « وما أرسلناكَ إلا كافةً للناسِ
بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثرَ الناس
لا يعلمون » .

أَرسلناكَ مُؤيَّداً بالمعجزات ، مُشرَّفاً بجميع الصفات ، سيداً فى الأرضين والسموات ، ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنتَ ظاهراً لهم من حيث العيان ، قال تعالى : « وتراهُمْ ينظرون إليك وهمُ لا يبصرون »[2]

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم
صادقين * قُلْ لكم ميعادُ يومٍ ،
لاتستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون»

لكثرة مايقولون هذا كرّره اللهُ فى كتابه خبراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يومٍ ، وفى هذا الميعاد لا تستأخرون ساعةً ولا تستقدمون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن نؤمنَ بهذا

---

(١) وردت التلبية مضطربة الكتابة وقد صححناها طبقاً لما جاء فى المحبر لابن حبيب .

(٢) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذى بين يدَيه ولو ترى
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضُهم إلى بعض القولَ يقول
الذين استكبروا لولا أنتم لكنّا
مؤمنين » .

لو رأيتهم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيعاً ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القولَ ، ويُحيل بعضهم على بعض الجُرمَ ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . . وهكذا أصحابُ الزلات الأخلاء فى الفساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو »[1] .

وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليدُ تقول للجملة أخذت ، والعين تقول أبصرت ، والاختلاف فى الجملة عقوبة ، ومَنْ عمل بالمعاصى أخرج الله عليه كل من هو أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقُوا .. ولكن ليقضى اللهُ أمْراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال
مُترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون »

أى قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب ، وصَبَرَ رُسُلُنا . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟ فهم لنجاتهم أُرسلوا ، ولصلاحِهم دَعَوا وبلغّوا ، ولو وافقوهُم لسعدوا . . ولكنّ أقساماً سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمعذّبين » .

ليس هذا بكثرة الأموال وَالأولاد ، وإنما هى بصائرُ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى مسدودةٌ لقوم .

---

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى
تُقربكم عندنا زُلفى إلا مَنْ آمن وعَمل
صالحًا فأولئك لهم جزاءُ الضِّعفِ بما
عملوا وهُم فى الغرفات آمنون » .

لا تستحقّ الزّلفى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية ، بلْ بالعناية السابقة ، والهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئكَ لهم جزاء الضعف » : يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم « وهُم فى الغُرُفات آمنون » مِنْ تكدّر الصفوة والإخراج من الجنة .

قوله جل ذكره : « والذين يسعْون فى آياتنا معاجزين
أولئكَ فى العذاب مُحضَرون » .

هم الذين لايحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ اللهِ فى السرِّ ، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله ، ثم فى عذاب السقوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « « قُلْ إنَّ ربى يَبسطُ الرزق لِمَنْ
يشاءُ مِنْ عبادِه ويقدِرُ له وما أنفقتم
من شىء فهو يُخلفه وهوخيرالرازقين » .

منَ الخَلَف فى الدنيا الرضا بالعَدَم والفقد ، وهو أتمّ من السرور بالموجود[1] ؛ ومن ذلك الأنسُ بالله فى الخلوة ؛ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكةِ
أهؤلاء إيا كم كانوا يَعبدون » .

قومٌ كانوا يعبدُون الملائكة فيختبرهم عنهم ؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه،

(١) استعمل القشيرى هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا يتأيد رأينا فى هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

فيفتضح هؤلاء — والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة ، وفى بعض الأخبار :

أَنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعْ عليهم من الخجل مايجعلهم يقولون : عذِّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال !

قوله جل ذكره : « فاليوم لا يملكُ بعضكم لبعض نفعاً ولا ضَرًّا ونقـول للذين ظلمـوا ذوقـوا عذابَ النار التى كنتم بها تـكذبون » .

الإشـارة فى هـذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار ؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال[1] ؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزعُ اللهُ الرحمـةَ من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوشُ أحوالهم ، فلالهم من الأمثال والأشكال معونة ، ولا لهم منْ عقولهم فى أُمورهم استبصار ، ولا إلى الله رجوع ، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قالوا ما هـذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما كان يعبدآباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مُفترًى وقال الذين كفروا للحقِّ لمّا جاءهم إنْ هذا إلا سحر مُبين » .

الحـكماء ، والأولياء — الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة — إذا دَلوا الناسَ عَلَى الله .

قال بعض إخوانِ السوء — مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا[2] لمريدٍ : ماهذا ؟ منْ الذى يطيق كل هذا ؟ ربمـا لا تُتمّمُ الطريق !

لا بُد من الدنيا مادُمت تعيش ! . . . وأمثال ذلك ، حَتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضلّ .

---

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهده الإنسانى ، وتفريغ الوسع فيه دون التعويل على فضل الله ومنته ، فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التقدير .

(٢) يشبههم القشيرى فى موضع آخر بمن كان يعوق المجاهدين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتَيْنَاهم من كُتُبٍ يَدْرُسُونها
وما أرسلنا إليهم قَبْلَكَ من نذيرٍ » .

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجرى من الأمور ، بما تشوِّش إليهم نفوسُهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقةِ قلوبهم — على قياس ما يقع لهم — مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام .

وأهلُ الحقائق — الذين هم لسانُ الوقت — إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذى يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام ، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم[1] . وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون،فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام[2] تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أَعَظُكم بواحدةٍ أن تقوموا
لله مثنى وفُرادَى ثم تتفكَّروا مابصاحبِكم
مِنْ جِنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَىْ
عذابٍ شديد » .

يقول : إذا سوَّلَتْ لكم أنفسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ . . هل تَرَوْنَ فيه آثار مارميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . قُلْتُم إنه ساحر — فأين آثار السحر

---

(١) أنظر ص ٢٠ من المجلد الرابع من هذا الكتاب .
وقد يظن أن هذا محل طعن فيما يصدر عن المعارف من أقوال وأحوال ، والواقع أن مرد عجز العارف عن إقامة الحجة إلى أن ما ينثال عليه من كشوفات ليس من تدبيره أو احتياله ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه .. وإلا كان مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً .. إنما هى أنوار إلهية تنبجس فى عالمه الباطن .. وليست تجربة الإمام الغزالى إلا نموذجاً للعارف الذى نهل من العلوم العقلية قدراً عظيماً ، ولكن ذلك لم يهدىء سورة غليله ، ولم يقده إلى الراحة والسكينة .. حتى قيض الله له فى علوم القوم ما شفاه وكفاه (انظر الصفحات الأولى من: «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالى) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الأنام) ونحن نرجح (الأيام) على معنى أن الدهر كفيل بتوضيح الحقيقة — وإن خفيت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قلتم إنه شاعر — فمن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلتم إنه مجنون — فأىّ جنونٍ ظهر منه ؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك . . . فهلّا عرفتم أنه صادق ؟ !

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ ربى يقذف بالحقِّ علاَّمُ الغيوب » .

يقذف بالحقِّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم ، ويظهر عَجْزُهم . ويقذف بالحقِّ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجتراؤهم ، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم .

ويقذف بالحقِّ — إذا حضر أصحاب المعانى — على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم ، ويفضحهم فى الحال ، ويفْضح عوارُهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ جاء الحقُّ وما يُبْدِئُ الباطِلُ وما يُعيد » .

الباطلُ على مَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً ، والحقُّ على مَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّما أَضِلُّ على نفسى وإن اهتديْتُ فَبِما يُوحِى إلىَّ ربِّى إنَّه سميعٌ قريبٌ » .

إنْ كنتُ مهتدياً فبربِّى لا بجهدى . وإنْ كنت عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتى عائدٌ علىَّ ، ولن يضرَّكم ذلك . فانظروا أنتم إلى أنفسكم . . أين وقعتم ؟ وأى ضرر يعود عليكم لو أطعتمونى ؟ لا فى الحال تخسرون ، ولا فى أنفسكم تتعبون ، ولا فى جاهكم تنقصون .

وما أخبركم به عن نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة[1] أنتم تعلمون ! فمالكم لا تُبْصِرون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

---

(١) أى لا جدال فى أنكم تجدونها لاتنفع ولا تضر ولا تستطيع أن تدفع عنها مكروهاً ، فهى لاتليق بتأليه ولا تقديس .

قوله جل ذكره: «ولو ترى إذ فَزِعوا فلا فَوْتَ وأُخِذُوا
من مكانٍ قريب».

أى لو رأيتَ ذلك لرأيتَ منظراً فظيعاً، وأمراً عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

«وقالوا آمَنَّا به وأَنَّى لهم التناوشُ من
مكانٍ بعيد».

إذا تابوا — وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندمُوا — وقد تقطَّعَت الأسباب.. فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة[1].. يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا   فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره: «وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون كما
فُعِلَ بأشياعِهم مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا فى
شكٍّ مُرِيب».

التوبة يشتهونها فى آخر الأمر وقد فات الوقت، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيى أن يذكر فى ذلك الوقت، وينسدُّ لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما فى قلبه، ويودُّ أَنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ، ويتمنى أن يكون له — قبل خروجه من الدنيا — نَفَسٌ.. ثم لا يتفق.

---

(1) فى رأى القشيرى: الثلاثة — آخر حد القلة، وأول حد الكثرة —.

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يوجب رَوْحاً لمنْ كان يشاهد الإتقان ، ويُوجِبُ لَوْحاً لمن كان بوصف البيان ؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان ، واللوحُ من شهود السلطان ، وكلٌّ مُصيب ، ولكلٌّ من الحقِّ نصيب .

قوله جل ذكره : « الحمدُ لله فاطِرِ السموات والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أولى أجنحة ... »

استحق المدحَ والثناء على انفراده[1] بالقدرة على خلق السموات والأرض .

« جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورُباع يزيد فى الخلق ما يشاء » : تَعَرَّف إلى العباد بأفعاله ، ونَدَبَهم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ — لا بدليل العقل — والملائكةُ مِنْ ذلك ؛ فلا نتحقق كيفيّة صُوَرِهم وأجنحتهم ، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته ، وصِدْقَ كلمته .

قوله : « يزيد فى الخَلْقِ ما يشاء » : قيل الخُلُقُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلاحَةُ العينين ، وقيل الكياسة فى الخِيَرَة[2] ، وقيل الفصاحة فى المنطق ، وقيل الفهم عن الله ، ويقال السخاء والجود ، ويقال الرضا بالتقدير ، ويقال علو الهمة ، ويقال التواضع ، ويقال العفة عند الفقر ، ويقال الظرف فى الشمائل ، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب ، ويقال خفة الروح ، ويقال سلامة الصدر من الشرور ، ويقال المعرفة بالله بلا تأمُّل

---

(١) هكذا فى م . وهى فى ص (ارشاده) .

(٢) اسم من الاختيار .

برهان[1] ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطُّف على الخلق بجملتهم ، ويقال تحرُّر القلوب من رِقِّ الحدثان بجملته ، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين[2] .

قوله جل ذكره : « مايفتح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ
لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له مِنْ بَعْدِهِ
وهو العزيزُ الحكيم » .

المُوَسَّعُ عليه رِزْقُه لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحرومُ لا يُوَسِّعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : مايلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحابَ يستره ، ولاضياء يقهره .

ويقال : ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له ، وما يُغْلَق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره — سبحانه .

ويقال الذى يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له ، والذى يمنعه عن أعدائه — بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها — فلا مُيَسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم
هل من خالقٍ غيرُ اللهِ يرزقكم من
السماءِ والأرضِ لا إلهَ إلا هو فأنَّى
تُؤْفَكون » .

مَنْ ذَكَرَ النِّعمةَ فصاحبُ عبادةٍ، ونائلُ زيادة ، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ ، ونائلُ زيادة .. ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة ؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه : اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة ، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة .

والنعمة على قسمين[3] : ما دَفَعَ عنه من المِحَن ، وما نَفَعَ به من المِنَن ؛ فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العصمة ، وذكره لما نفعه به يوجب تمام النعمة .

---

(1) من اختاره الله لمعرفته لايتركه يتعنّى فى الأدلة والبراهين بعد اجتيازه مرحلة البداية المصححة بالعقل ، بل يفكّ أسره من هذه القيود لينطلق فى رحلة العرفان بالقلب ، ثم الروح ، ثم السر ، ثم عين السر .

(2) يرى الزمخشرى أن الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق وميزة فيه .. وتلك أمور لا يحيط بها وصف .

(3) مرة أخرى يعود القشيرى إلى ذكر نعم الدفع ، ونعم النفع ، وواضح أن الذكر والشكر لازمان على الدوام .. هذاهو المقصد الذى يطمح إليه القشيرى .

« هل من خالقٍ غيرُ الله . . . ؟ » وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ فى طلب شىء ، ولم يتذال فى ارتفاقٍ لمخلوقٍ ، وكما لا يرى رزْقَه من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً ؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله[1] ، ومن تَوَهُّم شىء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يُخْلِصُ فى توكله وتفويضه .

قوله جل ذكره : « وإنْ يُكَذِّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ » .

هذه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيلٌ للصبر عليه ؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله ، وأنَّهم صَبَرُوا وأنَّ اللهَ كفاهم ، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدى بهم ، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه . وفى هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب فى موقفهم من العوامِّ والأجانبِ عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبداً منهم فى مقاساة الأذى إلا بسَتْرِ حالهم عنهم[2] .

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرَّاء[3] المتقشفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ

---

(١) فالواجب إسقاط التدبير وشهود التقدير — كما قلنا فى الهامش منذ قليل .

(٢) لجأ «ملامتية» نيسابور إلى هذا الستر ، واكتفوا بعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأبهوا بالمخلوقين . بل رغبة فى تأكيد علاقتهم بالله ، وإمعاناً فى إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملامة ... نقول ذلك رغبة فى توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت معروفة فى مدينة نيسابور موطن القشيرى ، كما كان السلمى جد أبى عبد الرحمن صديقه الحميم واحداً من رواد هذا المذهب وأئمته .

(٣) القراء جماعة من قراء القرآن ظهروا منذ عهد مبكر (ولازموا الأعمدة فى الليل يتهجدون ، حتى إذا جاء النهار استقوا الماء واحتطبوا للنبى وكانوا فى صحبته (ابن سعد ح٣ ق١ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن اللفظة أطلقت فيما بعد بصفة عامة على (الذين يزورون عن الدنيا ويخصصون أنفسهم العمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد ح٦ ص٢٥٥ . (ويقال تقرى بتسهيل الهمزة أى تنسك) (أمالى القالى ح٣ ص ٤٧) .. ولقد نبه عمر بن الخطاب إلى ضرورة تنقية هذا اللون من التعبد من كل الأغراض والأمراض حيث يقول : «يأيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرمونَّ القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وبأعمالكم» البيان والتبيين ح٣ ص١٣٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فعل فعله فى خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذى جعل القشيرى — وقد عاش فى القرنين الرابع والخامس — يتحفظ فى الحكم عليهم .

فلا تَغرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكم
بالله الغَرُور » .

وَعْدُ اللهِ حقٌّ فى كل ما أخبر به أنه يكون ، فَوعْدُه فى القيامة حقٌّ ، ووعده لِمَنْ أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حقٌّ ، ووعده للمطيعين فى الآخرة بوجود الكرامة حقٌّ ، وللعاصين بالندامة حقٌّ ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت ، ولم يهتم بالرزق ، فيكفيه اللهُ شُغْلَه ، فينشط العبدُ فى استكثار الطاعة ثقةً بالوعد ، ولا يُلِمُّ بالمخالفاتِ خوفاً من الوعيد .

قوله جل ذكره : « إنَّ الشيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتخذوه
عَدُوًّا إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من
أصحابِ السَّعير » .

عداوةُ الشيطان بدوام مخالفته ؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة . والشيطانُ لا يفتر فى عداوتك ، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك ؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك .

« إنما يدعو حِزْبَه » وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، الغافلون عن الله . ودليلُ هذا الخطاب : إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً ، وأنا وَلِيُّكم وحبيبُكم فأَحِبُّونى وارْضَوْا بى حبيباً .

قوله جل ذكره : « الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ
والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم
مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ كبير » .

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعَجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم . وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلمٍ — على الجملة — صعوبتُه .

وأمَّا « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلهم مغفرةٌ أى سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ ، ولولا ذلك لا فتضحوا ، ولولا ذلك لَهَلَكُوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله فى القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفى الآخرة : تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يشاء ويَهْدِى مَنْ يشاء فلا تذهبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَراتٍ إنَّ اللهَ عليمٌ بما يصنعون » .

معنى الآية : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان !

ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عملَه حَسَنٌ ، قال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

ثم الراغبُ فى الدنيا يجمع حلالَها وحرامهاَ ، ويحوّش[2] حُطَامها ، ولا يفكر فى زوالها ، ولا فى ارتحاله عنها قبل كمالها ؛ فلقد زين له سوء عمله (والذى يتبع شهواته ويبيع مؤبّد راحاته فى الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله[3]) . وإن الذى يُؤْثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم . والذى يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه فى الجنة — وأنَّ هذا يكفيه ... فقد زُيِّن له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذى هو فى صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق اللهِ فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

« فلا تذهب نَفْسُكَ عليهم حسراتٍ » : يعنى إذا عَرَفْتَ حقّ[4] التقدير ، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودَعَوْتَهم جَهْراً ، وَبذَلْتَ لهم نُصْحاً ، فاستجابتُهم ليست لك ، فلا تَحْمِلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً .

---

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) حوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (سرّ) التقدير .

قوله جل ذكره: « والله الذى أرسل الرياحَ فتثيرُ
سحاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ ميتٍ فأحيينا
به الأرضَ بعد موتِها كذلك النُّشور »

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه فى إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتى بالسحاب، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذى يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويُمْطِرُ هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياءَ قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء، ويزعج بها كوامنَ الإرادة، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعةَ الانزعاج، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ فى القلب أزهارَ البَسْطِ، وأنوارَ[1] الرَّوْح، فيطيب لصاحبِه العَيْشُ إلى أن تتمَّ لطائفُ الأُنْسِ.

قوله جل ذكره: « مَنْ كان يريد العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ
جميعاً إليه يصعد الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ
الصالحُ يرفعُهُ والذين يمكرون
السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ ومكر
أولئك هو يبُور »

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أنَّ العزةَ بجملتها لله، فليس للمخلوق شىء من العِزَّة. ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فلله العِزَّةُ جميعا، أى فليطلبْها من الله، وفى آية أخرى أثبت العزة للهِ ولرسوله وللمؤمنين، وقال ها هنا « فلله العِزَّةُ جميعاً »؛ ووَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً، وعزَّ الرسول، وعزّ المؤمنين لهم فضْلاً من الله ولطفا؛ فإذاً العِزَّةُ للهِ جميعاً. وعزُّه سبحانه — قُدْرَتُه. أو ويقال العزيز هو القاهر الذى لا يُقْهَرُ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين.. ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذى لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولِهم: أرضٌ عَزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

ويقال العزيز الذى لا مِثْلَ له؛ من قولهم: عَزَّ الطعام فى اليد، فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

---

(١) أنوار هنا جمع نورة وهى الزهرة البيضاء.

قوله : « إليه يصعد الكَلِمُ الطيب » : الكلم الطيب هو الصادرُ عن عقيدةٍ طيبةٍ — يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعودَ قَبُولٍ ، لأنَّ حقيقةَ الصعود فى اللغة بمعنى الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام[1] .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب . ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة ، ويقال هو ما يشهد بِصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف . ويقال هو نُطْقُ القلبِ بالثناء على ما يستوجبه الربُّ . ويقال هو ما يكون دُعاءً للمسلمين . ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد . ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود[2] . ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولا يُطْلَبُ عليه عِوَضٌ

قوله جل ذكره : « والذين يَمْكُرُون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد ومَكْرُ أولئك هو يبورُ » .

أى يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم ؛ فما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُه محنةً عليهم . ويقال : تَخْلِيَتَه إياهم ومَكْرَهم[3] — مع قدرته على عصمتهم ، وكَوْنُه لا يعصمهم هى عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « واللهُ خَلَقَكُم من ترابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بِعِلْمِه وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يسير »

ذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم ، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر ، قليلُ

---

(١) لأن الخروج يقتضى محلا .. والألوهية تتنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر عن العبد وهو مأخوذ مستلب عن نفسه — من المعارف .

(٣) نصبنا الراء فى (ومكرهم) لتكون مفعولا معه فهكذا نفهم السياق .

القوة فى المُكث ، لكنه يقبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب[1] .

وإذا كان لا يَخْفَى عليه — سبحانه — شيءٌ من أحوالهم فى ابتداء خِلْقَتِهِم ، فَمَنْ يُبالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصى فلا يبالى أَنْ يغفِرَ لِمَنْ رآه يعصى[2] .

قوله جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سائِغٌ شرابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ
ومِنْ كُلٍّ تأكلون لحماً طرِيًّا
وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها وترى
الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ لتبتغوا مِنْ فَضْلِه
ولَعَلَّكم تَشْكُرُون »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلال بمعرفته . . وهذه إعْراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراض — على الله — فى قسمته وقبضته . هذه سبب وصاله ، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله ، وفى كلٍّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها ، ويُزْجِى أصحابُها وقتَها . ولا يستوى الوقتان : هذا بَسْطٌ وصاحبُه فى رَوْح ، وهذا قبضٌ وصاحبه فى نَوْح . هذا خوفٌ وصاحبه فى اجتياح ، وهذا رجاءٌ وصاحبه فى ارتياح . هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية ، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه فى شهود الربوبية .

« ومن كلٍ تأكلون لحماً طريًّا وتستخرجون حليةً تلبسونها » : كذلك كُلٌّ يتقرَّبُ فى حالته لربِّه ، ويتزَيَّنُ على بابه ، وهو حِلْيَتُهُ التى بها يتحلَّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ .

---

(١) عرض القشيرى فيما سبق لهذه النقطة عندما تحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء العناية جبر آدم حين أظهر العذر فاجتباه ربه وتاب عليه ، وكيف أن الماء أطفأ نار إبليس فأنظره إلى يوم يبعثون ، ليدل القشيرى بذلك على أن الطين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ فى دعوى أفضليته على آدم .

(٢) أى أن معصية العبد من العبد عملا — وفى هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً . . . وهو من قبل ومن بعد غافر الذنب وقابل التوب .

قوله جل ذكره : « يولِجُ الليلَ فى النهار ويولج النهارَ فى الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى لِأَجَلٍ مسمًّى ذلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ والذين تدعون من دونه ما يَمْلِكون من قِطْمِير » .

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس . وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسط ، ومرةً يغلب البسطُ على القبض ، وكذلك الصحو والسُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب .

« ذلكم الله ربُّكم له المُلْكُ » : فأرونى شظيةً من النفى أو الإثبات لما تدعونه من دونه ! وإذْ لم يُمْكِنْكُم ذلك .. فهلاَّ أَقْرَرْتم ، وفى عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تبرَّأْتم ؟ .

قوله جل ذكره : « إنْ تدعوهم لا يسمعوا دُعاءَكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون بشرككم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير » .

إنْ استعنْتُم بأصنامكم لا يُعينوكم ، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سَمِعُوا — على جهة ضَرْبَ المَثَلِ — لا يستجيبون لكم ؛ لأنهم لا يَمْلِكون نَفْعَ أنفسهم .. فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم ؟ !

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم » : لا يؤمنون إلا فى ذلك الوقت ، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ أنتمْ الفقراء إلى اللهِ واللهُ هو الغنىُّ الحميد » .

الفقر على ضربين : فقر الخِلْقَة وفقر الصفة ؛ فأمَّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه ، فهو قد حَصَلَ من العَدَم ، فهو مفتقر إليه ليبديه وينْشيه ، ثم بعد

ذلك مفتقرٌ — فى حال بقائه إليه — ليُديمَه ويتمه . فاللهُ — سبحانه — غنىٌّ ، والعبدُ فقير ؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللهُ غنىٌّ بعينه[1] .

وأمَّا فقر الصفة فهو التجرُّد ؛ ففقرُ العوامِ التجرُّدُ من المال ، وفقر الخواص التجرد من الأعلال ليَسْلَمَ لهم الفقر .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وفقر إلى شئ هو من الله ؛ معلومٍ أو مرسومٍ وغير ذلك . ومَنْ افتقر إلى شئ استغنى بوجود ذلك الشئ ؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنىُّ بالله ، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله ، والمستغنى بالله مفتقِرٌ إلى الله[2] .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُّر . وشَرَفُ العبد فى فقره ، وكذلك ذُلُّه فى توهمه أنه غنىٌّ : —

وإذا تذلَّلتْ الرِّقابُ تقرُّباً مِنَّا إليكَ فعِزُّها فى ذُلِّها[3]

ومن الفقر المذموم ، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربِّه ، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه .

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئاً ويملك كلَّ شئ .

ويقال : الفقير الصادق الذى لا يملكه شئ[4] .

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشَكُّرِ عند كمالِ التكسُّر . ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

---

(١) أى أن العبد – كذات مستقلة – فقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إلى خالقه ، والحق – كذات مستقلة – غنى ؛ لأنه خالق فهو فى غير حاجة إلى مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد فى هذا الصدد وقد سئل عن الافتقار إلى الله : أهو أتم أم الاستغناء بالله قال : إذا صح الافتقار إلى الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به ؛ فلا يقال أيهما أتم ؛ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٣٥) .

(٣) من أقوالهم فى هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه .

(٤) أى لا يكون أسيراً لغرض أو لعرض ، فتلك آفة الدنيا والنفس .

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله .

ويقال : الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيء منه بكلٍّ وجْهٍ .

قوله : « والله هو الغنيُّ الحميد » : الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد .

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة — وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك — وإمَّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ .

ويقال : لا يقول لنا أنتم الفقراء للإزراء بنا — فإنَّ كَرَمَه يتقدَّسُ عن ذلك — وإنما المقصود أنه إذا قال : والله الغنى ، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته — من استحقاق الغِنَى — أولاكَ ما يُغْنيك ، وأعطاكَ فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره : « إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم ويأتِ بِخَلْقٍ جديد

* وما ذلك على الله بعزيز » .

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك ، وأشهدك موضع فقرك إليه ، وأنه لا بُدَّ لك منه ، فما القصد من هذا إلا إرادته لإكرامك وإيوائك فى كَنَفِ إنعامه .

قوله جل ذكره : « ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرى » .

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله ، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه ، ولكلٌّ معه شأن ، وله مع كلٍّ أحدٍ شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكا فى غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ ، فلو قضى عنه ألفُ ولىٌّ وألفُ صَفِيٍّ تلك الصلاةَ الواحدةَ عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلَّا أنْ يجىءَ هو : معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّن وجدنا متاعنا عنده ! فعتابُك لا يجرى مع غيرِك ، والخطابُ الذى معك لا يسمعه غيرُك :

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتى   مكانُكَ من قلبى عليكَ مصونُ

« إنما تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم

بالغيبِ وأقاموا الصلاةَ ومَنْ تزَكَّى
فإنما يتزكَّى لِنَفْسِه وإلى اللهِ المصير » .

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة ، والخشيةُ هى المخافة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلاَّ لمن صَاحَبَ الخوفَ — وطيرُ السماء على أشكالها تقَعُ .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير *
ولا الظلماتُ ولا النورُ * ولا الظِّلُّ
ولا الحَرُور * وما يستوى الأحياء
ولا الأمواتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يشاء
وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فى القبورِ » .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنَّا ، والمجذوبُ إلينا ، والمحجوبُ عنَّا ، ولا يستوى مَنْ اصطفيناه فى الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل ، ولا يستوى من أشهدناه حقَّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا :

أحبابنا شتان : وافٍ وناقِضُ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جل ذكره : « إنْ أنت إلا نذيرٌ * إنَّا أرسلناكَ
بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإن مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ
خلا فيها نذير » .

أى وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلاَّ بعثنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقِّ .

« بشيراً ونذيراً » : تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخْلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْعٍ . وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفرده بأَنْ أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وإنْ يُكَذِّبوكَ فقد كَذَّبَ الذين
من قَبْلِهم جاءَتْهم رُسُلُهم بالبيناتِ
وبالزُّبُرِ وبالكتابِ المنير » .

أي لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنَّتُهم مع كلِّ نبيٍّ ، وإن أصَرُّوا على سُنَّتِهم في الغيِّ فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تبديلاً في الانتقام والخزى .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماءً
فأخْرَجْنا به ثمراتٍ مُخْتلِفاً ألوانُها ومن
الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتلِفٌ ألوانُها
وغَرابيبُ سُودٌ » .

بيَّنَ في هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعلِ بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه ، وفي إتقانِ الفعلِ وإحكامِه شهادة على عِلْمِ الصانعِ وإعلامِه .

وكذلك أيضاً « من الناس والدواب والأنعام » : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف ، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال .

قوله جل ذكره : « إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عبادِه العلماء » .

« إنما » كلمة تحقيق تجرى من وجهٍ مجرى التحديد أي التخصيص والقصْر ، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجرى في هربه ، والخشية إذا حصلت كَبَحَت جماحَ صاحبها فيبقى مع الله ، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة[1] .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : « وخافونِ إن كنتم مؤمنين»[2] فالخشية قضية العلم ، والهيبة توجب المعرفة .

---

(١) يفيد هذا الكلام في التفرقة بينهما عند بحث المصطلح الصوفى .
(٢) آية ١٧٥ سورة آل عمران .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم فى أداء حقِّه . ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق .

ويقال حَذَراً من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ ، وانبساطٌ فى غير وقته بإطلاق لَفْظٍ ، أو تَرَخُّصٍ بِتَرْكِ الأَوْلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يتلون كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور » .

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقِّه ، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فَلَهم القَدْرُ الأَجَلُّ من التقريب ، والنصيبُ الأوفر من الترحيب . وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهم على العكس . أولئك هم الأولياء الأعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الأعداء الأذِلَّة .

قوله جل ذكره : « والذى أوحينا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ مُصَدِّقًا لِماَ بين يديه إنَّ اللهَ بعبادِه لَخَبِيرٌ بصيرٌ » .

ما عَرَّفْنَاكَ — من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديمنا لك على الكافة — فعلى ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لا أبتغى بَدَلاً ســـواكِ خليلةً فَثِقِى بقـــولى والكِرَامُ ثِقَاتُ

قوله جل ذكره : « ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصِدٌ ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ بإذن اللهِ ذلك هو الفضلُ الكبير » .

« أورثنا » : أى أعطينا الكتابَ — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، وذَكَرَ الإعطاء بلفظِ الإرثِ توسُّعاً .

« اصطفينا » : أى اخترنا . ثم ذكر أقسامَهم ، وفى الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام : « أمتى وربِّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفى الآية وجوهٌ من الإشارة : فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضى صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص ، فمَنْ لاسببَ له فلا نَسَبَ له ، ولا ميراثَ له .

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة ، ومحلُّ السبب الطاعة . وإن قيل محلُّ النَّسبِ فَضْلُه ، ومحل السببِ فِعْلُك[1] . فهو وَجْهٌ . ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً .

ويقال أهلُ النسب على أقسام :— الأقوى ، والأدنى كذلك فى الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْلٍ للعبد كالبيع ، أمَّا ما يُمْلَكُ بالهِبَةَ فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك . والوصية لا تُسْتَحقُّ إلا بالقبول ، وفى الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ ، والميراث لا يكون فيه شىء من جهة الوارث وفعله ، والنَّسبُ ليس من جملة أفعاله .

ويقال الميراث يُسْتَحقُّ بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيبُ أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوى الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَةِ[2] .

« فمنهم ظالِمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله » : تكلموا فى الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة .

والأكثرون : إنَّ السابقَ هو الأفضل ، وقالوا : التقديم فى الذكر لا يقتضى التقديم فى الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة[3] .

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهى قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينةً وهى قوله:

---

(1) فالنسب وهبى والفعل كسبى كما أن المعرفة وهبية والطاعة كسبية وإن كان الصوفية يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكلف كلها لا تتم إلا بفضل من الله (أنظر شرح المكى لأبيات رابعة المدعوة بـ «أحبك حبين ... » فى قوت القلوب» . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً فى تفسير القشيرى .

(2) العصبة واحدة العصب ، وعصبة الرجل (فى الفرائض) من ليست له فريضة مسماة فى الميراث ، وإنما يأخذ ما أبقى ذوو الفروض . أنظر رأى القشيرى فى تفضيل التعصيب على الفرض (المجلد الثانى من هذا الكتاب ص ١٢)

(3) على نحو ما يذكره البلاغيون فى ذكر الخاص بعد العام .

« بإذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّة ، والسابق كانت له صولة ، فالظالم رَفَع زلَّتَه بقوله : لنفسه ، والسابق كَسَرَ صولتَه بقوله : بإذن الله .

كأنه قال : ياظالمُ ارفعْ رأسَك ، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك ، وياسابقُ اخفض[1] رأسَك؛ سَبَقْتَ — ولكن بإذن الله .

ويقال إنَّ العزيزَ إذا رأى ظالمًا قَصَمَه ، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده ، كأنه قال : يا ظالم ، إنْ كان كونُكَ ظالمًا يوجبُ قَهْرَك ، فكونُكَ مظلوماً يوجبُ الأخذَ بيدك[2] .

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلاَّتُه ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد فى دنياه ، والمقتصدُ مَنْ رغب فى عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمه ، والسابقُ من ذَرَّتَ[3] شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه ، والسابق مَنْ بقى معه .

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة[4] .

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بماله ، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بنَفْسِه ، والسابق مَنْ جاد بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصد مَنْ له عين اليقين ، والسابق مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظالم صاحب المودة ، والمقتصد صاحب الخلّة ، والسابق صاحب المحبة .

ويقال الظالم يترك الحرام ، والمقتصد يترك الشُّبهة ، والسابق يترك الفضل[5] فى الجملة .

---

(١) وردت فى ص (إحفظ) والسياق يتطلب (إخفض) رأسك فما سبقت إليه لبس إلا بإذن الله .

(٢) فآية كرم المولى سبحانه أنه ينظر إلى الظالم على أنه مظلوم ؛ مظلوم من قبل نفسه التى دعته إلى أن يظلم غيره .... ولعمرى إنها غاية الكرم كما يتصورها هذا الصوفى الجليل .

(٣) ذرت الشمس ذروا أى ظهرت أول شروقها (الوسيط) .

(٤) أى العلاقة بالدنيا والنفس وما يتصل بهما .

(٥) الفضل هنا معناه ما زاد عن الحاجة الضرورية اتقاء للحرام والشبهة ، يقول سهل التُّسْتَرى : « إذا كان الحلال فى التدين هو مالا يُعْصَى الله فيه فإن الحلال عند الصوفى مالا يُنْسَى الله فيه » .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصد صاحب جود ، والسابق صاحب إيثار[1] .

ويقال الظالم صاحب رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط ، والسابق صاحب أُنْس .

ويقال الظالم صاحب خوف ، والمقتصد صاحب خشية ، والسابق صاحب هيبة .

ويقال الظالم له المغفرة ، والمقتصد له الرحمة والرضوان ، والسابق له القربة والمحبة .

ويقال الظالم صاحب الدنيا ، والمقتصد طالب العُقْبى ، والسابق طالب المولى .

ويقال الظالم طالب النجاة ، والمقتصد طالب الدرجات ، والسابق صاحب المناجاة .

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصد فاز بالمثوبة ، والسابق متحقق بالقربة .

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ ، مقتول بسيف الرغبة ، مضطجعٌ على باب الحسرة.
والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة ، مقتولٌ بسيف الأسف ، مضطجع على باب الجود .
والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد ، مقتول بسيف المحبة ، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل ، والمقتصد صاحب التسليم ، والسابق صاحب التفويض .

ويقال الظالم صاحبُ تواجد ، والمقتصد صاحب وَجْد ، والسابق صاحب وجود .

ويقال الظالم صاحبُ المحاضرة ، والمقتصد صاحب المكاشفة ، والسابق صاحب المشاهدة .

ويقال الظالم يراه فى الآخرة بمقدار أيام الدنيا فى كل جمعة مرةَ ، والمقتصد يراه فى كل يوم مرةً ، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتةَ .

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِه الذى هو فضله ، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذى هو عِزُّه ، والسابقُ المستهلَكُ فى حقِّه الذى هو وُجُودُه .

قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر الظالم مع السابق[2] .

قوله جل ذكره : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يدخلونها يُحَلَّوْن فيها

---

(١) يفيد هذا التقسيم في بحث لغوى عن ترتيب : السخاء والجود والإيثار .

(٢) أعجب القرطبى بمنهج الصوفية فى تفسير «الظالم والمقتصد والسابق» على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أقوالهم استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (حـ ١٤ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حرير » .

نَبّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله ، وليس فى الفضل تمييز .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ للهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لغفورٌ شكورٌ » .

تحققوا بحقائق الرضا ، والحَزَنُ سُمِّىَ حزَناً لحُزُونَةِ[1] الوقتِ على صاحبه وليس فى الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار .

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب . ويقال هو سياسة النفس .

« إنَّ ربنا لغفورٌ » للعصاة ، « شكورٌ » للمطيعين . قَدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم[2] .

قوله جل ذكره : « الذى أَحَلَّنا دارَ المُقامةِ مِنْ فَضْلِه لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ » .

« دار المقامة » : أى دار الإقامة ، لا يبغون عنها حوَلا ، ولا يتمنون منها خروجاً .

« لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ » : إذا أرادوا أن يَرَوْا[3] مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْعِ مسافةٍ ، بل فى غُرَفهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أو تحديق مقلة فى جهة[4] ؛ يَرَوْنه كما هُمْ بلا كيفية .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا لهم نارُ جهنَّمَ لا يُقْضَى

(١) حزن المكان حزونة أى حزن أى خشن وغلظ ، وحزن الرجل اغتم .

(٢) يتجلى هنا ما يتمتع به هذا الصوفى من نزعة الأمل وفتح الباب أمام العصاة .

(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع «رؤية الله فى الآخرة» كما يتصوره القشيرى .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (وجهة) وكلاهما صحيح إذ المقصود تنزيه من يرونه — سبحانه — عن التقيد بالمكانية .. جلت الصمدية عن التقيد بمحل .

عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها
كذلك نجزى كل كَفُور » .

لا حياة يتمتَّعُون بها ، ولا موتَ يستريحون به ، وهم مقيمون فى العذاب والحجاب ، لا يفتر عنهم العذاب ، ولا تُرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِخُون فيها ربَّنا أَخرِجْنا
نَعْمَلْ صالحًا غيرَ الذى كُنَّا نَعْمَلْ أَوَ لم
نُعَمِّرْكم ما يتذكَّرُ فيه مَنْ تذكَّرَ وجاءكم
النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

يقولون : « ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كُنَّا نعمل » ، فيقال لهم أو لم نعمركم ... ؟
أَمَا جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب ؟
ويقال : ألم تستوفوا مدةَ الإمهالِ فى النظر ؟

«وجاءكم النذير» : الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة ، ويقال سقوط السِّنِّ ، ويقال تَقَوُّسُ الظَّهْر.

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ عالِمُ غيبِ السمواتِ والأرضِ
إنَّه عليمٌ بذاتِ الصدور » .

أى عالِمٌ بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجَحْدِ الكافرين .
عالِمٌ بِمَنْ يريد بالناس السوءَ وبِمَنْ يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ .

قوله جل ذكره : « هو الذى جعلكم خلائفَ فى الأرضِ
فَمَنْ كَفَرَ فعليه كُفْرُه ولا يزيد
الكافرين كُفْرُهم عند ربهم إلا مَقْتاً ،
ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاَّ خَسَاراً ».

أهلُ كلِّ عصرٍ خليفٌ عَمَّن تقدمهم ؛ فَمِنْ قومٍ هم لِسَلَفِهِم حَمَال[1] ، ومِنْ قوم هم أراذل وأنذال ؛ فالأفاضلُ زمانِهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة . وقد قالوا :

---

(١) الحمال = الدية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم (الوسيط) .

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أَجْلِهِ حيًّا غـدٌ والْتَفَتَ الأمسُ

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم شُركاءَكم الذين تَدْعُون
من دون اللهِ أرونى ماذا خلقوا من
الأرض أمْ لهم شِرْكٌ فى السمواتِ أم
آتيْنَاهم كتاباً فهم على بَيِّنَةٍ منه
بل إن يَعِـدُ الظالمونَ بعضُهم بعضاً
إلا غُروراً » .

كَرَّرَ إشهادَهم عَجْزَ أصنامهم ، ونَقْصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم ؛ ليُسَفِّهَ بذلك آراءَهم ، وليُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم ، وخِسَّةِ هِمَمِهم ، ونُقْصانِ عقولهم .

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيءٍ مما به يُطَالَبُون ، وليس لهم صواب عمَّا يُسْأَلُون .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السمواتِ والأرضَ
أَنْ تزولا ولَـئِنْ زالتا إِنْ أمسكهما مِنْ
أَحَدٍ مِن بَعْدِه إنه كان حليمًا غفوراً » .

أمسكها بقدرته ، وأتقنهما بحكمته ، ورتَّبهما بمشيئته ، وخَلَقَ أهلَهما على موجب قضيته ، فلا شبيهَ فى إبقائهما وإفنائهما يُسَاهِمُه ، ولا شريكَ فى وجودِهما ونظامهما يُقَاسِمُه .

قوله جل ذكره : « وأقسموا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهم لَـئِنْ
جاءَهم نذيرٌ لَيَـكُونُنَّ أهدىمن إحدى
الأمَمِ فَلَمَّا جاءَهم نذيرٌ ما زادهم
إلاَّ نفُوراً * استكباراً فى الأرضِ
ومَـكْرَ السيِّءِ ولا يحيقُ المكرُ السيِّءُ
إلاَّ بأهلِه ... » .

ليس لقولهم تحقيق ، ولا لِعَهْدِهم وضمانهم توثيق ، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زُورٍ ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم فَصِرْفُ تغريرٍ .. وكذلك المريدُ فى أوان نشاطه تُمَنِّيه نَفْسُه

فتظاهر أمام مَنْ تقدِّمه حالا بأنه عاهد الله ، وأنه أكَّدَ عقده مع الله . . فإذا عَضَّتْه شهوتُه ، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَعَه بكيده ، وأركسه فى هوة غَيِّه ، ومُنْيَةِ نَفْسِه ؛ فيسودُّ وَجْهُه ، وتذهب عند اللهِ وجاهتُه[1] .

قوله جل ذكره : « أَوَلم يسيروا فى الأرضِ فينظروا
كيف كان عاقبـةُ الذين مِنْ قَبْلِهم
وكانوا أشدَّ منهم قوةً وما كان اللهُ
لِيُعْجِزَه من شىءٍ فى السمواتِ ولا فى
الأرضِ إنه كان عليمًا قديراً » .

فى الجملة ما خاب له ولىٌّ ، وما ربح له عدوٌّ ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه ، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه ؛ وهو سبحانه يُدَمِّر على أعدائه تدميراً ، ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً .

قوله جل ذكره : « ولو يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بما كَسَبُوا
ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دابةٍ
ولـكِنْ يُؤَخرهم إلى أَجَلٍ مُسَمًّى
فإذا جَاءَ أَجَلُهم فإنَّ اللهَ كان
بعباده بصيراً » .

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به ، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له ، فأَخَّرَ ذلك ليومِ الحَشْرِ . . فإنَّه طويلٌ . واللهُ على كل شىءٍ قديرٌ ، وبأمورِ عبادِه خبيرٌ بصير .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (ماء وجهه) أى حياؤه ، وقد آثرنا ما جاء فى م لملاءمتها للسياق .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » آيةٌ افتتح بها خطابَه ؛ فَمَنْ عَلِمَها أجزل ثوابَه ، وَمَنْ عَرَفَها أكثر إيجابَه ، ومَنْ أَكْبَرَ قَدْرَها أَكْرَمَ مآبه .

قوله جل ذكره « يس * والقرآن الحكيم »

يقال معناه : يا سيد . ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب ؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّى مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم : —

« إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين * على صِرَاطٍ مستقيم »

أى إنَّكَ — يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم .

« تنزيلَ العزيز الرحيم »

أى هذا الكتاب تنزيل (العزيز) : المتكبر الغنى عن طاعة المطيعين ، (الرحيم) : المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين .

قوله جل ذكره : « لِتُنْذِرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهم فهم غافلون » .

أى خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن ، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا فى أيام الفترة ، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ .

قوله جل ذكره : « لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يُؤْمِنون »

أى حقّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرُّوا على جَحْدِهم ، وانهمكوا فى جهلهم ، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنَّهم لا يُؤْمِنون[1].

قوله جل ذكره : « إنَّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون »

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنذيقهم وبالَ أمرهم .

« وجعلنا من بين أيديهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِم سَدًّا فأغشيناهم فَهُمْ لا يُبْصِرون » .

أغرقناهم اليومَ فى بحار الضلالة ، وأَحَطْنا بهم سرادقاتِ الجهالة . وفى الآخرة سنُغْرِقُهم فى النار والأنكال ، ونضيِّقُ عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

« فأغشيناهم » : أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجَّة ، ونُلَبِّسُ عليهم فى الآخرة سبيلَ المَحَجَّة ، فيَتَعَثَّرُون فى وَهَدَاتِ جهنم داخرين ، ويبقون فى حُرُقَاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا نَقْطَعُ عنهم ما به يُعَذَّبُون[2] ، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون ؛ تمادَى بهم حِرْمانُ الكفر ، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء ، ووَقَعَتْ عليهم السِّمَةُ بالفراق .

قوله جل ذكره : « وسَوَاءٌ عليهم ءَأَنْذَرْتَهُمْ أم لم تُنْذِرْهُم لا يُؤْمِنون »

مهجورُ الحقِّ لا يَصِلُه أحدٌ ، ومردودُ الحقِّ لا يَقْبَلُه أحد . والذى قَصَمَتْه المشيئةُ وأَقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة .

---

(١) أريد أن أنبه دائما إلى أن الجبرية عند الشيخ لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حُرٌّ فيما يفعل ولكن فى دائرة ما حددته له القضية السابقة التى ترتبط بالعلم الإلهى السابق للإبداء والإنشاء .. نحن نعلم ماحَدَثَ ولكن العلم الإلهى يسجل بدءاً كل ما سيحدث .

(٢) من هذا نفهم أن القشيرى لا يؤمن بأبدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأبدية النار أيضاً . على خلاف جهم الذى يرى أن حركاتهم تتناهى ، فهما ليستا أبديتين — كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذى يرى أبدية الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء فى قوله تعالى «لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك» فيقول : إذاً فعذابها ينقطع (حادى الأرواح ص ٢٦٣ وشفاء الغليل ص ٢٦٢) ولكن يُرَدُّ على ابن القيم أن المقصود فى الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم — طبقاً لنصوص كثيرة — خالدون فيها أبداً «لايجدون ولياً ولا نصيراً» .

« إنما تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ فَبَشِّرْه بمغفرةٍ وأَجْرٍ كريم »

أى إنما ينتفع بإنذارك مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ؛ فإنَّ إنذارَكَ — وإن كان عاماً فى الكُلِّ وللكُلِّ — فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون . . ألاَ سَاءَ ما يَحْكُمون ، وإنْ كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمَّا الذين اتبعوا الذكر ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذى سمعوه منك ، وبه عملوا — فقد استوجبوا أنْ تُبَشِّرَهم ؛ فَبَشِّرْهُم ، وأَخْبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم .

« وأجرٍ كريمٍ » : كبيرٍ وافرٍ على أعمالهم — وإنْ كان فيها خَلَلٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحْيِي الموتى ونكتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهم » .

نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدَّموا .

« وآثارَهم » : خُطَاهم إلى المساجد[1] ، ووقوفَهم على بِساط المناجاةِ معنا ، وَتَرَقْرُقَ دموعِهم على عَرَصَات خدودهم ، وتصَاعُدَ أنفاسِهم .

« وكُلَّ شيءٍ أَحْصَيْنَاه فى إمامٍ مُبين »

أثبتنا تفصيله فى اللوح المحفوظ . . لا لتناسينا لها — وكيف وقد أحصينا كل شيءٍ عدداً ؟ — ولكننا أَحْبَبْنا إثبات آثار أحبائنا فى المكنون من كتابنا .

قوله جل ذكره : « واضرِبْ لهم مَثَلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءها المُرْسَلُون » .

انقرض زمانُهم ، ونُسِيَ أوانُهم وشأنُهم ! ولكننا نتذكر أحوالَهم بعد فوات أوقاتهم ، ولا نرضى بألا يجرىَ بين أحبائنا وعلى أَلْسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوقٌ يقول فى صفة مخلوق :

---

(١) قال أبو سعيد الخدرى : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فأنزل الله الآية ، وقال لهم النبى (ص) : «إن آثاركم تكتب فلِمَ تنتقلون» أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٥ .

إذا نَسِيَ الناسُ إخوانَهم وخَانَ المـودَّةَ خِلاَّنُها
فعندى لإخوانِيَ الغائبين صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قوله جل ذكره : « قالوا ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وما أنزل الرحمنُ من شىء إنْ أنتم إلاَّ تَـكْذِبون * قالوا رَبنا يعلم إنَّا إليـكم لَمُرْسَلون » .

قال الرسل : « ربنا يعلم إنَّا إليـكم لمرسلون » وليس عِلْمُنا إلاَّ بما أُمِرْنا به من التبليغ والإنذار .

« قالوا إنَّا تَطَيَّرْنا بـكم لَئِنْ لم تنتهوا لَنَرْجُمَنَّـكُمْ ولَيَمَسَّنَّـكُم مِنَّا عذابٌ أليم » .

لنرجمنَّـكم ، و لَنَصْنَعَنَّ ، ولَنفْعَلَنَّ ... فأجابهم الرسل : إنـكم لجهلـكم ولجحدكم سوف تَلْقَوْن ما تُوعَدُون .

قوله جل ذكره : « وجاء من أقصى المدينةِ رَجُلٌ يسعى قال ياقومِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِين * اتبعوا مَنْ لا يسألُـكم أجراً وهم مُهْتَدُون » .

فى القصة أنه جاء من قرية فسمَّاها مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ ، ولـكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَه فى استـكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِه إذا كان برضاه ، ويستنزرُ الـكثيرَ من فَضْلِهِ إذا بَذَلَه وأعطاه .

« اتبعوا من لا يسألـكم أجراً .. » فأَبْلَغَ الوَعْظَ وصَدَقَ النُّصْحَ . ولـكن كما قالوا :

وكم سُقْتُ فى آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صدَقَ فى حاله ، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه ، ورجع إلى التوبة ، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه ، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه ، ووَجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه .

« قال يا ليت قومى يعلمون * بما غفرَ لى ربِّى وجعلنى من المُكْرَمِين » .

تمنّى أنْ يعلم قومُه حاله ، فحقّقَ اللهُ مُنَاه ، وأخبر عن حاله ، وأنزل به خطابه ، وعرَفَ قومُه ذلك . وإنما تمنّى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم ، ليعملوا مثلما عَمِلَ ليَجِدُوا مثلما وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وما أنزَلْنَا على قومِه مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ من السماء وما كُنَّا مُنْزِلِين * إنْ كانت إلاَّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون » .

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم ، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء .

قوله جل ذكره : « يا حَسْرَةً على العبادِ ما يأتيهم من رسولٍ إلاَّ كانوا به يَسْتَهْزِئون » .

إن لم يتحسَّرُوا هم اليوم فَلَهُمْ موضع التحسُّر ؛ وذلك لانخراطهم فى سِلْكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل ، ومناوءة أوليائه — سبحانه .

قوله جل ذكره : « ألم يَرَوْا كم أهلكنا قَبْلَهم من القرون أنَّهم إليهم لا يَرْجِعون * وإن كُلٌّ لَمَّا جميعٌ لدينا مُحْضَرُون » .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية ، وما عاملنا به الأمم الخالية ، فلم يرجع إليهم أحد ، فكلُّهم فى قبضة القدرة ، ولم يَفُتنا أحدٌ ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ ، ولا عن حكمنا ملتحد

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لهم الأرضُ المَيْتَةُ أحْيَيْنَاهَا وأَخْرَجْنا منها حَبًّا فمنه يأكلون ».

لمَّا كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث

البعث ، وقد ضَرَبَ — سبحانه — المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات فى الكثير من الآيات .
والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِر علومَ الأصول ويقول ليس فى الكتاب عليها دليل ! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما فى القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول[1] ؟
ولكنْ يَهْدِى اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شىء عندهم لَمَا ضيَّعوا أصول الدِّين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا فى الفروع رتبةَ الإمامة والتصدُّر .. ويقال فى معناه :

يا مَنْ تَصدَّرَ فى دستَ الإمامة فى مسائل الفقه إملاءً وتدريسا
غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدْتَ تأسيساً !

قوله جل ذكره : « سبحان الذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ ومن أَنْفُسِهم ومِمَّا لا يعلمون » .

تُنَبِّه هذه الآيةُ على التفكُّرِ فى بديع صُنْعِه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياءَ المتشاكلةَ فى الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التى لا يعلمون تفصيلها ، كيف جعل أوصافها فى الطعوم والروائح ، فى الشكل والهيئة ، فى اختلاف الأشجار فى أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها فى تفرُّقِها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛ فى الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التى يخلقها اللهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرىَ العادة من التأثيرات التى تحصل فى الأبدان . ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان متماثلة ، والجواهر متشاكلة .. وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيصُ حُكْمٍ لكل شىء بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أَوْلى منه . وإنَّ مَنْ كَحَّلَ اللهُ عيونَ بصيرته بيُمْن التعريف، وقَرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وأَتَمَّ نَظَرَه ، ولم يصده مانع .. فما أقوى فى المسائل حُجَّتَه ! وما أَوْضَحَ فى السلوك نَهْجَه ! .

---

(١) فى هذا رَدٌّ على من يتهم الصوفية بمجافاتهم للعقل والعلم .

إنّها لأقْسَامٌ سَبَقَت على مَنْ شاءه الحقُّ بما شاء .

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لَهُم الليلُ نَسْلَخُ منه النهارَ فإذا هم مُظْلِمون » .

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه ، وتزيلُ ظلامَ الليل بهجوم النهار عليه ، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالى التوقف ، ويقود بيد كَرَمِه عصا مَنْ عَمِيَ عن سلوكِ رُشْدِهِ فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق .

قوله جل ذكره : « والشمسُ تجرى لِمُسْتَقَرٍّ لها » .

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت فى فصول السنة ، وكل يومٍ لها مشرِقٌ جديد ولها مغربٌ جديد . . وكل هذا بتقديرِ العزيز العليم .

« والقمرَ قَدَّرْناه منازِلَ حتى عَادَ كالعُرْجون القديم * لا الشمسُ ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون » .

الإشارة منه أن العبد فى أوان الطلب رقيقُ الحال ، ضعيفٌ ، مختصرُ الفَهْم . . ثم يُفَكِّر حتى تزداد بصيرته . . . إنه كالقمر يصير كاملاً ، ثم يتناقَصُ ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً ، وكُلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوّاً ازداد فى نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفى ولا يُرَى . . . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً — مَنْ الذى يُصَرِّفه فى ذلك إلاَّ أنه تقديرِ العزيز العليم ؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً فى ضياء معرفته ، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ[1] ، يشرق من برج سعادته دائماً ، لا يأخذه كسوفٌ ، ولا يستره سحابٌ .

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه فى تنقله ؛ فهو فى حال من البسط يترقّى إلى حَدِّ الوصال ، ثم يُرَدُّ إلى الفترة ، ويقع فى القبض مما كان به من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته ، ثم يجود الحقُّ — سبحانه — فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته ،

---

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حالى التلوين والتمكين .

وإفاقته عن سَكْرَتِه ، فلا يزال يصفو حاله إلى أنْ يَقْرُبَ من الوصال ، ويرزقَ صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال . . كذلك حاله إلى أنْ يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله ، كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بَدَنى من كثرة التلوين من بُدَّتِه[1]

وأنشدوا : كُلَّ يومٍ تتلون غيرُ هذا بِكَ أجمل

قوله جل ذكره : « وآيَةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَتَهم فى الفُلْكِ المشحون * وخَلَقْنَا لهم مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُون » .

الإشارة فيه إلى حَمْلِ الخَلْقِ فى سفينة السلامة فى بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير . فكَمْ من عبدٍ غرق فى اشتغاله فى ليله ونهاره ، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله ، ومقاساةِ التعب فى أعماله ، وجَمْعِ ماله .

فَجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآله ، واستيلاء شُغْلِه بوَلَدِه وعيالِه على فِكْرِه وبالِه — وما سَعْيُه إلاَّ فى وَبَالِه !

وكم من عَبْدٍ غرق فى لُجَّةِ هواه ، فَجَرَّتْه مُناه إلى تَحَمُّلِ بلواه ، وخسيسٍ من أمر مطلوبه ومُبْتَغَاه . . ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه ، خَسِرَ دنياه وعقباه ، وبَقِيَ عن مولاه !

ومن أمثال هذا وذاك ما لا يُحْصَى ، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى .

أمَّا إذا حفظ عبداً فى سفينة العناية أفرده — سبحانة — بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور ، وشَغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه ، وأكرمه فى سرائره بفراغ القلب مع ربِّه ، ورقَّاه إلى ما قال : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » . . وقُلْ فى عُلُوِّ شأنِ مَنْ هذه صفته . . ولا حَرَجَ !

قوله جل ذكره : « وإنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنقَذون * إلاَّ رحمةً مِنَّا ومتاعاً إلى حين » .

---

(١) البدة = النصيب والقسمة (اللسان) .

لولا جُودُه وفَضْلُه لَحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم ، لـكنه بِحُسْنِ الأفضال ، يحفظهم في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خَلْفَكُم لَعَلَّكُم تُرْحَمون» الآيات

هذه صفاتُ مَنْ سَيَّبَهم[1] في أودية الخذلان ، ووَسَمَهم بِسِمَةِ الحرمان ، وأَصَمَّهم عن سماع الرُّشْد ، وصَدَّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد ، فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْرِ إلاقابلوها بإعراضهم ، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم ، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعامِ عارضوا بأنَّ اللهَ رازقُ الأنام ، وإنْ يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإنعام :—

« وإذا قيل لهم أنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ قال الذين كفروا للذين آمنوا أَنُطْعِمُ مَنْ لو يشاء اللهُ أطعمه »

ثم قال جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين ؟ * ما يَنْظُرون إلاَّ صيحةً واحــدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجِعُون »

يستعجلون هجومَ الساعة ، ويستبطئون قيامَ القيامة — لا عن تصديقٍ يُرِيحهم من شَكِّهم ، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم ، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل ، وإنكاراً لِصِحة النبوة ، واستبعاداً للنشر والحشر .

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون ، ولا يُكْشَفُ عنهم ، ولا يُنْصَرُون .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ في الصُّور فإذا هم من الأجداثِ إلى ربِّهم يَنْسِلُون * قالوا

---

(١) سيبه = تركه وخلاه يسيب حيث شاء (الوسيط) .

يا وَيْلَنَا مَنْ بعثنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا
ماوَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرْسَلُون »

يموتون قَهْرًا ، ويُحْشَرُون جَبْرًا ، ويلقون أمراً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

« قالوا يا ويلتا مَنْ بعثنا[1] من مرقدنا ؟ » يموتون على جهلٍ ، لا يعرفون ربَّهم ، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهم ، ويعدون ما كانوا فيه فى قبورهم من العقوبة الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْن من الآلام الجديدة — نوماً ورقاداً ، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً ، لا يذوقون بَرْداً ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً ، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً : فقد قال جل ذكره : —

« فاليـــومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً
ولا تُجْزَوْن إلاَّ ما كنتم تعملون » .

قوله جل ذكره : « إنَّ أصحابَ الجنة اليومَ فى شُغُلٍ
فاكِهون » .

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه والآخذَ بمجامع قلبه ، فصاحبُ الدنيا مَنْ فى أَسْرِها ، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلّابُها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها ؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم : « لمثل هذا فليعمل العاملون »[2] . وهذه الأحوال — وإن جَلَّتْ منهم ولهم — فهى بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر ، قال صلى الله علية وسلم : « أكثر أهل الجنة البُلْه »[3] ومَنْ كان فى الدنيا عن الدنيا حُرَّاً فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حراً ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ

(١) سقطت (بعثنا) من الناسخ في ص .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) جاء فى اللسان أن الأبله من تغلب عليه سلامة الصدر ، وحسن الظنّ بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقبل على آخرته ويشغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله» فهم أكياس فى أمر الآخرة (اللسان حـ١٩ ص ٤٧٧) ط بيروت .

فاكهون » وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أُنْس القربة ، وراحات الوصلة ، والفراغ للرؤية[1] .

ويقال : لو عَلِمُوا عَمَّن شُغِلُوا لَمَا تَهَنَّأوا بما شُغِلُوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة . . » كأنه يخاطبهم مخاطبةَ المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويُرَادُ به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام فى العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بَعْدُ لِعِصْيانِهم ؛ فيقول الحق : عبدى . . أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ فى شُغْلٍ عنك لأنهم فى لَذَّاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتمِّ الأشغال ، وهى أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ .

ويقال : الحقُّ لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل ؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأى حالةٍ هم ، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم — باستيفاء حُظُوظِهم — فى معارفهم .

ويقال شَغَلَ نفوسَهم بشهواتها[2] حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفْس الذى هو أصعب الرُّقَباء ، ولا شىءَ أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجُهم فى ظِلالٍ على الأرائك مُتَّكِئُون » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (قلوبه) ، وقد آثرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبى عن الثعلبى والقشيرى — ابن المصنف — حيث تقول هذه الرواية : «فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه» القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العذارى .
وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال (ص) : «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» . ذكر ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الحوراء وجدها بكراً ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، ولا يكون بينهما منى ، منه أو منها . (القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥) .

« أزواجهم » : قيـــل أشكالهم فى الحال والمنزلة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم »[1] وقيل حَظَاياهم[2] من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكِهةُ ولهم ما يَدَّعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا كانت بغير حقٍّ — معلولة .

قوله تعالى : « سَلاَمٌ قَوْلاً من ربٍّ رحيم »

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة ، وأكَّدَ ذلكَ بقوله : « قولاً » .

وبقوله : « من ربٍّ » ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« من ربٍّ رحيمٍ » . والرحمةُ فى تلك الحالة أنْ يرزقَهم الرؤيةَ فى حال ما يُسَلِّمُ عليهم لتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة فى ذلك الوقت أن يُنَقِّيَهم فى حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبَهم دهش ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « من ربٌ رحيم » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ ، ولرجائهم مساغ ؛ فإن الذى يحتاج إلى الرحمة العاصى .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليومَ أيُّها المجْرمون » .

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ ، وإبعادُ العدوِّ[3] مِنْ أَجَلِّ العوارف[4] ؛ فالأولياء فى إيجاب القربة ، والأعداء فى العذاب والحجبة .

---

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .

(٢) جمع حظية وهى المرأة التى تفضل على غيرها فى المحبة .

(٣) يقول قتادة فى « امتازوا » إنها بمعنى عزلوا عن كل خير .

(٤) العوارف جمع عارفة وهى الفضل والإحسان .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ أعهد إليكم يا بنى آدمَ ألاَّ تعبدوا الشيطانَ إنَّه لكم عدوٌّ مبين *
وأَنِ اعبدُونى هذا صراط مستقيم » .

لو كان هـذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لَكَانَ شِبْهَ اعتذار ؛ أى لقد نصحتُكم ووعظتُكم ، ومن هذا حَذَّرْتُكم ، وكم أوصلتُ لكم القولَ ، وذكَّرْتُكم فلم تقبلوا وَعْظِى ، ولم تعملوا بأمرى ، فأنتم خالَفْتُم ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم ، وبذلك سَبَقَت القضيةُ مِنَّا لكم .

قوله جل ذكره : « اليومَ نَخْتِمُ على أفواهِهم وتُكَلِّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجُلُهم بما كانوا يَكْسِبُون » .

اليومَ سَخَّرَ اللهُ أعضاءَ بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض ، وغداً ينقض هذه العادة ، فتخرج بعضُ الأعضاء على بعض ، وتجرى بينها الخصومة والنزاع ؛ فأَمَّا الكفار فشهادةُ أعضائِهم عليهم مُبيدةٌ ، وأمَّا العُصَاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان ، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان ، وكما قيل :

بينى وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكمِ العَدْلُ الجوادُ المُنْصِفُ

وفى بعض الأخبار المروية المُسْنَدَةِ أَنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّة فيتطاير شَعره من جفن عينيه ، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق : تكلمى يا شعرة جَفْنِ عبدى واحتَجِّى عن عبدى ، فتشهدله بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادى منادٍ :هذا عتيقُ اللهِ بشَعْرَة .

قوله جل ذكره : « ومَنْ نُعَمِّرْه نُنَكِّسْهْ فى الخَلْقِ أفلا يَعْقِلون » ؟

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقُوَّتُه إلى العكس ، فكما كان يزداد فى القوة يأخذ فى النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر فى السن فيصير إلى مثل حال الطفولية فى الضعف ، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شىء ، كما قيل :

طوى العصران ما نشراه منى وأبلى جِـدَّتى نَشْرٌ وطىٌّ

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شئٌ

هذا فى الجثث والمبانى دون الأحوال والمعانى ؛ فإن الأحوال فى الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الخَرَفِ[1] فَيَخْتَلَّ رأيُه وَعَقْلُه . وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم فى عنفوان شبابها ، وطراوة جدَّتها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْنَاه الشِّعْرَ وما ينبغى له إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مبين » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشِّعر ، والذى أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تحَيَّرَ القومُ فى بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لهم مِمَّا عَمِلَتْ أيدينا أَنْعَاماً فهم لها مالكون * وذَلَّلْنَاها لهم فَمِنْها رَكُوبُهُم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافِعُ ومشارِبُ أفلا يَشْكُرُون ».

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِهِ عليهم ، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التى ينتفعون بها بوجوه الانتفاع .

ولفظ « أيدينا » تَوَسُّع ؛ أى مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحَمْلِ عليها ، وقَطْعِ المسافات بها ، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعْرِها ثم بِعَظْمِ بعضها . . فطَالَبَهم بالشكر عليها ، ووصَفَهم بالتقصير فى شُكْرِهم .

ثم أَظْهَرَ — ما إذا كان فى صفة المخلوقين لكان شكاية — أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان : —

« واتخذوا مِنْ دونِ اللهِ آلهــةً لَعَلَّهم يُنْصَرُون

---

(١) الخرف فساد العقل من الكِبَر .

* لا يستطيعون نَصْرَهم وهُم لهم جُنْدٌ
مُحْضَرون » .

اكتفوا بأمثالهم[1] معبوداتٍ لهم ، ثم سَلَّى نبيَّه — صلى الله عليه وسلم بأَنْ قال له : —
« فلا يَحْزُنْكَ قولُهم إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون »

وإذا عَلِمَ العبدُ أنّه بمرأًى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سيما إذا كان فى الله .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَم يرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْناه مِنْ
نُطْفَةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين » .

أى شَدَدْنا أَسْرَهم ، وجمعنا نَشْرَهم ، وسَوَّينا أعضاءَهم ، ورَكَّبْنَا أجزاءَهم ، وأودعناهم العقل والتمييزَ . . ثم إنه « خصيم مبين » : ينازعنا فى خطابه ، ويعترض علينا فى أحكامنا بزَعْمِه واستصوابه ، وكما قيل :

أُعَلِّمُه الرمايةَ كُلَّ يومٍ فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رمانى

قوله جل ذكره : « وضَرَب لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال
مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهى رميم * قل يُحْيِيها
الذى أنشأها أوَّلَ مَرَّةٍ وهو بكلِّ
خَلْقٍ عليم * الذى جعل لكم من الشجَرِ
الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

مَهَّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة فى معنى الإبداء ، فأى إشكالٍ بقى فى جواز الإعادة فى الانتهاء ؟ وإنَّ الذى قدر على خَلْقِ النارِ فى الأغصان الرَّطبة من المرْخِ والعَفَار[3] قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ فى الرِّمة البالية ، ثم زاد فى البيان بأن قال : إن القدرة على مِثْلِ الشىء

---

(١) أى أمثالهم من المخلوقين والمخلوقات .

(٢) نزلت حين سأل أبى بن خلف الجمحى رسول الله (ص) وقد جاءه بعظم حائل قائلا : يا محمد ، أترى الله يحيى هذا بعدما رم ؟ فقال : نعم ، ويبعثك ويدخلك فى النار . (أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٦) .

(٣) المرخ شجر طويل ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى ، يقتدح به . والعفار الجوز المأكول . وفى المثل : «فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار» (الوسيط) .

كالقدرة عليه لاستوائهما بكلٍّ وجه ، وإنه يحيي النفوسَ بعد موتها فى العرصة كما يُحْيي الإنسانَ من النطفة ، والطيرَ[1] من البيضة ، ويحيي القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمْرُه إِذَا أراد شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون » .

« إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » بخَلْقِه وقدرته . وأخبرنا أنه تتعلَّق بالمكوَّن كلمتُه على ما يجب فى صفته ، وسيَّان عنده خَلْقُ الكثيرِ فى كثرته والقليلِ فى قِلَّته .

قوله جل ذكره : « فَسُبحان الذى بيده ملكوتُ كُلِّ شيء وإليه تُرْجَعُون » .

أى بقدرته ظهورُ كلِّ شيء : فلا يحدث شيء — قَلَّ أو كَثُرَ — إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه ، فمنه ظهور ما يُحْدِث ، وإليه مصير ما يخلق .

---

(1) وردت (والطين) والصواب أن تكون (والطير) .

سورة الصّافّات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا استولت على قلب أزالت عنه أولاً من الدارين أَرَبَه ، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبَه ، ثم شَرَّفَت من حيث الهمة طَلَبَه .

قوله جل ذكره : « والصافاتِ صَفّاً »

افتتح اللهُ هذه السورة بالقَسَمِ بالصافات ، وهم الملائكة المصطفَّةُ فى السماء وفى الهواء ، وفى أماكنهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من المكان يلازمونه ، والأمر يعانقون ؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فالزَّاجراتِ زَجْراً »

عَطَفَهم على ما تَقَدَّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ . ويقال يزجرون الناسَ عن المعاصى . ويقال هى الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهى .

« فالتالياتِ ذِكْراً »

يقال « الصافات » الطيورُ المصطفَّةُ فى السماء ، « والتاليات ذكراً » الملائكة يتلون كتابَ اللهِ ، ويتلون الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام .

« إنَّ إلٰهَكُم لَوَاحِدٌ »

هذا هو المقسومُ عليه .

أخبر أنه سبحانه واحدٌ فى مُلْكِه ، وذلك لأنهم تعجَّبُوا أن يقوم الواحِدُ بجميع أحوال العالَم.ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُه فى حقِّه عن القسمة ، وتَقَدُّسُه فى وجوده عن الشبيه ، و تَنَزُّهُه فى

مُلْكِه عن الشريك ؛ واحدٌ فى جلاله ، واحدٌ فى استحقاق جماله ، واحدٌ فى أفعاله ، واحدٌ فى كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق »

مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما ، وخالقهما ، وأكسابُ العبادِ داخِلةٌ فى هذا[1] .

« ورب المشارق » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها .

قوله جل ذكره : « إنَّا زَيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بزينةٍ الكواكب * وحِفْظاً مِنْ كلِّ شيطانٍ ماردٍ »

زَيَّنَ السماءَ الدنيا بالنجوم ، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال ، وحفظ السمواتِ بأَنْ جعل النجومَ للشياطين رجوماً ، وكذلك زَيَّن القلوبَ بأنوار التوحيد ، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمَها بنجوم معارفهم .

قوله ذكره : « إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتبعه شهابٌ ثاقب »

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلْقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا ، فإذا هم مُبْصِرون ، ورجعوا .. قال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا[2] » .

قوله جل ذكره : « فاسْتَفْتِهِم أهم أَشَدُّ خَلْقاً أم مَنْ خلقنا إنَّا خلقناهم من طينٍ لازب »

---

(١) هذا الرأى على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية ، وخالق أكساب العباد من الله حكماً وعلماً ، لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج عن نطاق الحكم والعلم الإلهيين — هكذا أوقفنا القشيرى في مواضع مختلفة .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عرّفهم عجزَهم عن الإثبات، وضعفهم فى كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب [1].

قوله جل ذكره: « بل عَجِبتَ ويسخرون ».

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادةُ بحدوث مثله. وتقرأ[2] « عَجِبْتَ » بالفتح خطاباً للرسولِ صلى الله عليه وسلم — وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبلَ نفسه بل عجبْتُ، وَيقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما فى القدْر، أو الإكثار فى الذمِّ أو فى المدح.

قوله جل ذكره: « وَإذا ذُكِّروا لا يذكرون »

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها، ويقولون: ليس هذا الذى أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً.

قوله جل ذكره: « أئذا مِتنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون * أَوَ آباؤنا الأولون »

قالوا: أئذا متنا، تفرّقت أجزاؤنا، وَصرنا رميما.. أئنا لمبعوثون؟ أَوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة.

« قُلْ نعم وأنتم داخرون * فإنما هى زَجرَة واحدة فإذاهم يَنظرُون »

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

---

(١) لازب أى لاصق لصق بعضه ببعض، أو لازق يلتزق بما أصابه، وقال مجاهد والضحاك هو المنتن (القرطبى) حـ ١٥ ص ٦٨، ٦٩.

(٢) بالفتح قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم. وبالضم قراءة عبد الله بن مسعود، والكوفيين إلا عاصما. والذين ينكرون الضم يرون أن الله لا يعجب من شيء، ولكن تخريج القشيرى لذلك يكاد يكون سائغاً، وقد اختاره بعض الأئمة كالبيهقى.

« وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدين *
هذا يَوم الفصل الذى كنتم به تكذبون»

دَعوا بالويل على أنفسهم ! ويقال لهم : هذا يَومُ الفصل الذى كنتم تكذبون به ، وقد عاينتموه اليومَ .

قوله جل ذكره : « احشرُوا الذين ظلموا وأزواجهم
وما كانوا يعبدون * منْ دون اللهِ
فاهدوهم إلى صراطِ الجحيم *
وقفوهم إنهم مسئولون »

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم ، ومنْ أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير .. وكذلك فى هذه الطريقة : منْ أعان صاحبَ فترة فى فترته ، أو صاحب زَلة على زلته — كان مُشاركا له فى عقوبته ، واستحقاق طرْده وإهانته .

قوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » : مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ ؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقومٌ يسألهم المَلِكُ ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطّلاع الخلق عليهم فى الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللهُ فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون فى بعض أحوالهم بنعت الهيبة ، وفى بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة ، وفى الخبر : « أن قوما يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك » وهؤلاء أصحاب الخصوص فى التحقيق : فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : « كفى بنفسك اليوم عليكَ حسيباً »[1] ، فإذا قرءوا كتابهم يقال لهم : منْ عمل هذا ؟ وما جزاؤه ؟ فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بحكمكم .

ثم يقال لهم فى بعض أحوال استيلاء الفزَع عليهم : —

---

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

« ما لكم لا تناصرُون * بلْ هم
اليومَ مستسلمون * وأقبل بعضهم على
بعضٍ يتساءلون »

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض ؛ فهذا يتبرأ من صاحبه ، وصاحبه يتبرأ منه ، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزى والهوان ، ويجمعهم فى اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فإنهم يومئذٍ فى العذابِ مشتركون
* إنا كذلك نفعلُ بالمجرمين »

يشتركون فى العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم ، كما أنهم يشترِكون فى الزّلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جل ذكره : « إنهُم كانوا إذا قيل لهم لا إلَهَ
إلا اللهُ يستكبرون »

احتجابهُم بقلوبهم أوقعهمْ فى وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهُم استكبروا عن الإقرار بربوبيته . ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته »[1] ، وقال : « لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون »[2] فإنّ مَنْ عرفَ اللهَ فلا لذة له إلا فى طاعته ، قال قائلهم.

ويظهرُ فى الهوى عزُّ الموالى فيلزُمنى له ذُلُّ العبيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر
مجنون * بل جاء بالحقِّ وصدّقَ
المرسلين * إنكم لذائقو العذاب
الأليم » .

---

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .
(٢) آية ١٧٢ سورة النساء .

لمّا لم يحتشموا من وَصفه — سبحانه — بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب فى وصف أنبيائه .

قوله جل ذكره : « وما تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعلمون * إلا عبادَ الله المخلصين »

الاستثناء راجعٌ إلى قوله : * إنكم لذائقوا العذاب الأليم *

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ — سبحانه — بالعبودية ، والذى يشوبُ عمله رياء فليس بمخلص .

ويقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفى الخبر : يا معاذ ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه .

ويقال : الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص[1] .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

قوله جل ذكره : * أولئك لهم رزقٌ معلومٌ * فواكهُ وهمْ مُكرمون *

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينة ، وفى وقت الرسول عليه السلام مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير ، وهذه صفة أهل الجنة ؛ فلهُمْ فى الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم ، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم[2] ، والفقراء[3] لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم .

* فواكه وهُم مكرمون * : من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله فى كل وقت ، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص فى كل وقت بكلِّ أمر .

---

(١) أى لا يكون هناك حساب للمخلوقين .

(٢) رزق النفوس لأغنياء الأموال .

(٣) ورزق القلوب لأرباب الأحوال .

« فى جَنَّاتِ النعيم * على سُرُرٍ مُتَقَابلين »

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض .

« يُطَافُ عليهم بكأسٍ من معينٍ * بيضاءَ لَذَّةٍ للشاربين »

شرابٌ يوجِبُ لهم الطَّرَبَ ولا وحشةَ هنالك ، شراباً يُحْضِرَهم ولا يُسْكِرُهم ، لأنه قال :

« لا فيهـــا غَوْلٌ ولا هم عنهـا يُنْزَفُون »

فلا تغتالُ عقولَهم ، ولا تُزِيل حِشْمَتَهم ، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر ، وآخرون يُسْقَوْن فى الحضور — وهم على نعت القُرْب .

« وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ عِين * كأنهنَّ بيضٌ مكنون »

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الولى[1] ، ثم الولىُّ قد ينظر إليهن ، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن :

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

قوله جل ذكره : « فأقبـــــل بَعْضُهُم على بَعْضٍ يتساءلون ... »

يتذاكرون فيما بينهم ، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن باللهِ ، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللهُ لهم إطلاعاً عليه وهم فى النار يحترقون .

قوله جل ذكره : « قال تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِين *

---

(١) المقصود به هنا الزوج ، أى نساء قد قصَرْنَ طرْفهن على أزواجهن .

ولولا نعمةُ ربّى لكنتَ من المُحْضَرين »

نطَقَ الولىُّ بالحقِّ ولكنه لم يُصَرِّحْ بعين التوحيد ؛ إذ جعَلَ الفَضْلَ واسطةً ، والأَوْلى أن يقول : ولولا ربى لكنتُ من المحضرين[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا لَهُو الفوزُ العظيم * لِمِثْلِ هذا فليعمل العامِلون »

يقال : بل الملائكةُ يقولون لهم هذا ، ويقال : الحقُّ — سبحانه — إذا أراهم مقامَهم فى الجنة يقول لهم : « لِمِثْلِ هذا فليعمل العاملون » .

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذَرَّةٌ من نسيم القربة فبالحرىِّ أن يقول القائلون : لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواحُ .

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرء نَفْسَه
وإن بات من سَلْمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات ، وتتقاصر الإشارات .

قوله جل ذكره . « أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزَّقُّوم »

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة المذلة والعذاب فى النار ؛ من أَكْلِ الضريع ، ومن شراب الزقوم التى هى فى قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ... إلى آخر القصة .

قوله جل ذكره : « ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُون * ونَجَّيْنَاه وأَهْلَه من الكَرْبِ العظيم »

---

(١) أى نطق بعين الفرق ولو كان بعين الجمع لقال : « ولولا ربى . . . » .

لمَّا أصابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حين كذَّبوه، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ حَديثنا . . رَجعَ إلينا، فخاطبنا وخاطبناه، وكلمنا وكلمناه، وَنادانا فناديناه، وكان لنا فكُنَّا له، وأجابنا فأجبناه . فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له!

« مِنْ الكرب العظيم » : شتان بين كَرْبِ نوحٍ وبيْن كَرْب أهله!

وما يكون مثــلَ أخى ولــكن

أعـــزِّى النَّفْس عنـــه بالتأسِّى

قوله جل ذكره : « وَجعلنا ذُرِّيته هم الباقين »

لأنَّ الناس كلهم مِن أولاد نوح، فإنَّ مَنْ كان معه فى السفينة لم يتناسلوا[1]

« وَتركنا عليه فى الآخرين »

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « وإنَّ مِنْ شيعته لإبراهيم * إذ جاء رَبَّه بِقلْبٍ سليم »

يعنى أنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام فى التوحيد — وإنْ اختلفا فى فروع شرعيهما .

« قلبٌ سليمٌ » : لا آفة فيه . ويقال لديغٍ مِنَ المحبة . ويقال : سليمٍ من محبة الأغيار . ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته . ويقال : مستسلم لله فى قضائه واختياره .

قوله جل ذكره : « إذ قال لأبيه وقوْمه ماذا ما تعبدون ؟ »

سألهم على جِهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطهم .

« فما ظَنُّكُم بربِّ العالمين ؟ »

---

(١) قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه .

إذا لقيتمُوه — وقد عَبدْتم غيرَه . . فما الذى تقُولون له ؟ وكيف بكم فى مقام الخجلة مما بيْن أيديكمْ وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جَلَّ ذكره « فنظر نظرةً فى النجوم * فقال إنى سقيم » .

قيل أراد « إلى » النجوم فأقام « فى » مقامَ « إلى »[1] .

« إنى سقيم » : كانت تأتيه الحمَّى فى وقت معلوم ، فقال : قرُبَ الوقتُ الذى أسقم فيه مَنْ أَخذِ الحمَّى إياى ، فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمْشية ما كان فى نَفْسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قَوْلهم فى القول بالنجوم لأنهمْ كانُوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهُم[2] .

وكان إبراهيم فى زمان النبوة فلا يبعد أنَّ اللهَ — عزَّ وجلّ — قد عرّفه بطريق الوحى أنه يخلق — سبحانه — باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثمْ لـمَّا ذَهبوا إلى عيدهم كَسَّرَ أصنامهم ، فلمَّا رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابهمْ بما أجابهم به إلى قوله :

« قالوا ابنُوا له بُنيانا فألقُوه فى الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهُمْ الأسفلين » .

رَدَّ اللهُ كيدهُم إلى نحُورهم . وقد تعرَّضَ له جبريلُ — عليه السلام — وهُوَ فى

(١) ربما نعترض على هذا . . . فمع تسليمنا بجواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض إلا أننا نرى أن استعمال «فى» أدق . . . فالمقصود من أن ابرهيم « نظر فى » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تؤدى « نظر إلى » أكثر من التطلع بالعين وفرق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التطلع بالبصر — والله أعلم .

(٢) أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمى — وكان علم النجوم مستعملا عندهم — فأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم (القرطبى ص ٩٢ جـ ١٥) .

الهواء وقَدْ رُمِىَ من المنجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجابَ : أَمَّا إليكَ .. فلا !

قوله جل ذكره : « وقال إنى ذَاهِبٌ إلى ربىٍّ سيهدين »

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذْ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهبَ إلى رَبِّه . ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ فى الحال وطلبَ الهداية فى الاستقْبال أى زيادةً فى الهداية ، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدَب فى الحضُور ، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدينى إلىَّ لأقومَ بحقِّ عبُوديته ؛ فإن المستَهلكَ فى حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادَة إلَّا بأن يُردَّ إلى حـَالة التفرقة والتمييز .

ومعنى « إلى ربى » أى إلى المكان الذى يعْبدُ فيه ربى .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إنى ذاهب إلى ربى » : فأخْبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « ولمَّا جاء موسى لميقـاتنا » ، فأخْبر عن صـفته لا عن قوله . .

وقال فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلّم : « سبحان الذى أسرى بعبده . . . » [فأخْبر عن ذاته سبحانه(1)]

ونصلُ بَيْنَ هذِه المقامات ؛ فإبراهيم كان بعين الفرْق ، وموسى بعينِ الجمع ؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع .

قوله جلّ ذكره : « ربِّ هبْ لى من الصالحين * فبشرناه بغلامٍ حليم »

لَمّا قال « حليم » نبَّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم فى تحمله . .

---

(1) ما بين القوسين من عندنا أضفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بلَغ معَه السَّعْىَ قال يا بنىّ إنى
أرى فى المنام أنى أذْبحكَ فانظُر ماذا
ترى قال: ياأبتِ افْعل ما تؤمرستجدنى
إن شاء اللهُ من الصابرين »

« فلما بلغ مَعه السعى » إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح إبنه إسماعيل[1] ليلةَ التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُروِّى فى ذلك طولَ يومه. هَلْ هُو حقٌ أم لا[2]؟. ثم إنه رأى فى الليلة التالية مثل ذلك فَعرف أن رؤياه حق، فسمى يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك فى النوم ثلاث مرات[3]: أنْ اذْبح ابنك، فقال لاسماعيل: « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى؟ » فقال إسماعيل: « ياأبتِ افعل ماتؤمر »: أى لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكُون لها تأويل، فإن كان هذَا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان لها تأويل فتثبت[4]، فقد يمكنك ذبح ابنك كلّ وقتٍ ولكن لايمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أُترك حَديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر، واحملْ الأمر عَلَى الوجوب، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصِّرْ.

ويقَال قال له: إن كان يطيب قلبكَ بأَن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبى أن يذبحنى أبى لأجل الله.

---

(١) اختلاف الناس فى الذبيح فقال قوم إنه إسحاق وآخرون إنه إسماعيل، وفريق ثالث يقول: الله أعلم به. « وعن الأصمعى أنه قال: سألت أباعمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعى، أين عزَبَ عنك عقلك! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان اسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ». اه أما إسحق فكان ببيت المقدس.

(٢) مع أن ابراهيم أخذ يتساءل بينه وبين نفسه عن ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الوحى أيقاظاً ورقوداً، فقلوبهم لا تنام، قال صلى الله عليه وسلم: « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ».

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالى يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر.

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (فثبات) ونحن نرجح (فتثبت) بدليل ما بعدها لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر، ويأسى ابرهيم إن كان ذلك غير المراد.

ويقال قال اسماعيل لأبيه : أنتَ خليلُ الله وتنام .. ألَمْ تعلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يُؤمَرُ بِذَبْح ابنه ؟ مَالكَ يا أبَتِ والنوم ؟

ويقال فى القصة : إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه ، ونَظَرَ إليه بقلبه ، فأُمِرَ بذَبْحِه ، فلمّا أخرجه عن قلبه ، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء ، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال فى القصة : أمَرَ اسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ الذّبح فيُعَاتَب ، ثم لمَّا همَّ بِذَبْحِهِ قال : افتحْ القيدَ عنى حتى لا يقال لى : أمشدودَ اليد جئتنى ؟ وإنى لن أتحركَ :

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً لكان السُّمُّ من يدِه يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاء ؟ قيل : اسماعيل ؛ لأنه وَجَدَ الذّبحَ من يد أبيه ، ولم يتعوّد من يده إلا التربية بالجميل ، وكان البلاء عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان ابراهيم أشدَّ بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه .

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» فلم يأتِ اسماعيل بالدعوى[1] بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال اسماعيل إمَّا لا تَقُلْ : « يا بُنَيَّ » بهذه اللطافة ، وإمّا لا تَقُلْ : « إنى أذبحك» فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب !

قوله جل ذكره : « فلمَّا أَسْلَمَا وتَلّه للجبين * وناديناه أنْ يا ابراهيم * قد صَدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزى المحسنين »

قيل فى التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِه والسكين لا يقطَع ، فتعجَّبَ ابراهيمُ ، فنودى : يا ابراهيم ، كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أُريد منهما فى حال البلاء ، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيِّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنْسَدُّ الوجوهُ

(١) أى دعوى النفس بالمكنة دون تقديم المشيئة الإلهية .

فى الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وأنما يتبيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلاَّ لم تكن حينئذٍ محنة [إلاَّ أنه يكون فى حال البلاء إسبالٌ يُولَى مع مخامرة المحنة][1] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إنَّ هـذا لَهُوَ البلاءُ المبين *
وفَدَيْنَاه بِذِبحٍ عظيم » .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى فى الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس فى « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جل ذكره : « وبَشَّرْنَاه بإسحاق نَبِيًّا من الصالحين *
وباركنا عليه وعلى إسحاقَ . . »

وكلٌّ هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إن مع العسر يسراً » .

قوله جل ذكره : « ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون »

مَنَّ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وآتَيْنَاهُما الكتابَ المُسْتَبِين » .

يعنى التوراة .

« وهَدَيناهُمَا الصراطَ المستقيم »

بالتبرى عن الحوْلِ والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وتَرَكْنَا عليهما فى الآخِرِين * سلامٌ
على موسى وهارون » .

ثم قال جل ذكره : « وإنَّ إلياسَ لَمِنَ المُرسَلين » .

« إلياس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهم « بَعْل » ،

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ومدينتهم بعلبك . . أنذر قومه فـكذبوه ، ووعظهم فما صدقوه ، فأهلك قومه .

قوله جل ذكره : « وإنّ لوطاً لَمِنَ المُرْسلين »

مضت قصتُه وكيف نجّى أهلَه إلا امرأته التى شاركتْهم فى عصيانهم ، فحقّ العذاب عليها مثلما عليهم[1] .

قوله جل ذكره : « وإن يُونُس لَمِنَ المُرْسَلين » .

فـكان فى أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولـكن لم يُعْفَ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نفسَه فى بطن الحوت فى الظلمة : —

« فالتقمه الحوتُ وهو مُليم »

أى بما يُلَامُ عليه ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن الحيفِ فى حُـكْمِه ؛ إذ الخَلْقُ خَلْقُه ، ثم اللهُ رَاعَى حقَّ تَعَبُّدِه ، وحَفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له فى أداء حقِّه فقال : —

« فلولا أنَّه كان من المُسَبِّحين * لَلَبِثَ
فى بَطْنِـه إلى يومِ يُبْعَثُون »

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، « فالمؤمن قد أخذ من اللهِ خُلُقاً حسناً » — بذلك ورد الخبر .

« فَنَبَذْناه بالعراءِ وهو سقيم »

« سقيم » : فى ضعفٍ من الحال لِمَا أثَّرمِنْ كَوْنِه قضى وقتاً فى بطن الحوت .

وأنْبَتْنا عليه شَجَرَةً من يقطين »

لِتُظِلَّه ، فإنه كان فى الصحراء وشعاعُ الشمسِ كان يَضُرُّه ، وقَيَّضَ له اللهُ ظبيةً ذات وَلَدٍ كانت تجيء فيرضع من لبَنِها ، فـكأنّ الحقّ أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَحِمه ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان اللهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وتَضَرَّعوا إلى الله لمَّـا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظلَّتْهم ،

(١) نلاحظ أن القشيرى يمر سريعاً إزاء قصص الأنبياء هنا لأنه توقف طويلا عند كل منها فى مواضع سبقت .

فَكَشَفَ الله عنهم العذاب ، وآمنوا بالله ، وكانوا يقولون : لو رأينا يونسَ لَوَقَّرْناه ، وعظَّمْناه ، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت ، فاستقبله قومُه ، وأدخلوه بَلَدَهم مُكَرَّماً .

ويقال : الذَّنْبُ والجُرْمُ كانا من قَومه ، فهم قد تُوُعِدُوا بالعذاب . وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا ألَمَّ بمحظور ، وخرج من بينهم ، وكَشَفَ اللهُ العذابَ عنهم ، وسَلِمُوا .. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي بعد نجاته ؛ ويا عجباً من سِرِّ تقديره ! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه — أوحى إلى يونس بعد نجاته أَنْ قُلْ لفلان الفَخَّارِ حتى يَكْسِرَ الجِرارَ التي عملها في هذه السنة كلَّها ! فقال يونس : يارب ، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك ، فكيف آمُرُه بأن يَكْسِرَها كُلَّها ؟

فقال له : يايونس ، يَرِقُّ قلبُكَ لِخَزّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سنةٍ .. وتريدني أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي ؟! يا يونس ، إنك لم تخلقهم ، ولو خَلَقْتَهم لَرَحِمْتَهم[1] .

قوله جل ذكره : « فاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّك البناتُ ولهم البنون ؟ »

لَمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيَّنَ اللهُ قُبْحَ قَوْلِهم ، فقال : سَلْهُم من أين قالوا ؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا ؟ وأي شُبْهَةٍ داخَلَتْهم . ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات ، ويُؤْثِرون البنين عليهن .. ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ — سبحانه — بما استنكفوا منه لأنْفُسِهم !

قوله جل ذكره : « فإنَّكُم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلاَّ مَنْ هو صَالِ الجحيم » .

---

(١) تتجلى براعة القشيري في التقاط نماذج من القصص تخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ، وإفساح باب التوبة أمامهم ... على عكس بعض الباحثين الذين لا يهمهم إلا التخويف والتبشيع ، والتهويل والإقناط .

[أى ما أنتم بفاتنين من الناس إلاَّ من أَغْوَيْتُه بِحُكْمِى ، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم[1] .

قوله جل ذكره : « وما مِنَّا إلاَّ له مَقَامٌ معلومٌ » .

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتَخطَّوْنَ مقامَهم ، ولا يتعدَّوْن حدَّهم ، والأولياء لهم مقام][2] مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً ، والأنبياء لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأَمْرُهُم على الشّهْرِ ، وأَمْرُ الأولياء على السَّتْرِ .

قوله جل ذكره : « ولقَــد سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لعبادِنا المُرْسَلين » .

أى سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وتقدَّمَ حُكْمُنَا لهم بالولاية والرعاية ، فَهُم من قِبَلِنَا منصورون : —

« إنّهم لَهُم المنصورون * وإنَّ جُنْدَنَا لهم الغالبُون » .

مَنْ نَصَرَه لا يُغْلَبُ ، ومَنْ قَهَرَه لا يَغْلِبُ .

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنَشْرِ دينه ، وأقامَهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه ..مَنْ أراد إذلالَهم فَعَلَى أذقانه يخرُّ ، وفى حبل هلاكه ينجرُّ .

قوله جل ذكره : « فتَوَلَّ عنهم حتى حين * وأَبْصِرْهم فسوف يُبْصِرون » .

تَوَلَّ عنهم — يا محمد — إلى أن تنقضىَ آجالُهم ، وتنتهىَ أحوالُهم . وانتظِرْ انقضاء أيامِهم ، فإنه سينصرم حديثهم وشيكاً : —

« أفبعذابنا يستعجلون » .

---

(١) فى هذا الرأى رد على القدرية كما هو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء فى م وسقط فى ص .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم ، ثم لقلة تصديقهم . فإذا نزل العذابُ بساحتهم ، وأناخ البلاء بعقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ عنهم فعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرون .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عما يَصفون * وسلامٌ على المُرْسلين * والحمدُ لله ربِّ العالمين » .

« سبحان ربك » : تقديساً له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمدُ لله » : أى هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ ، نفَعَ أم ضَرَّ .

سورة ص

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه ، اسمٌ جليلٌ تقنَّعَتْ العلومُ خَجَلاً من الطمع فى إحاطته ، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائج عند ساحات جوده ، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلاَّت عباده فى تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « صٓ والقرآنِ ذى الذِّكْرِ » .

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآنِ .
وجواب القسم : « إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النار » .

ويقال : أقسم بصفاءِ مودةِ أحبابه والقرآنِ ذى الذكر أى : ذى الشرف .. وشَرَفُه أنه ليس بمخلوق(1) .

قوله جل ذكره : « بل الذين كفروا فى عِزَّةٍ وشِقاق »

فى صلابةٍ ظاهرة ، وعداوة بَيِّنة ، وإعراضٍ عن البحث للأدلة ، والسِّرِّ للشواهد .

قوله جل ذكره « : كَمْ أهلكنا مِن قَبْلِهم مِن قَرْنٍ فنادَوا ولاتَ حينَ مناصٍ » .

نادوا حين هَجَمَ البلاء مستغيثين ، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وعَجِبُوا أَنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحِرٌ كَذَّاب »

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً ، وهذه مناقضة ظاهرة . فلمَّا تحيَّروا فى شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر ، وقسَّموا فيهم القول .

---

(1) وهذا رأى أهل السُّنَّة بخلاف ما يراه المعتزلة .

قوله جل ذكره : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً واحِداً إِنَّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ » .

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم ، وبعدوا عن ذلك تجويزاً ، فضلا عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً ، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية ؛ فإنَّ الإلهيةَ هى القدرة على الاختراع . وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيح لِما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالها ، ولو لم يكونا كامِلَيْ الوصفِ لم يكونا إلهَيْن ، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِهِ فهو مطروحٌ باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق المـلأُ منهم أنِ امشُوا واصبِروا على آلهتِكم إنَّ هذا لشىءٌ يُرَاد » .

إذا تواصى الـكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة فى دينهم .

قوله جلّ ذكره : « ما سَمِعْنا بهذا فى المِلّةِ الآخِرةِ إنْ هذا إلاَّ اختلاق » .

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

قوله جل ذكره : « أَءُنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بينِنا بل هم فى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بل لَمَّا يذوقوا عذاب » .

أى لو استبصروا فى دينهم لَمَا أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أنَّا أَدَمْنا لهم العوافىَ لَمَا تفرّغوا إلى طغيانهم[1] .

---

(١) قال تعالى : « الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » وقال تعالى : « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » تلك هى الحكمة الإلهية فى إمهالهم .

« أَمْ عِنْدَهُم خَزَائِنُ رحمةِ ربِّك العزيزِ
الوهابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكَذَّبوا واحتجُّوا .. أعندهم شىء من هذه الأشياء ؟ أم هل هم يقدرون على شىء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا ، ويعطوا من شاءوا ، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحى على مَنْ أرادوا ؟

« جُنْــدٌ ما هُنَا لِكَ مهزومٌ مِنَ
الأحزابِ » .

بل هم جُنْدٌ من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك ، مهزومون . شَبَّهَهُم فى بقائهم عن مرادهم بالمهزومين ؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةٌ ، ولا لهم قوة ، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَة ، ولا فى الردِّ والدفع عن أنفسهم قدرة .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ
وفِرْعونُ ذو الأوتاد .. » الآيات .

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام فى هذا الموضع على الجمع ، وفى غير هذا الموضع على الإفراد[1] ، وفى كل موضعٍ فائدة زائدة فى الفصاحة والإفادة بكل وجه . ثم قال :

« إنْ كُلٌّ إلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقابِ » .

أى ما كان منهم أحدٌ إلاَّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه ، واستوجَبَ العذابَ . ثم قال :

« وما ينظر هؤلاءِ إلاَّ صيحةً واحدةً
ما لها مِنْ فَوَاق » .

أى ليسوا ينتظرون إلا القيامة ، وما هى إلا صيحة واحدة ، وإذا قامت فإنها لا تسكن .

---

(١) المقصود بالجمع والإفراد هنا الجملة والتفصيل .

قوله جل ذكره : « وقالوا رَبَّنَا عَجِّلْ لنا قِطَّنا قَبْلَ يومِ الحساب » .

إصْبِرْ — يامحمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطولَ مُدَّتُهم ، ولن نَمُدَّ — فى مقاساتِكَ أذَاهم — لُبْثَكَ ومُكْثَكَ ، وعن قريبٍ سينزل اللهُ نَصْرَه ، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا داودَ ذا الأَيْدِ إنَّه أَوَّاب » .

« ذا الأيد » أى ذا القوة ، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نَفْسٍ ، وإنما كانت قوته قوةَ فِعْلٍ ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشدُّ الصوم ، وكان قوياً فى دين الله بِنَفْسِه وقلبه وهمته.

« أوّاب » رَجَّاع[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّا سَخَّرْنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعشيِّ والإشراق[2] * والطيرَ محشورةً كُلٌّ له أَوَّاب » .

كان داود يُسَبِّح ، والجبالُ تُسَبِّح ، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبِّح الله ، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير ؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شىء كان بقُرْبِه ، ويصير غيرُ جِنْسِه بحُكْمِه ، وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ بالضُّحى ... ذات شجوٍ صَرَخَتْ فى فَنَنِ
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً ... وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَنى
فبُكائى رُبَّما أَرَّقَها ... وبكاها ربما أَرَّقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

---

(١) من (آب) يئوب إذا رجع ، فكان داود رجَّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به (القرطبى ج ١٥ ص ١٥٩) .

(٢) يرى ابن عباس أن (الإشراق) معناه صلاة الضحى إذ هى بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطاب » .

أى قوَّيْنا مُلْكَه بأنصاره ، وفى التفسير : كان يحفظ مُلْكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ .

قوله جل ذكره : « وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطاب » .

أى شددنا مُلْكَه بنصرنا له(١) ودَفْعِنا البلاءَ عنه .

ويقال شددنا مُلْكَه بالعدل فى القضية ، وحُسْنِ السيرة فى الرعية .

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدى الظَّلَمَةِ .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا ، وَتبرَّأَ من حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه .

ويقال بِتَيَقُّظِهِ وحُسْنِ سياسته . ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد .

ويقال برجوعه إلينا فى عموم الأوقات .

« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » : أى أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ ، والفَهْمَ والإصابة .

ويقال العلم بنفْسِهِ وكيفية سياسة أمته .

ويقال الثبات فى الأمور والحكمة، وإحكام الرأى والتدبُّر .

ويقال صحبة الأبرار ، ومجانبة الأشرار .

وأمَّا « فصل الخطاب » فهو الحكم بالحق ، وقيل : البينة على مَنْ ادَّعىَ واليمين على مَنْ أنكر . ويقال: القضاء بين الخصوم .

---

(١) يغمز القشيرى هنا بأصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية ولا اختيار الوزراء والأعوان . . . ونحن نعلم أنه ابتلى فى عهد طغرل بمحنة كبرى .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نَبَأُ الخَصْمِ إذ تَسَوَّروا المحراب » . . الآيات

أرسل اللهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحا كَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِه بامرأة أوريا ، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى — هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأمّا مَنْ جوَّزَ عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته . وكَنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إنِّى لَأَجِدُ فى التوراة أنَّكَ أعطيتَ الأنبياء الرُّتَبَ فأَعْطِنِيها ، فقال : إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به ، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعًا فى نَيْلِ الدرجات ، فأخبر اللهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا ، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة ، واختلى فى بيته ، وأَمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذيَه أحدٌ بالدخول عليه ، وأغلق على نَفْسِه البابَ ، وأخذ يُصَلِّى زمانًا ، ويقرأ التوراةَ زمانًا يتعبَّد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق باب السماء . وأَمَرَ حَرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكانوا ثلاثين ألف رجل — ويقال أربعة آلاف — ولكن لم يُمْكِنْهم أَنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء ، ولقد قال الحكماء : الهاربُ مما هو كائن فى كَفِّ الطالبِ يتقلب .

وكانت فى البيت كُوَّةٌ يدخل منها الضوء ، فَدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فهَمَّ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنه[1] ، فتباعَدَ عنه . وجاء فى التفاسير: أنه كان إبليس ، قد تصوَّر له فى صورة طير ، فتَبِعَه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة ، وَنَظَرَ داود فى إثره فوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهى تغتسل متجردةً ، فعاد إلى قلبه منها شىء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يَرْعَ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به مافعل ، وفى ذلك لأُولى الأبصار عِبْرَةٌ[2] .

---

(١) نقل القرطبى هذه الرواية منسوبة إلى القشيرى ج ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيرى فى تلمسه لسبب محنة داود أن يوضح للمريدين أنه حتى الأكابر قد تحل بهم البلوى نتيجة المساكنة إلى غيرٍ ، فيغار الحق عليهم وينزل بهم من الأمر ما يردهم إلى الحق . . . وذلك فضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ ، وقد كان خَطَبَها ، وأجابَتْه فى التزوج به ، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِه . وقيل بل كانت امرأتَه وسأله أن ينزل عنها ، فنَزَلَ على أمره وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها . فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه ، وقيل دَخَلاَ من سور المحراب أى أعلاه ولذلك : —

« فَفَزِعَ منهم قالوا لا تَخَفْ خَصْمان
بَغَى بعضُنا على بعضٍ فاحْكُمْ بيننا
بالحقِّ ولا تُشْطِطْ واهْدِنا إلى سَوَاءِ
الصِّراط » .

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً ، فاحكُمْ بيننا بالعدل :

إنَّ هذا أخى له تِسْعٌ وتسعون نعجةً
ولِىَ نعجةٌ واحِدةٌ فقال أَكْفِلْنِيها
وعَزَّنى فى الخطاب » .

« أكفلنيها » أى انزلْ عنها حتى أكفلَها أنا ، « وعَزَّنى فى الخطاب » . أى غلبنى ، فقال داود :

« قال لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعْجَتِكَ
إلى نِعاجِه » .

فضحك أحدهما فى وجه صاحبه ، وصَعدَ إلى السماء بين يديه ، فعَلِمَ داودُ عند ذلك أنه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه ، وظنَّ واستيقن أنه جاءَته الفتنةُ الموعودة :

« فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكِعاً وأناب » .

أخذ فى التضرع ، وجاء فى التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة)[1] المكتوبة عليه ، وأخذ يبكى حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه ، ولم يأكل ولم

(١) (الصلاة) غير واردة في النسختين وقد استعنا بالقرطبى فى هذه التكملة (جـ ١٥ ص ١٨٥) وقد وجدناها

يشرب فى تلك المدة، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة، فقال: يارب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إنى استوهبْتُك[1] منه، وقال تعالى:

« فغفرْنا له ذلك وإنّ له عندنا لزُلفى
وحُسْنَ مآب ».

إن له عندنا لقُربةً وحُسْنَ رجوعٍ، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام فى أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز.. وهكذا مَنْ رجع فى أوائل الشدائد إلى الله فاللهُ يكفيه مما ينوبه، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حينٍ طالت عليه المحنة. ويقال إنَّ زَلَّةً أَسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أَجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يقْصِيكَ عن ربِّك[2].

قوله جل ذكره: « يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً فى الأرضِ
فاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعْ
الهوى فيُضِلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنَّ
الذين يَضِلُّون عن سبيل اللهِ لهم عذاب
شديد بما نَسُوا يومَ الحساب ».

« جعلناكَ خليفةً » أى بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام. وقيل حاكماً من قِبَلِى لتحكمَ بين عبادى بالحقِّ، وأوصاه بألا يتبعَ فى الحكم هواه تنبيهاً على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى.

ولما ذكَرَ اللهُ هذه القصة أعقبها بقوله:

« وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما

=ضرورية لنوضح كيف أن التعبد الفائق الذى يمارسه الخاصة لايمنع من رجوعهم فى حال الفرق الثانى إلى أن يقوموا بالتعبد الذى تفرضه الشريعة. وربما كان ذلك مقصد القشيرى من اختيار هذه الرواية... والواقع أن القشيرى يجيد اختيار الشواهد من القصص والأخبار، واضعاً فى الاعتبار خدمة التصوف وأهله.

(1) أى استوهبتك منه بثواب الجنة (القرطبى ج ١٥ ص ١٨٥).

(2) هكذا يفتح القشيرى أبواب الأمل أمام العصاة، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله.

باطِلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ
للذين كفرُوا من النارِ » .

« باطلاً » أى وأنا مُبْطِلٌ فى خلقهما ، بل كان لى ما فعلْتُ وأنا فيه مُحِقٌّ .

ويقال ما خلقتُهما للبطلان بل لأمرهما بالحقِّ .

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط ، ثم قال :

« كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا[1]
آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أولو الألباب » .

« مبارك » وهو القرآن ، ومبارك أى كبيرُ النفْعِ ، ويقال مباركٌ أى دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء . ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ . ثم إنه بَيَّنَ أنَّ البركةَ فى تَدَبُّرِهِ والتفكُّرِ فى معانيه .

قوله جل ذكره : « ووَهَبْنَا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العَبْدُ
إنَّه أَوَّابٌ » .

« نِعْمَ العبدُ » لأنه كان أَوَّاباً إلى الله ، راجعاً إليه فى جميع الأحوال ؛ فى النعمة بالشكر ، وفى المحنة بالصبر .

قوله جل ذكره : « إذ عُرِضَ عليه بالعشىِّ الصافِناتُ
الجِيادُ » .

« الصافنات » جمع صافنة وهى القائمة ، وفى التفاسير هى التى تقوم على ثلاث قوائم ؛ إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكِها[2] . وجاء فى التفاسير أن سليمان كان قد غزا أهلَ

---

(١) فى الألوسى أن علياً قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء ، وكذا فى « البحر » لأبى حيان .

(٢) السنبك طرف الحافر ، والصفون فى اللغة إدامة القيام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار » ؛ وقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

(اللسان : مادة صفن)

دمشق ، وأصابَها منهم[1]، وقيل وَرِثَهَا عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة[2]، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر[3].

وفى بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله .

« بالعشيِّ » : فى آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر[4].

قوله جل ذكره : « رُدُّوها علىَّ فطَفِقَ مَسْحًا بالسُّوقِ والأعناقِ » .

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد أن فَرَغَ من صلاته .

وقيل عَرْقَبَهَا (ليذبحها فَحَبَسَها بالعرقبة عن النفار)[5] ، وقيل وَضَعَ عليها الكَيَّ فَسَبَّلَهَا[6]. وإيش ما كان فكلٌّ ذلك كان جائزاً فى شرعه .

قوله جل ذكره : « فقال إنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربى حتى توارَتْ بالحجاب »[7] .

أى لَصِقْتُ بالأرض لحُبِّ المال . ويقال لمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضَه[8] الله — سبحانه — بأن سَخَّرَ له الريح ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله .

قوله جل ذكره : « ولقد فَتَنَّا سليمانَ وألقينا على كُرْسِيِّه جَسَدًا ثم أنابَ » .

---

(1) هذه رواية الكلبى .

(2) هذه رواية مقاتل .

(3) هذه رواية الحسن والضحاك .

(4) ينقل القرطبى عن أبى نصر القشيرى بن عبد الكريم القشيرى قوله : ما كان فى ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل عنها ثم تذكرها .

(5) ما بين القوسين زيادة أضفناها ، اقتبسناها من القرطبى من الموضع نفسه حتى يتضح المعنى الذى يتجه إليه القشيرى (ج ١٥ ص ١٩٦).

(6) سبل الشيء أى أباحه وجعله فى سبيل الله

(7) اختلف فى التى « توارت بالحجاب » فقيل هى الشمس ، وقيل هى الخيل وقد استعرضها حتى توارت للجهاد .

(8) هكذا فى م وهى فى ص (عرضه) بالراء والصحيح ما أثبتناه عن م .

اختلف الناسُ فى هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال : لَأَطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل فى سبيل الله »[1] ولم يَقُلْ إن شاء الله ، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيِّه ، فاستغفر ربه من تَرْكِ الاستثناء ، وكان ذلك تركٍ ما هو الأَوْلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فَهَمُّوا بقَتْلِهِ ، فاستودعه الريح فى الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالفتنة كانت فى خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْكُ الاستعانة بالريح .

وقيل فى التفاسير : إنه تزوج بامرأة[2] كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان ، وسَبَاها ، فقالت له : إن أَذِنْتَ لى أَنْ اتَّخِذَ تمثالا على صورةٍ لأبى لأتسلَّى بنظرى إليه ؟ فأَذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سِرًّا ، فعوقب عليه[3] .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها ، وهى على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : إدفعى إلىَّ الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّى أمورَه — إلا التصرفَ فى نسائه — فقد منعه اللهُ عن ذلك . فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعةَ دَفَعْتُهُ إليك . فظَنَّ أنه فُتِنَ ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه ،

---

(١) فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وأيم الذى نفسى محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢) هذه المرأة – كما يقول الزمخشرى – هى «جرادة ابنة ملك جزيرة فى البحر يقال لها صيدون .

(٣) وكانت عقوبته حرمانه من ملكه أربعين يوماً – هى مدة عبادة الصنم فى بيته .

ففرَّ ورمى بالخاتم فى البحر ، وطار فى الهواء . ولمَّا أذِنَ اللهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه ، ابتلعت سمكةٌ خاتمه ، ووقعت فى حبال الصيادين ، ودفعوها إلى سليمان فى أجرته ، فلمَّا شقَّ بطْنَهَا ورأى خاتَمه لبسه ، وسَجَدَ له الملاحون ، وعاد إلى سرير مُلْكِه[1] .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ اغْفِرْلى وهَبْ لى مُلْكاً
لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنَّك أنت
الوهَّابُ » .

أى مُلْكاً لا يسابه أحدٌ منى بعد هذا كما سُلِبَ منى فى هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أنه لا ينبغى لأحدٍ من بعدى أن يسأل المُلْكَ ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله فى اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا ينبغى من بعدى لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس ، وإنصافِ بعضهم من بعض ، والقيامِ بحقِّ الله ، ولم يسأله لأَجْلِ مَيْلِه إلى الدنيا .. وهو كقول يوسف : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »[2] .

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه ، فإن المَلِكَ — على الحقيقة — مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَه ، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كمالَ حالِه فى شهود ربِّه حتى لا يرَى معه غيرَه .

ويقال سأل القناعةَ التى لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكها

---

(١) نلاحظ أن القشيرى — وإن تجنب الوقوع فى كثير من الروايات السخيفة مثل اجتماع سليمان بالنساء فى حيضهن ، ومثل قضائه فى الناس بغير الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأننا لا نستطيع أن نتصور وقوع نبى كسليمان أو كداود فى مثل هذه المزالق التى لا ينحدر إليها نبى .

(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

فقال : « لا ينبغى لأحد مِنْ بعدى » لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ولكن لِعِلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنا له الريحَ تجرى بأمرِه رُخَاءً حيثُ أصابَ » .

شكَرَ اللهُ سَعْيَه ، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس ؛ فلا يحتاج فى إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ .

« والشياطينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغوَّاصٍ * وآخرين مُقَرَّنين فى الأصفادِ * هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغير حِسابٍ » .

كما سخَّرنا له الشياطين .

ثم قال : « هذا عطاؤنا . . » أى فأَعْطِ أَو أَمْسِكْ ، واحفظْ وليس عليك حساب .

والمشىُ فى الهواء للأولياء ، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة فى مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً فى هذه الأمة — وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين . وإظهاره على خَدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه — صلى الله عليه وسلم — أشرف[1] .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا أيوبَ إِذْ نادى ربَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ » .

أى بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة ، وقيل لما كان قال (أى الشيطان) لامرأته : اسجدى لى حتى أردَّ عليكم ما سلبتكُمْ .

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلومٌ فلم يَنْصُرْه . . فابتُلِىَ .

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءه ابنُ فقيرٍ مَنَعَه من الدخول .

---

(1) من مبادىء نظرية القشيرى فى الكرامة : أن كرامة الولى فرع لمعجزة النبى الذى ينتمى الولى إلى أمته ، فكل شرف للولى هو فى الأصل شرف للنبى وآية حظوته ورتبته .

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً ، وكان لأيوب غَنَمٌ فى ولايته ، فداهَنَه لأَجْلِ غنمِه فى القتال .

ويقال حَسَدَه إبليسُ ، فقال : لَئِنْ سَلَّطْتَنى عليه لم يشكر لك .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين فى مكتب واحدٍ ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب فى البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل[1] سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ[2] هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشرابٌ » .

لمَّا أراد اللهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له : « اركض برجلك » ، فركض ، فظَهرَت عينُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به ، فعاد إليـه جمالُه وكمالُه . وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة ، واغتسل ، وردَّ الله لَحْمَهَ وشَعْرَه وبشره ، وأحيا أولاده وأهله ، وقيل بل يردُّهم إليه فى الجنة فى الآخرة .

قوله جل ذكره : « وخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً فاضرِبْ به ولا تَحْنَثْ إنَّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّاب » .

الضِغْثُ الحزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لئلا يحنث فى يمينه ، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت) . فَشَكَرَ

---

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رفض أبو الفرج الجوزى احتجاج بعض المتصوفة بهذه الآية على إباحة الرقص . والواقع أن ذلك يمنح القشيرى تقديراً خاصاً ؛ لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقال به ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر عند الآية التى سبقت فى هذه السورة : «ردوها على فطفق ... » إلى ما يحتج به بعض المتصوفة من تمزيق الخرقة وتقطيع الثياب ، فهذه فى رأيه استدلالات فاسدة يلجأ إليها الطغام .

اللهُ لها لبراءةِ ساحتِها ، وصَبْرِها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدى لى ؛ أخبرت أيوبَ بذلك ، فغاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظنَّتْ أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ فى ذلك رِيبةً ، وكان أيوب يتعلّق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شئ منها فحَلَفَ (أن يضربها بعد شفائه) .

« إنَّا وجدناهُ صابراً .. » : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الُحكْم . ويقال التلذُّذ بالبلاء ، واستعذابُه دون استصعابه . ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم ينْفِ قولُه « مسنى الضر » اسمَ الصبرِ عنه ؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّنى الضُّرُّ ؛ فكان الُحكْمُ للغالب .

« نعم العبدُ إنه أواب » لم يشغلْه البلاء عن المُبْلِي . ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذى دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عِبادَنا إبراهيمَ وإسحٰقَ
ويعقوبَ أولِي الأيدى والأبصارِ *
إنَّا أخْلَصْناهم بخالصةٍ ذِكرى الدَّار » .

« أولى الأيدى » : أى القوة[1] . « والأبصار » أى البصائر .

« إنا أخلصناهم بخالصة » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب مِنَ النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى الدار ، «وإنهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار » .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ إسماعيلَ واليسَعَ وذا الكِفْلِ
وكُلٌّ من الأخيار » .

---

(١) يرى الطبرى أن (الأيدى هنا معناها : النعم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا الخير) .

« وذا الكِفْلِ » : قيل كان تَكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات فى وقته ، وقيل كَفَلَ مائةً من بنى إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ ، فكان يُنْفِقُ عليهم .

ويقال كان اليسعُ وذو الكفل أخَوَيْن .

قوله جل ذكره : « هـذا ذِكْرٌ وإن لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ » .

أى هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان ، وذِكْرُ الأنبياء والقصص .

ويقال إنَّه شرفٌ لك ؛ لأنه معجزةٌ تدل على صِدْقِك ، وإن للذين يَتَّقُون المعاصِىَ لَحُسْنَ المُنْقَلَبِ .

« جناتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهُمُ الأبوابُ »

أى إذا جاءوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجابِ ، ولا كُلْفَةُ الاستئذان ، تستقبلهم الملائكةُ بالترحاب[1] والتبجيل . متكئين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون ، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن ، « أتراب » : لِدَاتٌ مُستَوِيَاتٌ فى الُحسْنِ والجمال والشكل .

قوله جل ذكره : « هذا وإنَّ للطاغين لَشَرَّ مآبٍ » .

لَشَرَّ مَرْجِع ومُنْقَلَبٍ ؛ وهى جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذَّبِين فيها ، وبِئْس المكانُ ذلك !

« هذا فَلْيَذُوقوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ »

« حميم » : هو الماء الحار ، و « غسّاق » هو عصارة أهل النار[2] ، ويقال هو زمهرير جهنم[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالترحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيما بعد (لامرحباً بهم)

(٢) هذا قول محمد بن كعب .

(٣) هذا قول ابن عباس . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ نتن . وقال قتاده : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرّه (القرطبى حـ١٥ ص ٢٢٢) .

« وآخَرُ من شَكْلِهِ أزواجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

قوله جل ذكره : « هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ معكم لا مَرْحباً بهم
إنهم صالوا النار » .

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبوعين :
لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم ، ويقولون :

ربَّنَا مَنْ قَدَّمَ لنا هذا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً
فى النار » .

فيقال لهم كُلُّكُم فيها ، ولن يفترَ العذابُ عنكم .

قوله جل ذكره : « وقالوا مالنا لانرى رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم
من الأشرار » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : مالنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم فى الدنيا من الأشرار والمستضعفين .. فَلَسْنَا نراهم هاهنا ؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا ؟ يقوله أبو جهلٍ وأصحابُه يعنون بلالاً والمستضعفين ، فيُعَرَّفون بأنهم فى الفردوس ، فتزداد حسراتُهم .

(إنَّ ذلك لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أهلِ النارِ) .

أى إن مخاصمةَ أهلِ النارِ فى النار لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أنا مُنْذِرٌ وما مِنْ إلهٍ إلاَّ
اللهُ الواحِدُ القهارُ * ربُّ السمواتِ
والأرضِ وما بينهما العزيزُ الغفّارُ) .

قل يامحمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربى ، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذى لا شريك له .

« قُلْ هو نَبَأٌ عظيم * أنتم عنه مُعْرِضُون

ما كان لى مِنْ عِـلْمٍ بالملإِ الأعلى إذ
يختصمون * إنْ يوحَى إلىَّ إلَّا أنَّما أنا
نذيرٌ مبين » .

أى الذى أتيتُكم به من الأخبار عن القيامة والحَشْرِ ، والجنة والنار ، وما أخبرتكم به عن نُبُوَّتى وصِدْقى هو نبأٌ عظيمٌ ، وأنتم أعرضْتُم عنه .

وما كان لى من عِلْمٍ بالملإِ الأعلى واختصامهم فيه لولا أنَّ الله عرَّفنى ، وإلا ما كُنْتُ عَالِمَهُ . والملأُ الأعلى قومٌ من الملائكة فى السماء العليا ، واختصامهم كان فى شأن آدم حيث قالوا : أتجعل فيها مَنْ يُفسِد فيها ؟

وقد ورد فى الخبر : « أن جبريل سأل الرسولَ صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام قال : لا أدرى . فقال جبريل : فى الكفارات والدرجات ؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء فى السَّبْرَات[1] ، ونَقْلُ الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاء السلامِ ، وإطعامُ الطعامِ ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام »[2] . وإنما اختلفوا فى بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها — فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم فى الأصل لا يجحدون .

. . وهذا إنما يُوحِى إلىَّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إذ قال ربُّك للملائكةِ إنِّى خالِقٌ
بَشَراً من طين »

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين[3] ،

---

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى الغداة الباردة .

(٢) روى الخبر أبو الأشهب عن الحسن هكذا : «سألنى ربى فقال : يا محمد ، فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قلت فى الكفارات والدرجات ، قال : ما الكفارات ؟ قلت : المشى على الأقدام إلى الجماعات .... » أخرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (المكذبين) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسى ، والملائكة ، ولم يقل فى صفة شىء منها ما قال فى صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشىء إلا لآدم ، وسبحان الله ! خَلَقَ أعزَّ خَلْقِه من أذَلِّ شىءٍ وأخَسِّه وهو التراب والطين .

« فإذا سَوَّيْتُه وَنَفَخْتُ فيه من روحى
فقعوا له ساجدين » .

روحُ آدم — وإنْ كانت مخلوقة — فلها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلمّا سوّى خَلْقَ آدم ، وركّبَ فيه الروح جلَّلَه بأنوار التخصيص ، فوقعتْ هيبته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرتْ لإبليسَ شقاوتُه ، ووقع — بامتناعه — فى اللعنة .

« قال يا إبليسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بيدىَّ أستكبرْتَ أَمْ
كُنْتَ من العالين قال أنا خيرٌ منه
خَلَقْتَنى من نارٍ وخَلَقْتَه من طين » .

من هنا وقع فى الغلط ؛ تَوَهَّمَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة .

ويقال ما أودع اللهُ — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، ففيه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : « قال فاخرُجْ منها فإنَّكَ رجيم *
وإنَّ عليكَ لعنتى إلى يومِ الدين » .

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التى كنت فيها ، ومن الحالة التى كنتَ عليها ، « فإنك رجيم » مَرْمِىٌّ باللَّعنِ منى ، وبالشُّهب من السماء ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تعرَّضْتَ لهم .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ فَأَنْظِرْنى إلى يومِ يُبْعَثُون * قال فإنَّكَ من المُنْظَرِين *
إلى يومِ الوقتِ المعلوم » .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه[1] ، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة فى سبب عقوبته ، فأَنْظَرَهُ اللهُ ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تمامَ شقاوته .

« قال فَبِعزَّتِكَ لَأُغْوِينَّهم أجمعين *
إلاَّ عبادَك منهم المُخْلَصِين » .

ولو عَرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته .

ويقال تجاسُرُه فى مخاطبة الحقِّ — حيث أصَرَّ على الخلاف وأقسم عليه — أَقْبَحُ وأَوْلى فى استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم[2] .

قوله جل ذكره : « قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ *
لأَمْلَأَنَّ جهنَّم منكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ منهم أجمعين » .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ ما أسألكم عليه من أَجْرٍ
وما أنا من المُتَكَلِّفين * إنْ هو

---

(١) فى هذه الإشارة دقة تحتاج إلى تأمل ، فقول القشيرى «جرى على لسانه» تفيد أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، وبإرادته سعى إلى إنظاره .

وهكذا يغمز القشيرى بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبال ونكال .

ويُذَكِّرنا هذا الموقف بقولة ابن عربى فى (شجرة الكون) عند شرح «كن فيكون» أن فى «كن» كل شىء ؛ فى الكاف كمال الدين والكفر ، وفى النون النعمة والنقمة ... فالله خالق كل شىء حين خاطب الكون : «كن»

(٢) فى هذه الإشارة لفتة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع فى الذنب أمر قبيح ولكن الإصرار على الذنب أقبح . وهذا حث العصاة على الإقلاع عن المعاصى ، وعدم اليأس من رحمة الله. وتطالعنا سماحة القشيرى فى هذا الخصوص فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب «التوبة» فى الرسالة .

إلا ذِكْرٌ لِلعَالَمِين * ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَه
بَعْدَ حين » .

ما جئتكم من حيث أنا[1] ، ولا باختيارى ، وإنما أُرْسِلْتُ إليكم .

« إن هو إلا ذكر للعالمين » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« ولتعلمن نبأه بعد حين » وعُلِمَ صِدْقُه بعد ما استمرت شريعتُه ، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم[2] .

(١) أى من طرفى أو من جهتى .
(٢) أى أن دوام الشريعة وخلودها من آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمـــر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ سماعُها يوجِبُ للقلوب شفاءَها ، وللأرواح ضياءَها ، وللأسرار سناءَها وعلاءَها .

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها بِسَمْع العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. ومَنْ سمعها بِسَمْعِ الوَجْدِ ظلَّتْ ألبابُه مبهورة ، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة .

قوله جل ذكره : « تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم » .

أى هذا كتابٌ عزيزٌ نَزَلَ من ربٍّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز فى شأنِ أمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز . وفى ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، وارتياحٌ عند قراءة فصولها .

وكتابُ موسى فى الألواح التى كان منها يقرأ موسى ، وكتابُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه . . وفَصْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً فى ألواحه ، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً فى قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى : « بل هو آيات بيناتٌ فى صدور الذين أوتوا العلم(١) » .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبدِ اللهَ مُخْلِصاً له الدِّين » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُحِقٌّ فى إنزاله .

---

(١) آية ٤٩ سورة العنكبوت .

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنّفْس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التنقِّى عن طلب الاختصاص[1] .

قوله جل ذكره : « ألا لله الدينُ الخالِصُ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى » .

الدين الخالص ماتكون جملته لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ فى العَالَمَ مُخْلِصٌ .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِى بها . . فكل ذلك اتباعُ هوًى ، قال تعالى : « ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رضوانِ الله فما رَعَوْها حَقَّ رعايتها[2] » .

قوله جل ذكره : « إن اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هو كاذبٌ كَفَّار » .

لا تَهديهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغيرِ مقامه ، ويدَّعى شيئاً ليس بصادقٍ فيه ، فاللهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدادُه ورُشْدُه . وعقوبتُه أَنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذى تصدَّى له بدعواه قبل تحققه بوجوده وذَوْقه .

---

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإخلاص ، والآفات التى تلحق كل درجة منها ، وكيفية التنقى عن هذه الآفات — وبمعنى آخر فإنها تهمنا عندما نبحث أصول ما أطلقنا عليه : علم النفس الصوفى .
(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد اللهُ أَنْ يتَّخِذَ وَلداً لا صطفى
مِمَّا يَخْلُقُ ما يشاء سبحانه هو اللهُ
الواحِدُ القهَّار » .

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : المسيحُ ابن اللهِ ، وعُزَيْرٌ وَلَدُ اللهِ ؛ فقال : لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنِّى والكرامة لاخْتَارَ من الملائكة الذين هم مُنَزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ .

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ الأولاد . . لا فى الحقيقة لاستحالة معناه فى نَعْتِه ، ولا بالتبنِّى لِتَقَدُّسِه عن الجنسية والمحالات ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حُكْمُه ؟ كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] » .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ » .

أى خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ فى خلقهما .

« يُكَوِّرُ الليلَ على النهارِ ويُكَوِّرُ
النهارَ على الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ
كُلٌّ يجرى لِأَجَلٍ مُسَمًّى » .

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ ، ويدخل النهارَ على الليل فى الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد فى القبض والبسط ، والجَمْع والفَرْق ، والأخذ والرد ، والصحو والسُّكْرِ ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار التوحيد ، وليالى الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل ، وليالى الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها ونقصانها .

« ألا هو العزيزُ الغفارُ » .

« العزيز » المتعزِّز على المحبين ، « الغفار » للمذنبين .

---

(١) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ ثم جَعَلَ مِنها زَوْجَها وأنزل لكم من الأنعامِ ثمانيةَ أزواج ، يخلقكم فى بطون أُمهاتِكم خَلْقاً من بعد خلْقٍ فى ظلماتٍ ثلاثٍ ذلكم الله ربُّكُم له المُلْكُ لا إله إلا هو فأنَّى تُصْرَفون » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعنى آدم وحواء .

« وأنزل لكم من الأنعام » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المواشى اثنين .

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق » : أى يصوِّركم ، ويُرَكِّب أحوالكم .

« فى ظلمات ثلاث » : ظلمة البطن ، وظلمة الرَّحِم ، وظلمة المشيمة[1] . ذَكَّرَهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال بَيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة فى كيفية خِلْقَتِك — من قطرتين — أمشاجاً متشاكلةَ الأجزاء ، مختلفةَ الصُّوَرِ فى الأعضاء ، سَخَّرَ بعضَها مَحَالَّ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة . . وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها مَحَالَّ للحواس كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها — والنفوسُ مجبولةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها — استجلاباً لمحبتنا له .

« ذلكم الله ربكم . . . »[2] أى إن الذى أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (البشيمة)
والظلمات الثلاث التى أوردها القشيرى على هذا النحو قالها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .
وقال أبو عبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبى ج ١٥ ص ٢٣٦) .

(٢) يبدو أن القشيرى منذ هذه اللحظة وحتى الآية الكريمة التالية انتابته حالة من حالات الذكر ، فجاءت كلماته أشبه بالتسبيح والنجوى .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرتُكم فأحسنت صُوَرَكم ، وأنا الذى أسبَغْتُ عليكم إنعامى ، وخصصتكم بجميل إكرامى ، وأغرقتكم فى بحار أفضالى ، وعرفتكم استحقاق جمالى وجلالى ، وهديتكم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعايةَ حدودى . . . فما لكم لا تَنقَطِعون بالكلية إلىّ ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكم لدىّ ؟ وما لكم فى الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلىّ ؟

قوله جل ذكره : « إنْ تكفروا فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنكم ولا يَرْضَى لعبادِه الكُفْرَ وإنْ تشكروا يَرْضَه لَكُم ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرى » .

إنْ أعرضتم وأَبَيْتُم ، وفى جحودكم تماديتم . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ، ولكنّى لا أرضى لكم أن تبقوا عنى !

يامسكين . . . أنت إنْ لم تكن لى فأنا عنكَ غنىٌّ ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت ؟ ومَنْ يكون لك ؟ مَنْ الذى يُحْسِنُ إليك ؟ مَنْ الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟ من الذى ينثر الترابَ على جراحِك ؟

من الذى يهتم بشأنك ؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنِّى ؟ مَنْ الذى يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب ؟ ! .

عَبْدى . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لى وأنت ترضى بألا تكون لى ! يا قليلَ الوفاء ، يا كثيرَ التجنِّى !

إن أطَعْتَنِي شَكَرْتُك ، وإن ذكَرْتَنِي ذكرتُك ، وإن خَطَوْتَ لأَجْلِي خطوةً ملأْتُ السمواتِ والأرضين من شكرك :

لو عَلِمْنا أنَّ الزيارةَ حقٌّ لفَرَشْنَا الخدودَ أرضاً لترضى

قوله جل ذكره : « وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا رَبَّه
منيباً إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَه نعمةً منه نَسِيَ
ما كان يدعو إليه مِنْ قَبْلُ وجعل
لله أنداداً » .

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَع ، وإلى قُرْبه فزع ، وتملَّق بين يديه وتضرع . فإذا أزال عنه ضُرَّه ، وكفاه أمرَه ، وأصلح شغْلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، فيعود إلى رأس كفرانه ، وينهمك في كبائر عصيانه ، ويُشْرِكَ بمعبوده . هذه صِفَتُه . . . فَسُحْقاً له وبُعْداً ، ولَسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً
وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ
ربِّه[1] ... » .

« قانتاً » : القنوتُ هو القيامُ ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار ؛ أي في جميع الأوقات .

والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذِكْرُه ؟ أي ليس كذلك .

ويقال القنوتُ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير . « يَحْذَرُ » العذابَ الموعودَ في الآخرة ، « ويرجو » الثوابَ الموعودَ . وأراد بالحَذَرِ الخوف .

« قُلْ هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون إنَّما يَتَذَكَّرُ أولو
الألباب » .

---

(١) قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
وقال ابن عمر : نزلت في عثمان بن عفان .
وقال مقاتل : نزلت في عمار بن ياسر .

(أسباب النزول للواحدي ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا فى أعلى الفضائل وهذا فى سوء الرذائل ! « الذين يعلمون » : العِلْمُ فى وصف المخلوق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الربِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان ؛ فالعلومُ الدينية كلُّها برهانية إلَّا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربَّكُم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ وأرضُ اللهِ واسِعةٌ إنَّما يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهم بغير حساب » .

أطيعوه واحذروا مخالفةَ أمره . « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان)[1] .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعَلَّلوا بأذى الأعداء ؛ إنْ نَبَا بكم منزلٌ فتَمَلَّكُم بعاداة قوم ومَنْعِهِم إياكم — لا يُسْمَع ، فأرضُ اللهِ واسعةٌ ، فاخْرُجُوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتُكم[2] .

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس .

ويقال هو التهدُّفُ[3] لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا له الدين » .

---

(١) تأخر ما بين قوسين فجاء بعد (السهام البلاء) فوضعناه فى هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح « أحسنوا » .

(٢) يقول القشيرى فى إحدى وصاياه للمريدين حاثاً على السفر : «إن ابتلى مريد بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استنامة إلى معلوم و ليس هناك شيخ يدله على ما به يتخلص من ذلك فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ليشوش على نفسه تلك الحالة» (الرسالة ص ٢٠٢) .

(٣) التهدف = الدنو والاستقبال .

مضى القولُ فى معنى الإخلاص . وفى الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه »[1] .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان ، ولا يطَّلِعُ علية المَلَكان .

« أُمِرْتُ أن أعبد الله .. » أُمِرْتُ لأن أكون أولَ المسلمين فى وقتى وفى شرعى . والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنِّى أخافُ إن عَصَيْتُ ربِّى عذابَ يومٍ عظيم » .

أخاف أصنافَ العذابِ التى تحصل فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : « قُلْ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا له دينى * فاعبدوا ما شِئْتُم مِنْ دونِه قُلْ إنَّ الخاسرين الذين خَسِرُوا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامة أَلَا ذلك هو الخسرَانُ المبينُ » .

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران ، وهو الخزى والهوان . والخاسِرُ — على الحقيقة — مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى ، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى ، وخَسِرَ مولاه فلم يستبج منه فيما رأى .

قوله جل ذكره : « لَهُم مِنْ فَوقِهِم ظُلَلٌ من النارِ ومِنْ تَحْتِهم ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ اللهُ به عبادَه ياعبادِ فاتقونِ » .

أحاط بهم سُرَادِقُها ؛ فهم لا يخرجون منها ، ولا يَفْتُرُونَ عنها . كما أنهم اليومَ فى جهنم

---

(۱) أخطأ الناسخ فى ص إذ جعلها (ستر) بالتاء والصواب هى (سر) ، وقد ورد الخبر فى الرسالة هكذا : أخبر النبى (ص) عن جبريل عن الله سبحانه أنه قال : «الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى» (الرسالة ص ١٠٤) .

عقائدِهم؛ يستديم حجابُهم، ولا ينقطع عنهم عقابهم[1] .

« ذلك يخوِّف الله به عباده ... » إنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلَّا فبين يديك عقبة كَـؤُود .

قوله جل ذكره : « والذين اجتنبـوا الطاغوتَ أن يعبدوها[2] وأنابوا إلى اللهِ لهم البُشْرَى »

طاغوتُ كلِّ إنسانٍ نَفْسُه؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه، وعانَقَ رضا مولاه. وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى — وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النَّفْس .

« وأنابوا إلى الله » : أي رجعوا إليه في كل شيء .

قوله جل ذكره : « فَبَشِّر عبادِ[3] * الذين يستمعون القولَ فيَتَّبِعُون أحسنَهُ أولئك الذين هداهم اللهُ وأولئك هم أولو الألباب » .

« يستمعون القول » يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن . «أحسنه» : وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أعَزُّ أي عزيز . والثاني : الأحسن على المبالغة، والحَسَنُ ما كان مأذوناً فيه في صفة الخَلْقِ ويعْلَمُ ذلك بشهادة العلم[4] ، والأحسن هو الأَوْلى والأصوب . ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله .

---

(١) إن استيلاء الحب على قلب الصوفي يجعله ينظر إلى العقوبة في الآخرة على أنها أقل تعذيباً إذا قيست بعذاب الهجر والنأي، أو على حد تعبيرهم جهنم الاحتراق أخف من جهنم الفراق .. ولهم في ذلك أقوال جريئة كثيرة (انظر كتابنا : نشأة التصوف الإسلامي ط دار المعارف ص ٢٤٨) .

(٢) قال ابن زيد : نزلت هذه الآية في ثلاثة أنفار كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله، وهم زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي (الواحدي ص ٢٤٧) .

(٣) نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص وكان استماعهم لأبي بكر وهو يخبرهم بإيمانه (الواحدي ص ٢٤٧، ٢٤٨).

(٤) استخدم القشيري هذا المفهوم في تأييد وترخيص «السماع» بالمعنى الصوفي (الرسالة ص ١٦٦) .

ويقال إن للعبد دواعيَ من باطنه هي هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخواطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلقَى في الرَّوْعِ ؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصي ، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوتِ الأشياء من النَّفْس وأنَّ لها في شيء نصيبًا ، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَبِ ، وخطابُ الحقِّ في حقائق التوحيد .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » : —

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده ، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة[1] .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ حَقَّ عليه كلمةُ العذابِ أفأنت تُنْقِذُ مَنْ في النار » ؟

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان : فريقٌ حقت عليهم كلمةٌ بعذابهم في النار ، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم ، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان — وإن كانوا من أهل الإيمان[2] .

قوله جل ذكره : « لكن الذين اتقوا ربَّهم لهم غُرَفٌ مِنْ فوقها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ وَعْدَ الله لا يُخْلِفُ اللهُ الميعاد » .

وَعَدَ المطيعين بالجنَّـــةِ — ولا محالةَ لا يُخْلِف ، وَوَعَدَ التائبين بالمغفرة — ولا محالةَ يغفر لهم ، وَوَعَدَ المريدين بالوجود والوصول — وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه .

قوله جل ذكره : « ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماء

---

(١) (عقولهم غير معقولة) أي غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان ، فهذه هي المهمة الأساسية للعقل في نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت في الأصل (مقفولة) فيها أيضاً يستقيم المعنى .

(٢) نعلم أن كثيرين في أوساط أهل السنّة يعارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيمية وابن الجوزي .

فَسَلَكَه ينابيعَ فى الأرضِ ثم يُخْرِجُ به
زَرْعاً مختلفاً ألوانُه ثم يهيج فتراه مُصْفَرًّا
ثم يجعلُه حُطاماً إنَّ فى ذلك لذِكْرى
لأولى الألباب ».

أخبر أنه يُنْزِلُ من السماء المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضرّ، ثم يأخذ فى الجفاف، ثم يصير هشيماً.. والإشارةُ من هذا إلى الإنسان، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم فى آخره يخترم.

ويقال إن الزَّرْعَ مالم يأخذْ فى الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ، فالحبُّ هو المقصود منه.. كذلك الإنسان مالم يحصلْ من نَفْسِه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ.

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أَنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمَكِّنُ من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلمَّا استبان الصبحُ أدرج[1] ضوءه
بأنواره أنوارَ تلك الكواكبِ

قوله جل ذكره: « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلامِ
فهو على نورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ
قلوبُهم من ذِكْرِ اللهِ أولئك فى ضلالٍ مبين ».

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ... أى أَفمن شرح اللهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك؟

لمَّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — عن الشرح المذكور فيها، فقال: « ذلك نورٌ يُقْذَفُ فى القلب، فقيل: وهل لذلك أمارة؟

---

(١) أدرج الشىء أى أفناه (الوسيط). والمقصود أن أنوار مصابيح المعرفة الإنسانية تتلاشى وتفنى عند سطوع شمس الحقيقة. وقد وردت فى ص ٤٣ من الرسالة (أدرك) والصواب فى نظرنا (أدرج).

قال : نعم ؛ التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله[1] » .

والنورُ الذي مِنْ قِبَلِه — سبحانه — نورُ اللوائح بنجوم العلم ، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا فقد[2] ، ولا قُرْب[3] ولا بُعْدَ . . . كلاّ بل هو الله الواحد القهار[4] .

« فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين »[5] : أى الصابة قلوبهم ، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكِرَةِ الجَحْد . . أولئك فى الضلالة الباقية ، والجهالة الدائمة . .

قوله جل ذكره : « اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ[6]
كتاباً متشابهاً مثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ
الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تلين جلودُهم
وقلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ذلك هُدَى اللهِ

---

(١) أورد الغزالى هذا الخبر فى منقذه ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطْلَب منه الكشف ، وأنه ينبجس من النور الإلهى (المنقذ من الضلال ط القاهرة ص ٥٥) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قصد) بالصاد وهى خطأ فى النسخ ، فالوجد يقابله الفقد .

(٣) فى ص (ولا فرق) والصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعْد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الموقف هنا موقف (جمع) .. والمقصود اختفاء تقلبات التلوين ، والوصول إلى مرتبة التمكين ، أى الوصول إلى حال (جمع الجمع) .

(٤) تفيد هذه الفقرة فى فهم كثير من المصطلحات ، وهذه أول مرة نصادف القشيرى عبارة (بظهور الذات) لأنه فى مواضع كثيرة يلح على أن المشاهدة (للصفات كالجمال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلّت الصمدية — كما يقول — عن أن يستشرف منها مخلوق .

(٥) نزلت فى أبى لهب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (الواحدى ص ٢٤٨) واختار الطبرى القول بأن (مِن) فى الآية بمعنى (عن) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(٦) قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو حدّثتنا . . فأنزل الله عزّ وجل « اللهُ نَزَّلَ أحسن الحديث » فقالوا : لو قصصت علينا .. فنزل «نحن نقص عليك أحسن القصص»

يَهْدِى به مَنْ يشاء وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ
فمَا لهُ من هادٍ ».

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق[1]

« كتابا متشَابِهاً » فى الإعجاز والبلاغة .

« مثَانى » : يثنى فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة ، وَيشتمل عَلَى نوعين : الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربَّهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأُنْس ، ويقال بالتجلِّى والاستتار[2] .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ يتقى بوجهه سوءَ العذابِ
يومَ القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كُنْتُم
تكْسِبون » .

أى فَمَنْ يتقى بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك ؟ وقيل إنَّ الكافرَ يَلْقَى النارَ أوَّلَ ما يلقاها بوجهه ؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً . فأمَّا المؤمن فيُوقَى ذلك ؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة ؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَ الذين مِنْ قَبلِهِمْ فأَتَاهم
العذابُ مِنْ حيث لا يَشْعرُون » .

---

(١) سُمِّى القرآن حديثاً لأن الرسول (ص) كان يُحَدِّث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فبأى حديثٍ بعده يؤمنون » وقوله : «أفَمِنْ هذا الحديث تعجبون» ويُخَطِّىءُ أهلُ السُّنَّةِ مَنْ يستند فى أن القرآن مخلوق إلى أن « الحديث » من الحدوث فالكلام مُحْدَثٌ فقالوا : الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى .

(٢) يستفيد الصوفية من هذه الآية فى تدعيم نظريتهم فى « السماع » والتأثرات النفسية والعضوية الناجمة عن تقلب الأحوال .

أَشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً ، كما أَنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً .

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع ، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً فى القلب ، وفى معناه قلنا :

فَبِتَّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ
وأَصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة ، قال قائلهم :

بينما خاطر المُنى بالتلاقى سابح فى فؤاده وفؤادى
جَمَعَ اللهُ بيننا فالتقينا هكذا صُدْفةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : « ولَقَدْ ضربنا للناسِ فى هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ لعَلَّهم يتذَكَّرون * قرآناً عربياً غيرَ ذِى عِوَجٍ لَعلّهمْ يتقون » .

أى أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .

« غير ذى عوج » : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه .

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاءُ مُتشاكِسُون ورجلاً سَلَماً لِرُجلٍ هل يستويان مَثلاً الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون » .

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون .

« فيه شركاء متشاكسون » : فالصنم يدعى فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا يقول : أنا صَنَعْتُه ، وذلك يقول : أنا استعملْتُه ، وثالث يقول : أنا عَبَدْتُه .

أمّا المؤمن فهو خالِصٌ لله عزَّ وجل، يشبه « عبداً سَلَماً لرجل » أى ذا سلامة من التنازع والاختلاف .

ويقال « رجلاً فيه شركاء متشاكسون » تتجاذبه أشغال الدُّنيا، شُغْلُ الوَلَدِ وشغل العيال، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتِّتَةِ .

أمّا المؤمِن فهو خالصٌ لله ليس لأحد فيه نصيب؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شُغْل[1]، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها، وعَلَى الجملة فهو خالص لله، قال تعالى لموسى: « واصطنعتك لنفسى »[2] أى أبقيتُكَ لى حتى لا تصلح لغيرى .

« الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون »: الثناء له، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال .

قوله جل ذكره: « إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُون *
ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم
تختصِمون » .

نَعَاه — عليه السلام — إليه . ونَعَى المسلمين إليهم ففَزِعُوا بأجمعهم من مآتمهم[3]، ولا تعزية فى العادة بعد ثلاث . ومَنْ لم يَتفرَّغْ من مآتِمِ نفسه وأنواع همومه، فليس له من هذا الحديث[4] شمّة، فإذا فرغ قلبُه من حديث نَفْسِه، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخيرَ من ربِّه، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم، وأنشد بعضهم :

---

(١) لقيت الجنة من كبار الشيوخ مواقف لا يخلو التعبير عنها — عند من لا يفقهونها — الكثير من الاستغراب، من ذلك ما يقوله أبو يزيد البسطامى: ما الجنة ! لعبة صبيان ! ويقول: الجنة هى الحجاب الأكبر لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة، وكلُّ مَنْ سكن إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب .

(٢) آية ٤١ سورة طه .

(٣) هكذا فى ص وهى مقبولة لتناسب الخصومة التى سيترتب عليها فى الآخرة الاختصام .

(٤) يقصد حديث الفناء عن كل أرب وسبب، أى الفناء بالمعنى الصوفى .

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ
ولم أدرِ أنى بعد موتى أكتب

قوله جل ذكره : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذ جاءه أليس فى جهنَّم مثوًى للكافرين » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعَى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها ، قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة[1] » .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأمَّا المُدَّعِى الذى لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسِه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَذُقْها ولم يَجِدْها ، فأمَّا غيرُ المتحقق الذى يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذى يقول فى صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه[2] .

قوله جل ذكره : « والذى جاء بالصدقِ وصَدَّقَ به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك جزاءُ المُحْسنين » .

الذى جاء بالصدق فى أفعاله من حيث الإخلاص ، وفى أحواله من حيث الصدق ، وفى أسراره من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاء المحسنين » : الإحسانُ — كما جاء فى الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه . فَمَنْ كانت — اليومَ — مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، ومَنْ لا فلا[3] .

---

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار القشيرى فى مستهل رسالته قائلاً « .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية وزالت عنهم أحكام البشرية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ....» الرسالة ص ٣ .

(٣) روى مسلم عن جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه» ٦/٤٥٧ فيض القدير للمناوى «ومن كان بحالة لقى الله عليها » .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم أسْوَأَ الذى عَمِلُوا ويَجْزِيَهم أجرَهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون » .

مَنْ لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومَنْ كان معه إيمان : فإذا كُفِّرَ عنه أسوأَ ما عَمِلَه فأسوَأُ أعمالِه كبائرُه ؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن أعمالهم . وأحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة ، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام . ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثوابِ ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام[1] — وهذا استدلالٌ قوى .

قوله جل ذكره : « أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه . . » .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فاللهُ كافٍ عَبْدَه اليومَ فى عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنْعِ الشِّرْكِ عنه ، وغداً فى غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايتُه تامة وسلامته عامة .

قوله جل ذكره : « ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ قُـلْ أفرأيتم ما تَدْعُون من دون اللهِ إنْ أرادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رحمتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللهُ عليه يتوكَّل المُتَوَكِّلون » .

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته ، وماهو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك ، ثم طالَبَهم بذِكْرِ صفاتِ الأصنام التى عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم فى وصفها إلا بالجمادية ، والبُعْدِ عن الحياة والعِلْمِ والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلَّا استحيَيْتُم من إطلاق أمثال ذلك فى صفته ؟ .

---

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح القشيرى على هذا الرأى فى خاتمة تفسيره للآية السابقة وفى هذه الآية ، ولهذا الرأى أهميته فى مسألتين : خلود الجنة والرؤية .. فالمسألتان كان حولها جدلٌ كثير أشرنا إلى بعضه فى تعليقات سابقة .

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللهُ ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافِيَّ اللهُ المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، المتَفَضِّلُ عليَّ بما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قومِ اعملوا على مكانتِكم إنِّي عامِلٌ فسوف تعلمون * مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مُقيم » .

سوف ينكشف رِبْحُنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكم فلا شفيعَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا عليك الكتابَ للناسِ بالحقِّ فَمَنْ اهتدى فلِنَفْسِه ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها وما أنت عليهم بوكيل » .

مَنْ أحسن فإحسانُه إلى نَفْسِه اكتَسبَه[1] ، ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه — والحقُّ غنيٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بِزَلَّةِ مَنْ أعرض .

قوله جل ذكره : « اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِها والتي لم تَمُتْ في منامِها فيُمْسِكُ التي قَضَى عليها الموتَ ويُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكَّرُون » .

يقبض الأرواح[2] حين موتها ، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها ، فإذا نامت

---

(١) (اكتسبه) موجودة في م وسقطت في ص .

(٢) واضح هنا أن القشيري لا يكاد يميز بين (النفس) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في القالب) = البدن وهي محل الأخلاق المملولة (موجودة في الرسالة خطأ المعلومة) كما أن الروح لطيفة في القالب هي محل الأخلاق المحمودة.. والجميع إنسان واحد ،وكونهما بصفة=

فيقبض أرواحها[1] . وقبضُ الأرواح فى حال الموت بإخراج اللطيفة التى فى البدن وهى الروح ، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْمِ الغفـلةَ والغيبةَ فى مَحَالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قَبَضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ فى الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة ، والموتُ ينافى الإحساسَ والعلمَ . وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ فى محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقَبْضُ اللهِ الأرواحَ فى حال النوم وردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتـكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كانوا لا يَمْلِـكون شيئاً ولا يَعْقِلون » .

أى أنهم ـ وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُـكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار — فإنَّ اللهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلاَّ إذا أَذِنَ بها ، وإنَّ الذى يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : «وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزَّتْ قلوبُ

=اللطافة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة» ثم يعود بعدقليل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة فمنهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة فى القالب (اللطائف حـ٤ ص ٣٩)

وفى تقديرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كما في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبى سلمة وقد شق (= انفتح) بصره فأغمضه ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح خرجه ابن ماجه : «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة .... » وفى صحيح مسلم : قال «ص» : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها » .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونهما مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس محل المعلولات والروح محل المحمودات . .. وذلك ركن دام في مذهب القشيرى لم يتخل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو مذهب كثيرين من المتصوفة .

(١) قبض الروح عند النوم معناه ترقيها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ
الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

اشمأزَّت قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين من دونه استأنسوا إلى سماعه : —

« قل اللهم فاطرَ السموات والأرض
عالِمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين
عِبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون » .

عَلَّمَهَ — صلى الله عليه وسلم — كيف يثنى عليه — سبحانه[1] .

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغى من التنصُّل والتذلُّل ، وابتغاءِ العفْو والتفضُّل ، وتحقيقِ الالتجاء بِحُسْنِ التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم فى الآخرة فقال :

« ولو أنَّ للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً
ومِثْلَهُ معه لافتدوا به من سوءِ العذاب
يومَ القيامة » .

لافتدوا به .. ولكن لا يُقْبَلُ منهم ، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبِلَ منهم . كما أنهم لو بَكَوْا فى الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدةٍ -- اليومَ — يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبَدَا لهم من اللهِ ما لم يكونوا يحتسبون » .

فى سماع هذه الآية حسَرَاتٌ لأصحاب الانتباه .

---

(١) في صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شيء كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : «اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض. ... يختلفون » ، إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» .

وقال سعيد بن جبير : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ؛ قوله تعالى : «قل اللهم فاطر .... يختلفون » .

وفى بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار [فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ : مَنْ أنتم ؟ إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونُهم[1]] كانت مُزْرَقَّةً . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»[2] .

« وبدا لهم سيئاتُ ما كَسَبُوا وحاق بهم
ما كانوا به يستهزئون»

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاء مَكْرِهم .

قوله جل ذكره : « فإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَانا
ثُمَّ إذا خَوَّلناه نعمةً مِنَّا قال إنَّما أُوتيتُه
على عِلْمٍ بل هى فتنةٌ ولكنَّ أكثرهم
لا يَعْلَمُون » .

فى حال الضُّرِّ يتبرَّءون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاءَ وقعوا فى مغاليطهم ، وقالوا : إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : « بل هى فتنة » ولكنهم لم يعلموا ، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا ، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم ، فأصابهم شؤمُ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك .

قوله جل ذكره : « أو لم يعلموا أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يشاء ويَقْدِرُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقوم يؤمِنُون » .

---

(1) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة ٤٩٦ من النسخة ص
(2) عن مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات .
وقيل عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا .
أما القشيرى فيصرفها إلى المؤمنين العصاة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ، فهؤلاء على التأبيد وأولئك إلى حين .

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس فى الرزق : فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه رِزْقُه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير .

قوله جل ذكره : «قُلْ يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنْفُسِهِم
لا تقنطوا من رحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّه هو الغفورُ الرحيم »(1)

التسمية « بياعبادى » مَدْحٌ(2) ، والوصفُ بأنهم « أسرفوا » ذَمٌّ . فلمَّا قال : « يا عبادى » طمع المطيعون فى أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفعوا رءوسَهم ، ونكَّسَ العُصَاةُ رءوسَهم وقالوا : مَنْ نحن . . حتى يقول لنا هذا ؟ !

فقال تعالى : « الذين أسرفوا » فانقلب الحالُ ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رءوسَهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم ، والذين رفعوا رءوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهُم(3) .

ثم أزال الأعجوبةَ عن القسمة بما قَوَّى رجاءهم بقوله : « على أنفسهم » يعنى إنْ أسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت .

« لا تقنطوا من رحمة الله » : بعد ما قطعْتَ اختلافَك إلى بابنا فلا تَرفَعْ قلبك عَنَّا .

« إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً » الألف واللام فى « الذنوب » للاستغراق والعموم ، والذنوبُ جمع ذنب ، وجاءت « جميعاً » للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَغْفِرُ ولا أترك ، وأعفو ولا أُبْقِى .

---

(1) أورد الواحدى في أسباب النزول عدة اقوال بشأن من نزلت فيهم هذه الآية الكريمة ، ومن هذه الروايات : عن ابن عباس قال : نزلت في أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله . .

وقال ابن عمر : نزلت في عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فتركوا دينهم .

ويروى أنها نزلت في وحشى قاتل حمزة . (الواحدى ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(2) يقول الدقاق : ليس شيء أشرف من العبودية ، وقد سمى بها الحق نبيه (ص) فقال : سبحان الذى أسرى بعبده ، وقال : فأوحى إلى عبده ما أوحى — ولو كان اسم أجل من العبودية لسماه به . (الرسالة ص ١٠٠) .

(3) راجع ما قاله القشيرى فى قصة داود : (إنَّ زلَّةً أسفك عليها يوصلك إلى ربك أجدى عليك من طاعة إعجابك بها يقصيك عن ربك) . ويقول على بن أبى طالب : ما فى القرآن أوسع من هذه الآية . ويقول عبد الله ابن عمر : هذه أرجى آية في القرآن .

ويقال إنْ كانت لكم جِناية كثيرة عميمة فلى بشأنكم عناية قديمة[1].

قوله جل ذكره: « وأنيبوا إلى ربِّكم وأَسلِمُوا له مِنْ قَبْلِ أَنْ يأتيَكُمُ العذابُ ثم لاتُنْصَرُونَ » .

الإنابة الرجوع بالكلية . وقيل الفرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة ، وصاحبُ الإنابة يرجع استحياء لِكَرَمِه[2] .

« وأسلِموا له » : وأخلِصوا فى طاعتكم ، والإسلامُ — الذى هو بعد الإنابة — أَنْ يعلَمَ أَنَّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته ؛ فبفضله يصل إلى إنابته . . لا بإنابته يصل إلى فضله .

« من قبل أن يأتيكم العذاب » قبل الفراق . ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك .

قوله جل ذكره : « أَنْ تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطْتُ فى جَنْبِ اللهِ وإنْ كنتُ لَمِنَ السَّاخرين * أو تقولَ لو أنَّ اللهَ هدانى لكُنْتُ من المتقين * أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لى كَرَّةً فأكونَ من المُحْسِنين » .

يقال هذا فى أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم فى أحوالهم ، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم ، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة .

---

(١) واضح أن القشيرى يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين ، فمهما كانت الذنوب كثيرة فعفو الله أكبر وأشمل ، وبدا أن النص القرآنى يحتمل كل المحاولات التى يبذلها القشيرى بسماحته الصوفية الأصيلة .

(٢) ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله فى هذا الخصوص : «أولها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة» . ثم يعلق على ذلك قائلا : فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب — فهو صاحب أوبة . ويقال التوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون) ، والإنابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب) ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (نعم العبد إنه أواب) الرسالة ص ٥٠ .

أو يقول : لو أنَّ الله هدانى لكُنْتُ كذا ، ويقول آخر : لو أنَّ لى كَرَّةً فأكون كذا ، فيقول الحقُّ — سبحانه :

« بلى قد جاءَتْكَ آياتى فكَذَّبْتَ بها
واستَكْبَرْتَ وكُنْتَ من الكافرين » .

فَذُقْ من العذابِ ما على جُرْمِك استوجَبْتَ .

قوله جل ذكره : « ويومَ القيامةِ ترى الذين كَذَبُوا
على اللهِ وجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أليس فى
جَهَنَّمَ مثوىً للمتكبرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها ، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها ، وكفاهم افتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

ولمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قالت كَذَبْتَنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا ؟ !
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا
وتخرس حتى لا تجيب المناديا[1]

قوله جل ذكره : « ويُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا بِمفازَتِهِم
لا يَمَسُّهُم السوء ولا هم يحزَنُون » .

كما وَقَاهم — اليومَ — عن المخالفات ، حماهم — غداً — من العقوبات ، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين ؛ اليومَ عصمة ، وغداً نعمة . اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللهُ خَالِقُ كُلِّ شىءٍ » .

---

(١) ورد الشاهد الشعرى فى الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثانى هكذا ومتبوعاً بثالث :–
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا — وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى — سوى مقلة تبكى بها وتناجيا
وقد أورده صاحب اللمع على هذا النحو (اللمع ص ٣٢١) .

تدخل أكسابُ العباد فى هذه الجملة ، ولا يَدْخُل كلامُه فيه ؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته(١).

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السموات والأرض والذين كفروا بآياتِ اللهِ أولئك هم الخاسِرون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات ، فما يريد أَنْ يُوجِدَه أَوْجَدَه .

قوله جل ذكره : « قل أفغيرَ اللهِ تأمرونى أعْبُدُ أيها الجاهِلون » .

أى متى يكون لكم طَمَعٌ فى أن أعبدَ غيره . . وبتوحيده ربَّانى ، وبتفريده غَذَانى ، وبِشَرابِ حُبِّه سَقَانى ؟ !(٢).

قوله جل ذكره : « ولقد أُوحِىَ إليكَ وإلى الذين من قَبْلِكَ لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسِرين » .

لَئِنْ لاحظْتَ غيرى ، وأثْبَتَّ معى فى الإبداع سِوَاىَ أحْبَطْتَ عَمَلَكَ ، وأبطلْتَ سعيَكَ ، بل اللهَ — يا محمد — فاعْبُدْ ، وكُنْ من جملة عبادى الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون » .

---

(١) هذه إشارة خطيرة فى شأن الموضوعات الكلامية المتصلة بالفعل الإنسانى ، وبمسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبى للنشر) .

(٢) هذه هى التربية التى عناها القشيرى فى موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالتربية » .

ما عرفوه حَقَّ معرفته[1] ، وما وصفوه حقَّ وصفه ، وما عظَّموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَنْ اتصف بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيلٍ[2] حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّموا فى نَعْتِه الأجزاء ، فما قدروه حَقَّ قَدْرِه ؛ فالخَلْقُ فى قبضة قدرته ، والسموات مطويات بيمينه ، ويمينُهُ قُدْرَتُه[3] . ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويها فهو قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تنزيهاً له عما أشركوا فى وصفه .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السمواتِ ومَنْ فى الأرضِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قِيامٌ يَنْظُرونَ » .

فى النفخة الأولى تموتون ، ثم فى النفخة الثانية تُحْشَرُون ، والنفختان متجانستان ؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح ، وفى الأخرى حياة النفوس ، ليُعْلَمَ أن النفخة لا تعمل شيئاً لعينها[3] ، وإنما الجَبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وأَشْرَقَتِ الأرضُ بنُورِ رَبِّها ووُضِعَ

---

(١) أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والأرضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ، فأنزل الله تعالى : «وما قدروا الله حق قدره» (الواحدى ص ٢٥٠) .

(٢) (التعطيل على ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع - سبحانه - عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافى ص ٩٠ لابن القيم ط التقدم) .

(٣) نحسب أن من دواعى التأويل أن الله سبحانه وتعالى قد يخاطبنا عن ذاته وصفاته بما نتخاطب به فيما بيننا حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك فى وضوح فقد عبر عن قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أن الله يقدر على قبض الأرض وجميع ما فيها قدرة أحدنا على ما يحمل بأصبعه .

(٣) كلام القشيرى عن تجانس النفختين واختلاف تأثيرهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السوقين واختلاف وجهتيهما .. مقصود منه - كما نظن - أن القياس الإنسانى ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : «مطويات بيمينه» ، ونسبة الوجه واليد والعين .. ونحو ذلك لله سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان من هذه الماديات ، فالكلمة هى الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيرى .. ولكن هكذا نظن .

الكتابُ وجيء بالنبيين والشهداء
وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وهم لا يُظْلَمون » .

نور يخلقه فى القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضىء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكُفَّارُ يَبْقَوْن فى الظلمات ، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها . ويقال غداً أنوار التولِّى للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلِّى للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يفعَلُونَ » .

إن كان خيرًا فَخَيْرٌ ، وإن كان غير خَيْر فغيرُ خير .

قوله جل ذكره : « وسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّم زُمَراً
حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم
خَزَنَتُها ألم يأتِكم رُسُلٌ منكم يتلون
عليكم آياتِ ربِّكمُ ويُنْذِرُونَكم لقاءَ
يومكمُ هذا قالوا بلى ولكن حَقَّتْ كلمةُ
العذابِ على الكافرينَ » .

الكفار يُسَاقُون إلى النار عنفاً ، والمؤمنون يُسَاقون إلى الجنة لُطْفاً ؛ فالسَّوْقُ يجمع الجنسين . . ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق ! .

فإذا جاء الكفارُ قابلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم ، ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْىٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان .

قوله جل ذكره : « وسيق الذين اتقوا ربَّهُم إلى الجنة
زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها
وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم طِبْتُم
فادْخلُوها خالِدِين » .

سَوْقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ ، سَوْقٌ ولكن بِرَوْحٍ وطَرَبٍ .

« زمراً » جماعاتٍ ، وهؤلاء هم عوامٌّ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[1] وفوقهم مَنْ قال فيهم : « وأُزْلِفَتْ الجنة للمتقين غير بعيد »[2] وفَرْقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة ، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة . . هؤلاء الظالمون ، والآخرون المقتصدون ، والآخرون السابقون[3] .

« حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . . . . » وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق ، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم فى الجنة بكثير ؛ فلَهَمُ معه فى الطريق قَوْلُ « طِبْتُم » ؛ أى أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ للهِ الذى صَدَقَنَا وعْدَه وأورثنا الأرضَ نَتَبَوَّأُ من الجنةِ حيث نشاء فنِعْمَ أجرُ العَامِلينَ » .

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة ، وإكمال المِنَّة .

« وأورثنا الأرضَ » أى أرضَ الجنة ؛ نتبوأ منها حيث نشاء . وهؤلاء قوم مخصوصون ، والذين هم قومُ « الغُرَف » أقوام آخرون .

قوله جل ذكره : « وترى الملائكةَ حافِّين مِنْ حول العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربِّهم وقُضِيَ بينهُم بالحقِّ وقيل الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين » .

يُسَبِّحون بحمد ربهم فى عموم الأوقات . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش . وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات . . إلى غير ذلك من فنون الحالات . وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً فى مقاماتهم على ما أراده الحقُّ فى عباداتهم .

---

(١) آية ٨٥ سورة مريم . (٢) آية ٣١ سورة ق .

(٣) إشارة إلى الآية : «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات» (آية ٣٢ سورة فاطر) .

سورة المؤمن [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةُ مَنْ تحقَّقَ بها شَرُفَ من الحقِّ مَنَالُه ، وصفت عنده أحواله ، وخَلَعَ عَلَى نَفْسِه رداءَ الأفضَال ، وألبَسَ قلبَه جَلالَ الإقبال ، وأفرد رُوحَه برَوْحِ لُطْفِ الجمال ، واستخلص سِرَّه بِكَشْفِ وصفِ الجلال .

قوله جل ذكره : « حَـم »

أى حُمَّ أمرٌ كائن[2] .

ويقَال « الحاء » إشارة إلى حِلْمِه ، « والميم » إشارة إلى مجده أى : بحِلْمى ومجدى لا أُخَلِّدُ فى النار مَنْ آمنَ بى .

ويقال هذه الحروف (مفاتح أسمائه)[3] .

« تنزيلُ الكتابِ مِنْ اللهِ العزيزِ العليمِ » .

---

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطَّوْل ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : «وقال رجلٌ مؤمن» (السيوطى : الإتقان حـ ١ ص ٥٤) .

(٢) أى قُضِى ووقع ، قال كعب بن مالك :

فلمَّا تلاقيناهم ودارت بنا الرَّحى — وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ

أو تكون بمعنى قَرُبَ كما قال الشاعر

قد حُمَّ يومى فَسُرَّ قومٌ — قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونومٌ

(٣) ما بين القوسين سقط من ص ، وهى موجودة فى م .

عن أنس أن أعرابياً سأل النبى (ص) ما حم ؟ فإنا لانعرفها فى لساننا ، فقال النبى (ص) : « بدء أسماء وفواتح سور» .

« العزيز » : المُعزّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه عِلمُه بما سَلَفَ منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره : « غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ
شديدِ العقابِ ذى الطَّوْلِ لا إلهَ
إلا هُو إليهِ المصيرُ » .

كتابٌ مُعنوَنٌ بقبول توبته لِعِبَاده ؛ عَلِمَ أنّ العاصىَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه ، فقدَّم اسمَهُ عَلَى قبول التوبة . فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبَان الرجاء ؛ وهما قولُه : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقبهما بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال بعدئذ « ذى الطول » .
فيُقَابِلُ قوْلَه : « شديد العقاب » قوْلُه : « ذى الطَّوْل » .

(ويقال : غافرُ الذنبِ لِمَنْ أَصَرَّ واجْتَرَمَ ، وقابلُ التوب لمن أقَرَّ وَندِمَ ، شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ ، ذِى الطول لمن عَرَفَ ووَحَدَ)(١) .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمقتصدين ، شديد العقاب للمشركين ، ذى الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ اللهِ أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدارَكَ قلوبَهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَينِ أو بِوَصفَيْنِ(٢) .

« إليه المصير » : وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فى آياتِ اللهِ إلاَّ
الذين كَفَروا فلا يَغرُرْكَ تَقَلُّبُهمْ فى
البِلادِ » .

---

(١) مابين القوسين بأجمعه ساقط من ص وموجود فى م .

(٢) وهذه آية كرمه سبحانه .

إذا ظَهَر البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلَمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان .

فأمَّا أهلُ الكفرِ فاهم عَلَى الجحود إصرارٌ ، وشُؤْمُ شِرْكِهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف . . . وكذلك مَنْ لا يحترمون أولياءَ الله ، ويُصِرُّون عَلَى إنكارهم ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، ويجادلون فى جَحْدِ الكرامات ، ومَا يخصُّ اللهُ به عبادَه من الآيات . . . فهؤلاء لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم ، وسيفتضحون كثيراً .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قومُ نُوحٍ
والأحزابُ مِنْ بَعْدِهِم، وَهمَّتْ كُلُّ
أمةٍ برسولهم ليأخذُوه وجادَلوا بالباطل
ليُدْحِضُوا به الحقَّ فَأَخَذْتُهمْ فكيف
كان عِقَاب».

كذلك مَنْ انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهمْ ، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — انتقم منهم ، وعَلَى كُفْرِهم اخترمهم .

والمُنْكِرُ لهذا الطريق[1] يدين بإنكاره ، ويتقرّبُ إلى الله به ، ويعد وقيعته فى أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته ، ولكن الله — سبحانه — يعذبهم فى العاجل بتخليتهم فيما هم فيه ، وصَدِّ قلوبهم عن هذه المعانى ، وحرمانهم منها .

قوله جل ذكره : « وكذلك حَقَّتْ كلمةُ ربِّكَ عَلَى
الذين كفروا أَنَّهم أصحابُ النار » .

إذا انحتم عَلَى عبدٍ حُكْمُ اللهِ بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يورَدُ عليه من النُّصح . . والله عَلَى أمره غالبٌ . ومَنْ أَسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصُه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية .

قوله جل ذكره : « الذين يَحْملون العَرْشَ ومَنْ

---

(١) يقصد الطريق الصوفى .

حَوْلَه يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربِّهم ويؤمِنُون
به وَيَسْتغفِرُونَ للذين آمنوا رَبَّنا
وَسِعْتَ كُلَّ شىء رحمَةً وعِلْماً فاغْفِرْ
للذين تابوا وَاتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ
عذابَ الجحِيم » .

حَمَلةُ العرش مَنْ حَوْلَ العرش مِنْ خواص الملائكة[1] ، مأمورون بالتسبيح لله ، ثم بالاستغفار للعاصين — لأنَّ الاستغفارَ للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب — ويجتهدون فى الدعاء لهم على نحو مافى هذه الآية وما بعدها ؛ فيدعون لهم بالنجاة ، ثم بِرَفْعِ الدرجات ، ويحيلون الأمر فى كل ذلك على رحمةِ الله .

قوله جل ذكره : « رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنات عَدْن
التى وَعَدْتَهُمْ ومَنْ صَلَحَ مِنْ
آبائِهم وَأزواجِهمْ وَذُرِّيَاتِهم إنَّكَ
أنت العزيزُ الحكيم * وَقِهِم
السيئاتِ وَمنْ تَقِ السيئاتِ يومئذٍ
فقدْ رَحِمْتَه وذلك هو الفوز العظيم » .

« وَمنْ تَقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رَحمته » : فلئن سَلَّطَ عليك أَراذِلَ مِنْ خَلْقِهِ — وهُم الشياطين — فلقد قَيَّضَ بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِهِ ومن الملائكة المقرَّبين

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ
اللهِ أكبرُ مِنْ مقتِكُمْ أنفُسَكُمْ
إذ تُدْعوْنَ إلى الإيمانِ فتَكفرُون » .

أشَدُّ العقوباتِ التى يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخْطِهِ وغضَبِه ، وأَجَلُّ النِّعم

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله (ص) : «أذن لى أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» ذكره البيهقى ، وقال : هو أعظم المخلوقات .

التى يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم . فإذا عَرَفَ الكافرُ فى الآخرة أنّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شىء أصعبُ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه ، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ ، ولا تُرْجَى له حيلة .

قوله جل ذكره : « قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثنتين وأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفْنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل » .

الإماتةُ الأولى إماتَتُهم فى الدنيا ثم فى القبر يحييهم ، ثم يميتهم فهى الإماتةُ الثانية . والإحياء الأول فى القبر والثانى عند النشر[1] .

« فاعترفنا بذنوبنا » : أقروا بذنوبهم — ولكن فى وقتٍ لا ينفعهم الإقرار .

« فهل إلى خروجٍ من سبيل » مما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ . فيُقال لهم : —

« ذَلِكُمْ بأنه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرْتُم وإِنْ يُشْرَكْ به تُؤْمِنوا فالْحُكْمُ للهِ العليِّ الكبير » .

أى تُصَدِّقوا المشركين لِكُفْرِهم . [وهؤلاء إماتَتُهم محصورة ، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم فى كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ ، قال قائلُهم :

أموت إذا فَقَدْتُكَ ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ !

فإنّ الحقَّ — سبحانه — يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء ،

---

(1) هذا الرأى يذهب إليه السُّدِّى أيضاً ، وإنما إحياؤهم فى القبور للمسألة ، ومن هذا استدل العلماء على سؤال القبر .

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، فلو كان الثواب والعقاب للروح — دون الجسد — فما معنى الإحياء والإماتة ؟

ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة والضحاك إلى أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم . ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان .

والحياة والموت ، والمحو والإثبات][1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكم آياتِهِ ويُنَزِّلُ لَكُمْ من السماء رِزْقًا وما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » .

يُرِيهم آياتِ فَضْلِهِ فيما يُلاطِفُهم ، ويريهم آياتِ قَهْرِهِ فيما يكاشفهم ، ويريهم آياتِ عَفْوِهِ إذا تَنَصَّلُوا[2] ، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا ، وآياتِ جلالِهِ إذا هابوا فغابوا ، وآياتِ جمالِهِ إذا آبوا واستجابوا . « وينزل لكم من السماء رزقا » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات)[3] .

« وما يتذكَّر إلّا مَنْ يُنيب » : يرجع من العادة إلى العبادة ، ومن الشَّكِّ إلى اليقين ، ومن الخَلْقِ إلى الحقِّ ، ومن الجهل إلى العِلْم ، ومن النَّكِرَةِ إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فادْعُوا اللهَ مُخْلِصين له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرون » .

شَرْطُ الدعاءِ تقديم المعرفة لتعرفَ مَنْ الذى تدعوه ، ثم تدعو بما تحتاج إليه مِمَّا لا بُدَّ لكَ منه ، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدرى ؟ والواجبُ ألا تطلب شيئا تكون فيه مخالفةٌ لأمره ، وأَنْ تتباعَدَ عن سؤالك الأشياءَ الدِّينيَّة والدنيوية ، وأَنْ ترضى بما يختاره لكَ مولاكَ . ومن الإخلاص فى الدعاء ألّا ترى الإجابةَ إلّا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقا إلا بفضله ، وأَنْ تعلمَ أنه إنْ بَقِيتَ فى سؤالك عن مطلوبك — الذى هو حَظُّكَ — لا تَبْقَ عن عبادة ربِّك — التى هى حَقُّه ؛ فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة ، ومن الإخلاص فى الدعاء أَنْ

---

(١) فالموت بالقبض والفناء والمحو ، والحياة بالبسط والبقاء والإثبات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلاؤم تقايب الأحوال مع الإماتة والإحياء وكنا نريد أن نضعه فى مكانه حسبما رأينا لولا أنه موضوع هنا فى م و ص . ويبدو أن القشيرى اعتبر الآيتين كيانا عضويا واحداً ، فجاءت الإشارة منهما جميعا .

(٢) أى تنصلوا من ذنوبهم .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

تكونَ فى حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُرْماً لك ، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك .

قوله جل ذكره : « رفيعُ الدرجاتِ ذو العَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِه على مَنْ يشاء مِنْ عباده لِيُنْذِرَ يومَ التلاقِ » .

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة[1] ، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوى الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بتنقيهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم فى الجنة ، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم فى الدنيا ؛ فيرفع درجاتِهم عن النظر إلى الكونَيْن دون المساكنة إليهما . وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاء محبوبهم[2] .

« ذو العرش » : ذو المُلْكِ الرفيع . ويقال العرش الذى هو قِبْلَةُ الدعاء ، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظَمَها جُثة[3] .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روحٌ بها ضياء أبدانهم — وهو سلطانُ عقولهم ، وروحٌ بها ضياء قلوبهم — وهو شفاء علومهم ، وروحٌ بها ضياء أرواحهم

---

(١) واضح أن القشيرى لايكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام العصاة حتى لايقنطوا من رحمة الله .. وهذا نابع من سماحته الصوفية الأصيلة .

(٢) هنا نلاحظ أن القشيرى جعل المحب أعلى درجة من العارف – مع أن العرفان الذى غايته التوحيد – هو أعلى مراتب الطريق الصوفى . ولكن نظراً لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب التصوف كالقشيرى والغزالى وغيرهما لايتقيدون تقيداً حرفياً بهذا الترتيب الذى يفيد فى الدراسة فقط ، وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف» فى مقدمة باب «المذاقات» .

(٣) نلاحظ أن القشيرى هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (.... وأعظمها جثة) بمعنى أن يجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس على قدر فهومهم – كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيرى يعبر عن شىء من الاضطراب الذى أصاب الأشاعرة إزاء المتشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل فى كتابنا (الإمام القشيرى – تصوفه وأدبه) ... ولعل خير ما انتهى إليه الرازى قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شىء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها» (أساس التقديس للرازى ط الكردى ص ٢٢٣) .

— والذى هو للرُّوح رَوْحٌ — بقاؤهم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاء الخلق ،وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يوم هُم بارِزونَ لا يَخْفَى على اللهِ منهم شىءٌ » .

يعلم الحاصل الموجود ، ويعلم المعدوم المفقود ، والذى كان والذى يكون ، والذى لا يكون مما عَلِمَ أنه لايجوز أن يكون ، والذى جاز أن يكون أَنْ لو كان كيف كان يكون .

« لِمَنْ المُلْكُ اليومَ للهِ الواحــدِ القَهَّارِ » .

لا يتقيد مُلْكُه بيومٍ ، ولا يختصُّ مُلْكُه بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ — اليومَ — لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « اليومَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليومَ إِنَّ اللهَ سريعُ الحساب »

يجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى محبتهم بالرؤية .

ويجازى المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

« لا ظلمَ اليوم » : أى أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أَنْ يفعلَه . « وهو سريع الحساب » مع عباده ؛ لايشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحساب مع أوليائه فى الحال ؛ يطالبهم بالصغير والكبير ، والنقير والقطمير .

قوله جل ذكره : « وأنذِرهم يومَ الآزفة إذِ القلوبُ لدى

الحناجرِ كاظمين ما للظّالمين مِنْ حَمِيمٍ
ولا شفيعٍ يُطَاع » .

قيامةُ الكلِّ مؤجلة ، وقيامةُ المحبين مُعجَّلة ؛ فلَهم فى كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العقاب والعذاب والثواب ، والبُعَاد والاقتراب ، وما لم يكن لهم فى حساب[1] ، وتشهد عليهم الأعضاء ؛ فالدمعُ يشهد ، وخَفَقَانُ القلبِ ينطق ، والنحولُ يُخْبِر ، واللونُ يُفْصِح . . . والعبدُ يَسْتُرُ ولكن البلاءَ يَظْهَرُ :

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتى لَّما بَدَا   لجميعِ ما ظنُّوا بنا تصديقًا[2]

وأنشدوا :

لى فى محبتــــه شهودٌ أربعٌ   وشهودُ كلِّ قضيـــة اثنان
ذوبانُ جسمى وارتعادُ مفاصلى   وخفوقُ قلبى واعتقالُ لسانى

وقلوبُهم — إذا أَزِفَ الرحيلُ بَلَغَتْ الحناجر ، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودى بالرحيل وشُدَّت الرواحل .

قوله جل ذكره : « يعلم خائِنَةَ الأعيُنِ وما تُخْفِى الصدورُ » .

فخائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً ، ولهذا قالوا :

يا قُرَّة العينِ : سَلْ عينى هل اكتحلت
بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِى ؟

ولذلك قالوا :

فعينى إذا استحسنَتْ غيرَكُمْ   أَمَرْتُ السُّهادَ بتعذيبها

(١) أى وما لم يخطر لهم ببال .

(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن : يأيها الذى تتغير صورتى عند تجليه علىّ ، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى ، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين .

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات فى أوقات المناجاة ؛ وقد جاء فى قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتى ، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنِّى !

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم .

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت فى الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأى وجهٍ كان ، ففى الخبر: « حُبُّكَ الشىء يعمى ويصم » .

« وما تخفى الصدور » : فالحقُّ به خبير[1] .

قوله جل ذكره : « واللهُ يقضى بالحقِّ والذين يَدْعُون مِنْ دونِه لا يَقْضُونَ بشىء إنَّ اللهَ هو السميعُ البصير » .

يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يومَ القدوم بعَزْلِ عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سِكَّةِ[2] الأحبابِ فى صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبْرة لينظرَ إليه أهلُ الحضْرَة .

قوله جل ذكره : « أوَلَم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا مِنْ قَبْلِهِم كانوا هم أشَدَّ منهم قوةً وآثاراً

(١) كان عبد الله بن أبى سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جىء به إلى الرسول (ص) بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلا ثم قال : «نعم» ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن النبى لا تكون له خائنة أعين » .

(٢) السكة = الطريق المستوى .

في الأرضِ فأخذهم اللهُ بذنوبِهم
وما كان لهم مِنَ اللهِ من واقٍ » .

أو لم يسيروا فى أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقَها ومغاربَها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها ؟ أو لم يسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجَولاَن الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلِّى فيستبصروا بها ؟ أو لم يسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية ليستهلكوا فى سلطان الحقائق ، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها ؟ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّهم كانت تأتيهم رُسُلُهم
بالبيناتِ فكفروا فأخَذَهُم اللهُ إنَّه قوىٌّ
شديدُ العقاب » .

إنْ بغى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِه اعتراضٌ خَامَرَ قلبَه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته ؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين .وفى الخبر : « الشيخُ فى قومه كالنبىِّ فى أمته »[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين * إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ
فقالوا ساحِرٌ كَذَّابٌ » .

أَكْرَمُ خَلْقِه فى وقته كان موسى عليه السلام ، وأَخَسُّ خَلْقِه وأَذَلُّهم فى حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون ؛ فما قال أحدٌ غيرَه : « ما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غيرى »[2].

فبَعَثَ اللهُ — أخصَّ عِباده إلى أخسِّ عِباده ، فقابله بالتكذيب ، ونَسَبَهُ إلى السِّحر ،

---

(١) يقول السهروردى فى عوارفه : «وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله (ص) وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ص٢٩٣) عوارف المعارف ، وفى موضع آخر يقول : «فليعلم المريد أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام . ص ٢٨٥ .

(٢) آية ٣٨ سورة القصص .

وأنَّبَهُ بكل أنواع التأنيب . ثم لم يُعَجِّلْ اللهُ عقوبتَه ، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه — إنه سبحانه حليمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءَهم بالحقِّ مِنْ عندنا قالوا اقتلوا أبناءَ الذين آمنوا معه واستَحيُوا نِساءَهم وما كيدُ الكافرين إلاَّ في ضلال » .

عَزَمَ على إهلاكه وإهلاكِ قومه ، واستعان على ذلك بجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه ، ولكن كان كما قال الله : « وما كيد الكافرين إلا في ضلال » ، لأنه إذا حَفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرِها ... بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ذروني أَقْتُلْ موسى ولْيَدْعُ ربَّهُ إِنِّي أخاف أن يُبَدِّلَ دينَكم أوأَنْ يُظْهِرَ في الأرضِ الفسادَ » .

« ولَيَدْعُ ربَّه » أي لِيَسْتَعِنْ بربه ، وإني أخاف أن يبدل دينكم ، وأخاف أن يُفْسِدَ في الأرض ، وكان المُفْسِدُ هو فرعون ، وهو كما قيل في المثل : « رَمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ » . ولكن كادَ له له الكيد ، والكائد لا يتخلص من كيده .

فاستعاذ موسى بربه ، وانْتُدِبَ في الردِّ عليهم مؤمنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانَه عن فرعون وقومه : —

« وقال رَجُلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتم إيمانَه أتقتلون رجلاً أَن يقولَ رَبِّيَ اللهُ وقد جاءَكم بالبيِّنَاتِ مِنْ ربِّكم وإنْ يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه وإنْ يكُ صادِقاً يُصِبْكم بعضُ الذي يَعِدُكُم إن اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هو مُسْرِفٌ كذَّابٌ » .. الآيات

نَصَحَهُم واحتجَّ عليهم فلم ينجعْ فيهم نُصْحٌ ولا قَوْلٌ . وكم كَرَّرَ ذلك المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ ! فلم يستمعوا له ، وكان كما قيل :

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقـــد يستفيد البغضة المتنصِّحُ

قوله جل ذكره : « ولقد جاءَكم يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبيناتِ
فما زِلْتُم فى شَكٍّ مِمَّا جاءَكم به حتى إذا
هَلَكَ قُلْتُم لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِه
رسولاً كذلك يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

بَيَّنَ أنَّ تكذيبهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل ، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ياهامانُ ابنِ لى صَرْحاً
لَعَلِّى أبلغُ الأسبابَ * أسبابَ السمواتِ
فأَطَّلِـعَ إلى إلهِ موسى وإنِّى لأَظُنُّه
كاذباً » .

السببُ ما يُتَوصَّلُ به إلى الشيء ؛ أى لعلِّى أصل إلى السماء فأَطَّلِـعَ إلى إله موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ فى السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزْياً لمذهبهم[1] . وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّمَ أنَّ المعبودَ فى السماء ، ولو كان فى السماء لَكَانَ فرعونُ مُصِيباً فى طَلَبِه من السماء .

قوله جل ذكره : « وكذلك زُيِّنَ لِفرعونَ سوءُ عَمَلِه
وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فِرعونَ
إلا فى تباب » .

أخبر أنَّ اعتقادَه بأنَّ المعبودَ فى السماء خطأٌ ، وأنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .

قوله جل ذكره : « وقال الذى آمَنَ يا قومِ اتبعونِ

---

(١) هنا يغمز القشيرى بالمشبهة غمزة قاسية (انظر ص ٣٤٥ من هذا المجلد) .

أَهْدِكُم سبيلَ الرشادِ * يا قوم إنما هذه
الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هى
دارُ القرارِ » .

أَصَرَّ على دعائه لهم وأَصَرُّوا على جحودهم وعُنُودِهم .

« مَنْ عَمِلَ سيئةً فلا يُجْزَى إلا مِثْلَها
ومَنْ عَمِلَ صالحًا من ذَكَرٍ أو أنثى
وهو مُؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ
يُرْزَقُونَ فيها بغير حِسَاب » .

« فلا يجزى إلا مثلها » : فى المقدار لا فى الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأةُ من الله عليها حسنةٌ وليست بسيئة .

« وهو مؤمن » يعنى فى الحال[1] ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً فى الحال لا يكون منه العملُ الصالحُ ، « فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقُون فيها بغير حساب » : أى رزقاً مؤبَّدًا مُخلَّدًا ، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل .

« ويا قومِ ما لِى أَدْعوكُم إلى النجاةِ
وتدْعُونَنى إلى النار » .

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْلِ مؤمنِ آلِ فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

« تدعـــوننى لأَكْفُرَ باللهِ وأُشْرِكَ به
ما ليس لى به عِلْمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ
الغفَّارِ » .

تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لى بصحة قولكم ، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

---

(١) فى الحال هنا معناها فى هذه الحياة الدنيا .

« لا جَرَمَ أنَّمَا تدعوننى إليه ليس له
دعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة وأنَّ مَرَدَّنا
إلى اللهِ وأَنَّ المسرفين هم أصحابُ النارِ »

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعوننى إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهى لا تنفع ولا تَضُرُّ . ولقـــد علمنا — بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ — كَذِبَكُم فيما تقولون .

« فَسَتَذْكُرون ما أقولُ لكم وأُفَوِّضُ
أمرى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ » .

أفوض أمرى إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

قوله جل ذكره : « فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ ما مَكَرُوا
وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ *
النارُ يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ،
ويومَ تقومُ الساعةُ أَدْخِلوا آلَ فرعونَ
أَشَدَّ العذابِ » .

والآية تدلُّ على عذاب القبر[1] .

ويقال إنَّ أرواحَ الكفار فى حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدوا وعشياً إلى يوم القيامة حيث تدخل النار[2] .

« أدخلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب » : أى يا آل فرعون أُدْخُلوا أشدَّ العذاب ، فنَصَبه على النداء المضاف . ويقرأ « أَدْخِلوا » على الأمر[3] .

(١) بدليل قوله تعالى فيما بعد عن عذاب الآخرة : «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وممن استنتج هذه النتيجة مجاهد وعكرمه ومقاتل ومحمد بن كعب .
(٢) أى هذا دأبها فى الدنيا تذهب فى الغداة أفواجاً أفواجاً بيضا صغاراً ثم تعود فى العشاء سوداً قد احترقت رياشها (الأوزاعى — والنص عند القرطبى حـ١٥ ص ٣١٩) .
(٣) فيكون الأمر عندئذ للملائكة العذاب .

« أشد العذاب » : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابٍ للكفار فى النار يأسُهم من الخروج عنها .
أمّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم فى النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاءِ المؤمنين ، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وإذ يتحاجُّون فى النار فيقولُ الضعفاء للذين استكبروا إنّا كُنّا لكم تبعًا فهل أنتم مُغْنُونَ عنّا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنّا كُلٌّ فيها إنّ اللهَ قد حكَمَ بين العبادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم وافقتمونا باختياركم[1] ؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد فى غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضيقِ صدورهم وبُغْضِ بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره : « وقال الذين فى النارِ لخزنةِ جهنّم ادعُوا ربّكم يُخَفِّفْ عنّا يوماً من العذابِ * قالوا أَوَلم تكُ تأتيكم رُسُلُكم بالبيناتِ قالوا بلى ، قالوا : فادْعُوا ، وما دُعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربِّهم[2] . ثم إن الله ينزع الرحمةَ عن قلوب الملائكة كى لا يستشفعوا لهم .

---

(١) لاحظ هنا كيف يحرص القشيرى على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه ينادى بأن الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجرى هذا من العبد فعلا ومن الله حكماً .

(٢) من ذلك نفهم أن القشيرى لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغى أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ » .

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظَّفَرَ وضِدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة[1] وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار[2] — أَنَّ التأثيرَ من الله ،وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتْفَه[3] تحقق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجرى عليهم أحكامُ القدرة ؛ فالوليُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلا الله ، قال تعالى : « الله وليُّ الذين آمنوا »[4] .

قوله جل ذكره : « يومَ لا ينفعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ » .

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم ، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسْنُ الدار ، ومابقى من هذه الدنيا إلا اليسير

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الهُدَى وأورثنا بنى اسرائيـلَ الكتابَ * هُدًى وذِكْرى لأُولى الألبابِ » .

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى .

---

(١) في ص (بالمغفرة) والملائم للسياق (بالمعرفة واليقين) كما جاء في م .

(٢) أي تكون معرفة ضرورية ، ونحن نعلم من مذهب القشيرى أن المعرفة في الابتداء كسبية (من العبد) وفي الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) في ص (حتقه) والملائم للسياق أنه يريد (حتف) عدوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فاْصبِرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ واْستغفِرْ لِذَنبِك وسَبِّحْ بِحَمْـدِ ربِّكَ بالعشىِّ والإبكارِ » .

الصبرُ فى انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فَمَنْ كان تصديقُه ويقينُه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى .

« إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ » : وهو — سبحانه — يُعْطِى وإنْ تَوَهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِى .

ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر[1] .

« واستغفر لذنبك » . وفى هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره لأمته لأنه قال فى موضع آخر « وللمؤمنين والمؤمنات »[2] وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حَمْلُ الذَّنْبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُجادِلون فى آياتِ اللهِ بغير سُلطانٍ أَتاَهُم إنْ فى صُدورِهِم إلاَّ كِبْرٌ مَّاهُم ببالِغِيه فاسْتَعِذْ باللهِ إنه هو السميعُ البصيرُ » .

« بغير سلطان » : أى بغير حجة .

« إنْ فى صدورهم إلا كبر » أى ليس فى صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق ، ويبقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

---

(١) لأن قوة الإنسان قد تنسيه ذكر المنعم فيصبر عنه — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان فى البلاء يدعوه إلى الصبر فى الله ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمذموم عواقبه　　　والصبر فى سائر الأشياء محمود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تفيد هذه الآراء عند بحث قضية كلامية هى : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ مِنْ خَلْقِ النـاسِ ولـكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون » .

أى خَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من بَعْثِهم وخَلْقهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميما ؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلْقِ السموات والأرض، وينكرون أمرَ البعث .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصيرُ والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ولا المسىء قليلاً ما تتذكّرون » .

أراد به : ما يستوى المؤمنُ والكافرُ ، ولا المربوُط بشهوته كالمبسوط بصفوته ، ولا المجذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته ، ولا المُرَقّى إلى مشاهدته كالمُبْقَى فى شاهده ، ولا المجدود[1] بسعادته كالمردود لشقاوته .

قوله جل ذكره : « إنّ الساعةَ لآتيةٌ لا ريْبَ فيها ولكنّ أكثرَ النـاسِ لا يؤمنُون » .

إنَّ ميقاتَ الحسابِ لكائنٌ وإنْ وقعت المدةُ فى أوانه[2] .

قوله جل ذكره : « وقال ربكم ادعونى أستَجبْ لكم إنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتى سَيَدْخُلون جَهنم داخرينَ » .

معناه : أدعونى أستجب لكم إنْ شِئتُ ؛ لأنه قال فى آيةٍ أخرى : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء »[3].

---

(١) جُدَّ فهو مجدود أى كان له حظ .

(٢) أى إن وقت الحساب لكائن مهما طالت المدة بيننا وبين وقت حصوله .

(٣) آية ٤١ سورة الأنعام .

ويقال ادعونى بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكلُ من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة ، وأسبابُه اللقمةُ الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له ، أو بشيء آخر هو خيرٌ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريكَ له .

ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو اللهِ ويسأله شيئاً إلا أعطاه فى الدنيا ، فأما فى الآخرة فيقول له : هذا ما طَلبْتَه فى الدنيا ، وقد ادْخرتُه لك لهذا اليوم حتى ليَتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً فى الدنيا قط .

ويقال ادعونى بالطاعات استَجبْ لكم بالثواب والدرجات .

ويقال أدعونى بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعونى بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل . ويقال ادعونى بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفاقة .

ويقال ادعونى بالسؤال أستجب لكم بالنّوَال والأفضال .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتى . . » أى يستكبرون عن دعائى ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم اللَّيلَ لتسكُنوا فيه ، والنهارَ مُبصراً »

... الآيات

سكونُ الناسِ فى الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم ، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة !

قومُ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسْطهم واستقلالهم ، وقومٌ يعدِمون القرارَ فى ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتياق . . . أبداً فى الاحتراق .

« ذلكم اللهُ ربكم » الذى جعل سكونكم معه ، وانزعاجكم له ، واشتياقكم إليه ، ومحبتكم فيه ، وانقطاعكم إليه .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم الأرضَ قَراراً والسماءَ بِناءً وصوّركم فأحسنَ صُوَرَكم » .

« صوّركم فأحسن صُوَرَكم » : خالقَ العرشَ والكرسيَّ والسمواتِ والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقلْ هذا الخطابَ ، وإنما قال لنا : « وصوّركم فأحسن صوَرَكم » وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسَنُ ما يستحسنه الحبيبُ :

ما حطكَ الواشون عن رتبةٍ عندى ولا ضرَّكَ مُغتابُ
كأنهم أثنَوْا — ولم يعلموا — عليكَ عندى بالذى عابوا

لم يَقُلْ للشموس فى تلألئها ، ولا للأقمار فى ضيائها : « وصوّركم فأحسن صوركم » .

ولمّا انتهى إلينا قال ذلك ، وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[1]

ويقال إن الواشين قبّحوا صورتكم عندنا[2] ، بل الملائكةُ كتبوا فى صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم . . ومولاكم أحْسَنَ صوَرَكم ، بأَنْ محا من ديوانكم الزّلاّت ، وأثبت بدلاً منها الحسناتِ ، قال تعالى : « يمحو الله مايشاء ويثبت »[3] ، وقال : « فأولئك يُبدِّل اللهُ سيئاتهم حسنات »[4] .

قوله جل ذكره : « ورَزَقكم من الطيِّبات » .

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفسُ إنما الطيب ما يستطيبُه القلبُ ، فالخبزُ

---

(١) آية ٤ سورة التين .

(٢) ربما يقصد القشيرى بذلك إبليس الذى استعلى بكونه مخلوقاً من نار على آدم المخلوق من الطين .

(٣) آية ٣٩ سورة الرعد .

(٤) آية ٧٠ سورة الفرقان .

القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنيّ المتَسَخِّط .

ورِزْقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لذاذات الطاعات .

قوله جل ذكره : « هو الحيُّ لا إله إلا هو فادعوه
مُخلصـــين لهُ الدينَ الحمـــدُ للهِ
ربِّ العالمين »

« هو الحيُّ » : الذى لا يموت ، ولا فَضْـلهُ يفوت ، فادعوه بلسان القوت ، وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنى نُهِيتُ أَنْ أعبُدَ الذين
تدْعُون مِنْ دونِ اللهِ لمـا جاءنىَ
البيِّنَاتُ مِنْ رَبى وأُمِرْتُ أَنْ أُسلِمَ
لِرَبِّ العاَلَمين »

قُلْ — يا محمد — إنى نُهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أى أُمِرْتُ بالتبرِّى عمَّا عبدْتم ، والإعراضِ عمّا به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلَقَنى ، وبالنبوة استَخصّنى .

قوله جل ذكره : « هو الذى خلقكُمْ مِنْ ترابٍ
ثمّ مِنْ نُطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم
يُخْرِجُكم طِفْلاً ثم لتبلغوا أشُدّكم ثم
لتكونوا شيوخاً . . »

فمن تُرْبَةٍ إلى قَطْرَةٍ ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقَةٍ . . ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم فى دنياكم . . ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً . .

وهو الذى يحيي ويميت ، ثم يبعث فى أخرى الدارين .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ إلى الذين يُجادلونَ

في آياتِ اللهِ أنى يُصْرَفون » .

في آيات الله يَتبلّدُون ؛ فلا حُجةَ يوردُون ، ولا عذابَ عن أنفسهم يَرُدُّون ، سيعلمون حينَ لا ينفعهم عِلمُهم ، ويعتذرون حين لا يُسْمَع عُذْرُهم ، وذلك عندما :

« إذِ الأغْلالُ في أعناقهم والسلاسلُ
يُسْحَبُون * في الحميم ثم في النار
يُسجَرُون » . . الآيات .

يُسْحبُون في النار والأغلالُ في أعنَاقهم ، ثم يُذَاقُون ألوانَ العذاب . . فإذا أقرُّوا بكفْرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثواهم ومصيرهم ، وساء ذهابُهم ومسيرهم .

قوله جل ذكره : « فاصْبر إنّ وعدَ اللهِ حَقٌ
فإمَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نعِدُهم أو
نَتوَفينَّكَ فإلينا يُرجَعُون » .

كُنْ بِقلبكَ فارغاً عنهم ، وانظرْ منْ بَعدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقنْ بأنه لا بقاء لجولة باطلهم . فإنْ لقيت بعضَ ما نتوعدُهم به وإلاّ فلا تكُ في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ . ثم أكّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله :

« ولقد أرسلنا رُسلاً مِنْ قَبلكَ منهم
مَنْ قَصَصْنا عليك ومنهم منْ لم
نَقْصُصْ عليك ، وما كان لرسولٍ أن
يأتىَ بآية إلا بإذنِ اللهِ فإذا جاء أمرُ
اللهِ قُضِيَ بالحقِّ وخَسِرَ هنالك
المُبْطِلُون » .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن فى وسع أحدٍ الإتيان بمعجزة إلا إذَا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذَا ما أردنا . فكذلك إنْ طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحْنا به العُذْر، وأوضحنا صِحّةَ الأمر . وما اقترحُوه ... فإنْ شئنا أظْهَرْنا ، وإنْ شئنا ترَكْنا .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جَعَل لكم الأنعامَ لِترْكَبُوا مِنهَا وَمِنهَا تأكلُونَ * ولكم فيهَا منافعُ ولتبلُغُوا عليها حاجةً فى صُدُوركم وعليها وعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلونَ * ويُريكم آياتِه فأَىَّ آياتِ اللهِ تُنكرُون »

ذَكّرَهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأَنعام ؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بهَا بالركوب والحَمْل والعمل ، ولتستقوا ألبانها ، ولتأكلوا لحومَها وشحومَها ، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها ... فعلى الأنعام وفى الفُلْكِ تَنْتقلون من صُقْعٍ إلى صُقعٍ . وَأنَا الذى يَسَّرْتُ لكم هذا ، وأنا الذى ألهمتكم الانتفاعَ به ؛ فَثقُوا فى ذلك واعرفوه .

قوله جَل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قبلهمْ كانوا أكثرَ منهمْ وأشدَّ قوةً وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكْسبون » .. الآيات

أمَرَهم بالاعتبار بمَنْ كانُوا قبلهُمْ ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكْثرَ أموالًا وأطولَ أعمَاراً ، فانجرُّوا فى حِبَالِ آمالهم ، فوقعوا فى وهْدَة غرورهم ، وما بقى الحقُّ

عن مراده فيهم ، واغتروا بسلامتهم فى مُدّةِ ما أرخينا لهم عنان إمهالهم ، ثم فاجأْنَاهُم بالعقوبة ، فلم يُعْجِزُوا اللهَ فى مُرادِه منهم .

فلمَّا رأوا شِدَّةَ البأْسِ ، ووقعوا فى مذلّةِ الخيبة واليأس تمَنّوْا أنْ لوْ أُعيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . فقابلهم الله بالخيبة[1] ؛ وخَرَطهم فى سِلكِ مَنْ أبَادَهم من أهل الشِّرْكِ والسّخْطِ .

(١) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضرورى ورؤية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

أفلح مَنْ عرف « بسم الله » ، وما ربح مَنْ بقى عن « بسم الله » .

مَنْ صحب لسانُه « بسم الله » وصحب جَنانُه « بسم الله » كفى له شفيعاً « بسم الله » إلى مَنْ يُعيذُنا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم » .

بحقى وحياتى ، ومجدى فى صفاتى وذاتى . . هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم .

قوله جل ذكره : « كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنا عربياً لقوم يعلمون » .

بُيِّنَتْ آياتُه ودلالاتُه .

« قرآناً عربياً لقوم يعلمون » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصارَ به للعالِمين — دون المُعْرِضين الجاحدين .

« بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرهُم فهم لا يَسمعُون » .

« بشيراً » : لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم .

« ونذيراً » : لِمَنْ أقصيناهم ، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم .

« فأعرض أكثرهم . . » عند دعائنا إياهم ، فهم مُثْبَتُون فيما أردناهم ، وعلى ذلك

(الوصف)[1] عَـلِمْناهم[2] .

قوله جل ذكره : « وقالوا قلوبُنا فى أ كِنةٍ مما تدعونا إليه وفى آذانِنا وَقْرٌ ومِنْ بينِنا وبَيْنِك حجابٌ فاعْمَلْ إننا عاملون » .

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرةٍ لـكان ذلك منهم توحيداً[3] ، فمُنُوا بالمَقْت لِمَا فقدوا من تحقيق القلب .

قوله جل ذِكرَه : « قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُـكُم يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهُـكُم إلَـهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه وويلٌ للمشركين * الذين لا يُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخـرةِ هم كافرون » .

إنما أنا بَشَرٌ مثلـكم فى الصورة والبِنْية ، والذات والخِلقَة . والفرقانُ بينى وبينـكم أنَّه يُوحَى إلىَّ أنما إلهـكم إله واحد ؛ فالخصوصية مِنْ قِبَلِه لا مِنْ قِبَـلِى ، ولقد بَقِيتُ فيكم عمراً ، ولقيتمونى دهراً . . فما عثرتم منى على غير صواب ، ولا وجدتم فى قولى شوب كذاب . وأمرى إليـكم أَنِ استقيموا فى طاعته ، واستسلِموا لأمره . . وطوبى لِمَنْ أجاب ، والويلُ لِمَنْ أصرَّ وعاب ! .

---

(١) سقطت (الوصف) من ص وهى موجودة فى م .

(٢) روى أن قريشاً اختارت عتبة بن ربيعة كى يعرض على النبى (ص) أن يكف عن سب آلهتها وتسفيه أحلامها مقابل رياسة أو مال .. الخ ، وظل يتحدث ، فى ذلك حتى انتهى ، وعندئذ سأله النبى (ص) : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .. فقال : إسمع .. بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت ....» إلى قوله تعالى : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبى وناشده ليسكتن ... ثم مضى إلى قريش فأنبأها بما سمع ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، لأن ما سمعه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر .. ثم أردف : ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لا يكذب ..

(٣) لأنه يكون حينئذ اعترافاً منهم بوجود غطاء من ظلمة البشرية يحجبهم عن حقيقة الأحدية ، ويكون اعترافهم بقصورهم بداية لاستمدادهم لفضل من الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أَجْرٌ غيرُ ممنونٍ» .

« آمنوا » : شاهدوا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا بِساطَ العبودية .

« آمنوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقفوا بالباب .

« آمنوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لهم أجر غير ممنون » : غير منقوص[1] ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرارِ دوام المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَئِنَّكُم لَتَكْفُرُون بالذى خَلَقَ الأَرضَ فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رَبُّ العالَمين » .

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان ، وخَلَقَ المكانَ ، ولم يكن قبله مكان ؛ فالحقُّ — سبحانه — كان ولا مكان ولا زمان ؛ فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ ، ولا يَمْلِكُه الزمان.

« وتجعلون له أنداداً » .. وكيف يكون الذى لم يكن ثم حصل[2] نِدًّا للذى لم يَزَلْ .. ولا يزال كما لم يزل ؟ ! ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وجَعَلَ فيها رواسِيَ مِنْ فوقِها وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعة أيامٍ سَوَاءً للسائلين » .

الجبالُ أوتادُ الأرضِ فى الصورة ، والأولياء أوتادٌ ورواسٍ للأرض فى الحقيقة .

---

(١) يقال منت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَقٍ على الصديق ولا خيرى بممنون

وقيل نزلت الآية فى المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

(٢) الذى لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون نداً للقديم الأزلى السرمدى ؟ !

« وبارك فيها » : البركةُ الزيادة . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

« وقدَّر فيها أقواتَها » : وجعلها مختلفةً فى الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار . وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوى إلى السماء وهى دُخَانٌ
فقال لها وللأرضِ ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً
قالتا أَتَيْنا طائعين »

« استوى » أى قَصَدَ ، وقيل فعل فعلاً هو الذى يعلم تعيينه[1].

ويقال رتَّبَ أقطارها ، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها .

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين » : هذا على ضربِ المَثَل ؛ أى لا يتعسَّر عليه شىء مما خلقه ، فله مِنْ خَلْقِه ما أراده . وقيل بل أحياهما وأعقلهما وأنطقهما فقالتا ذلك . وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاء ، والرغبةُ والرهبة . وفى القلوب ضياء العرفانِ ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ . والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره : « فقضاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ فى يومين
وأوحى فى كل سماء أمْرَها وزيَّنا السماء
الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقـديرُ
العزيزِ العليمِ ».

---

(1) تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا ؛ يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثانى ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (النسفى حـ٤ ص ٨٩) .

ومن قال إنه صفة ذاتية زائدة تكون على معنى استوى فى الأزل بصفاته (القرطبى حـ١٥ ص ٣٤٣)

وعلى الرأى الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعلى الثانى يكون من صفات الذات .

زيّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وزيّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هى قلوب الأحباب ؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضُوا فَقُلْ أنذرتُكُم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ »

أى أَخْبِرْ المُكَذِّبين لَكَ أنَّ لكم سَلَفاً . . فإن سلكتم طريقهم فى العناد ، وأبيتم إلاَّ الإصرار ألحقنا كم بأمثالكم .

« فأمَّا عادٌ فاستكبروا فى الأرضِ بغير الحقِّ وقالوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قوةً أوَ لَمْ يرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلَقَهم هو أشدُّ منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدُون » .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم ، واستمكنت منهم بلواهم .

« فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيامٍ نَحِساتٍ [1] لِنُذِيقَهُم عذابَ الخزى فى الحياةِ الدنيا ولَعَذَابُ الآخرةِ أَخْزى وهم لا يُنْصَرون » .

فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « وأمَّا ثمودُ فهديناهم فاستَحبُّوا العَمَى على الهُدَى فأَخَذَتْهُم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يَكْسِبون * ونَجَّيْنا الذين آمنوا وكانوا يتّقون » .

(١) فى قراءة أبى عمرو « نَحْسَاتٍ » وبإسكان الحاء على أنها جمع المصدر « نحس » مستدلا بقوله تعالى : « فى يوم نحس مستمر » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه .

قيل إنهم فى الابتداء آمنوا وصدَّقوا ، ثم ارتدُّوا وكذَّبوا ، فأجراهم مجرى إخوانهم فى الاستئصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجَّاهم من غير أن رأوا النار ؛ فَعَبَروا القنطرةَ ولم يعلموا ، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلاهم ، وقومٌ كالرا كض . . وهم أيضاً من الأ كابر ، وقومٌ على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط . فبعدَ وبعدَ . . قومٌ بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيْه[1] ، فإذا ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها : (لا تحرق قلبه)[2] ؛ فإنه محترقٌ فيَّ . وقومٌ يخرجون من النار بعدما امْتُحِشُوا[3] فصاروا حُمَمًا[4] :

قوله جل ذكره : « ويومَ يُحْشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النارِ فهم يُوزَعُون * حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودِهم لِمَ شَهِدْتُم علينا قالوا أَنْطَقَنا اللهُ الذى أنطق كلَّ شىء وهو خَلَقَكُم أولَ مرةٍ وإليه تُرْجعون * وما كنتم تستترون أَنْ يشهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولكن ظَنَنْتُم أَنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيراً مما تعملُونَ * وذلكم ظنكم الذى ظَنَنْتُم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

---

(١) الحقو = الخصر .

(٢) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٣) امحش الحر أو النار جلده أى أحرقه وقشره عن اللحم . ويقال هذه سنة أمحشت كل شىء إذا كانت جدبة .

(٤) الحمم = الفحم أو الرماد .. وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن فى حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذى أنطق كلَّ شيء ، ولم يَدُرْ بخَلَدهم ما استقبلهم من المصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قعد فى وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضِعَه ، وحَكَمَ لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده . فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله ، فإنْ خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك[1] .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمرى يُقابَلُ بالتحقيق ، أمَّا إذا كان نتيجةَ الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به فى الشرع فإنه يُرْدِى صاحبَه .

قوله جل ذكره : « فإنْ يَصْبِروا فالنارُ مثوىً لهم وإنْ يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المُعْتَبِينَ » .

فإنْ يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار ؛ وإن يستعتبوا — فعلى ما قال — فما هم بمعتبين[2] .

« وقيَّضنا لهم قُرَناءَ فزيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وحَقَّ عليهم القولُ فى أُمَمٍ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِم من الجِنِّ والإنْسِ إنهم كانوا خاسرين » .

إذا أراد اللهُ بعَبْدٍ خيراً قيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعينونه على الطاعات ، ويَحْمِلونه عليها ، ويدعونه إليها . وإذا كانوا إخوانَ سوء حملوه على المخالفات ، ودَعَوْه إليها . . ومن ذلك الشيطانُ ؛ فإنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات .. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ . فإنها بئس القرين ! ! فهى تدعو العبدَ — اليومَ — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل الزَّلَّة . فالنفسُ — وشرٌّ قرينٍ للمرءِ نفسُه — والشياطينُ وشياطينُ الإنْسِ . . كلها تُزَيِّن لهم

(١) يعود القشيرى بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عمن يتكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أى أن النار مثوى لهم فى الحالين ، ولا مهرب لهم منها ؛ فلا صبرهم بنافع ، ولا طلب الرضا عنهم بنافع ؛ ولا بد لهم من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نسيان الزَّلَلِ ، والتسويف فى التوبة ، والتقصير فى الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كَفَروا لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلَّكم تَغْلِبُونَ »

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل مَنْ استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أَخَذَ محمدٌ فى القرآن فأَكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع فى السهو والغَلَط .

ولم يعلموا أن الذى نُوِّرَ قلبهُ بالإيمان ، وأُيِّدَ بالفهم ، وأُمِدَّ بالبصيرة ، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذى يسمع ويؤمن . والذى هو فى ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه ، ولا يباشر السماعُ سِرَّه[1] .

قوله جل ذكره : « فَلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شديداً وَلَنَجْزِيَنَّهم أسوأَ الذى كانوا يعملون »

اليومَ بإدامة الحرمان الذى هو الفراق ، وغداً بالتخليد فى النار التى هى الاحتراق .

« ذلكَ جَزَاءُ أعداءِ اللهِ النارُ لهم فيها دارُ الْخُلْدِ جزاء بما كانوا بآياتنا يَجْحَدُون » .

لهم فيها الخزى والهوان بلا انقطاعٍ ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربَّنا أَرِنا الذين

---

(١) إذا تذكرنا أن السر أعلى من القلب ومن الروح عرفنا أن «السماع» عند الشيخ ذو مرتبة عالية على عكس مايظنه المغرضون .

أضلا نا من الجنِّ والإنْسِ نجعلْهُمَا تحت
أَقدامِنَا ليكُونا من الأسْفَلِين » .

من الجنِّ إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول مَنْ سَنَّ المعصية (حين قتل أخاه)[1] .

« نجعلهما تحت أقدامنا » : هذه الإرادة وهذا التمنى زيادة فى عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمنى ؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابوا فى شىء ، ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبَرِّى فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد بأن الندمَ فى غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا رَبُّنَا اللهُ ثم استقاموا
تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا
ولا تحزنوا وأَبْشِروا بالجنة التى كنتم
تُوعَدون » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضى التراخى ، فهو لا يدل على أنهم فى الحال لا يكونون مستقيمين ، ولكن معناه استقاموا فى الحال ، ثم استقاموا فى المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُكَلَّفين .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

« استقاموا » : الاستقامة هى الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشىء من أقسامها . ويقال : هم على قسمين :

---

(١) زيادة من عندنا للتوضيح وليست موجودة بالمتن .

مستقيم (فى أصول)[1] التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين[2] .

ومستقيم فى الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فنهم .. ومنهم ، ومنهم .

« وأبشروا بالجنة » : الذين لهم البشارة هم كل من استقام فى التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود[3] . ويقال : مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ[4] من الخلود فى النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحالٍ . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم : فستقيمٌ فى عهده ، ومستقيم فى عقده ، ومستقيم فى جهده ومراعاة حدّه ، ومستقيم فى عقده وجهده وحدِّه وحبِّه وودِّه . . وهذا أتمُّهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا فى تصفية العقد ثم فى توفية العهد ثم فى صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم فى وقتهم وفى مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا فى معرفته ، وهاموا فى محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

ويقال : استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله . واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌّ فى الدارَيْن فيحجبه عن مولاه . واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته ، ولا يتداخله رياء وتصنُّع . واستقامة[5] المُحِبِّ ألا يكون له أرَبٌ من محبوبه ، بل يكتفى من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف فى المستقبل من الوقت ، من حلولِ مكروهٍ أو فوات محبوبٍ ، فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون ، وكل محذورٍ لهم لا يكون .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (على أصل) وهى مقبولة حسب قوله تعالى في موضع اخر (استقاموا على الطريقة) ولكننا آثرنا (فى أصول) لتنسجم مع الفروع .

(٢) عن أنس قال : لمّا نزلت هذه الآية قال النبى (ص) : «هم أمتى ورب الكعبة» .

(٣) أى التخليد فى النار .. ويقصد بهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحية والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أى أن مجرد ذكر المحب لله (الباقى) يكفيه عن تذكر أى عطاء أو منع ، فحسبه الله .

والحزن من حُزُونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجرى فلا حزنَ له فى عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونة فى أحوالهم ، وإنما هم فى الرَّوْح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصٍّ عباده بعطاء المَلِكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ فى المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوالِ محبوبٍ أو حصولِ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا[1] لا حزونة فى حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب فى المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن العناية فى البداية .

ويقال : « لا تخافوا » مما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلَّفتم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها تكلفتم .

ويقال : « لا تخافوا » المذلَّة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلَّة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أَوْلِياؤُكُم فى الحياة الدُّنيا
وفى الآخـرةِ ولكم فيها ما تشتهى
أنفسُـكُم ولَـكُمْ فيها ما تَدَّعُون ✽ نُزُلاً
من غفورٍ رَحيم » .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

---

(١) هذا من أدق الشروح لمعنى « الرضا » الذى كما نعرف من مذهب القشيرى مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطابٍ من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة فى الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بتحقيق المعرفة ، « وفى الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بالعناية ، « وفى الآخرة » بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

« فى الحياة الدنيا » بالمشاهدة ، « وفى الآخرة » بالمعاينة .

فى الدنيا بالرضاء بالقضاء ، وفى الآخرة باللقاء فى دار البقاء .

فى الدنيا بالإيمان ، وفى الآخرة بالغفران .

فى الدنيا بالمحبة ، وفى الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أى فى الجنة « ما تشتهى أنفسكم » : الولايةُ نقدٌ ، وتحصيل الشهوات وعدٌ ، فَمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده[1] .

« ولكم فيها ما تدعون » : أى ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيَكم .

« نزلاً » : أى فضلاً وعطاءً ، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارّ[2] .

---

(١) تفيد هذه الإشارة الممتعة حتماً فى توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التى تقول إن العبادة الحقة هى المجردة عن الطمع فى الثواب والخوف من العقاب .. وهى عند القشيرى من أمارات الولاية والمحبة الصافية .. ويمعن بعض الصوفية فى ذلك فيدفعهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

فكل مآربى قد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب

(٢) فتكون (نزلا) منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلاً . وقيل : على الحال . وقيل هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفى ذلك مساغٌ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

أى لا أحدَ أحسنُ قولاً منه ، ويكون المراد منه النبى صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعى إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وتَرْكِ طلب العِوَضِ من الله ، ويَكِلُ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وعَمِلَ صالحاً » : أى كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله ، ثم سلكوا طريقَ الله ، ثم دعوا الناسَ إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخَلْق إليه بعد ما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إننى من المسلمين » : المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَعْ بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميمٌ » .

إدفعْ بالخصلة التى هى أحسن السيئةَ يعنى بالعفو عن المكافأة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وتركِ الانتصاف[1].

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » يُشْبِه الولىَّ الحميمَ — ولم يَصِرْ ولياً مخلصاً .. وهذا من جملة حُسْنِ الأدب فى الخدمة فى حقِّ صحبتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأَجْلِه .

---

(١) هذه الأوصاف التى ذكرها القشيرى من أمارات الفتوة — كما ورد فى الفصل الذى عقده لها فى «رسالته» .

ومن جملة حُسْن الخُلُق فى الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك ، وأَنْ تعفوَ عن خصمك .

قوله جل ذكره : « وما يُلَقَّاها إلاَّ الذين صَبَرُوا
وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم » .

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إلّا مَنْ أُكْرِم بتوفيق الصبر ، ورُقِّى عن سفساف الشيم إلى معالى الأخلاق . ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد .

قوله جل ذكره : « وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ من الشيطانِ نَزْغٌ
فاستعِذْ باللهِ إنَّه هو السميعُ العليمُ » .

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك ، وارجعْ إليه قبل أية خطوة[1] .. فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة ، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان . . فإذا لم تتداركْ ذلك تجرى الزلَّة ، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعى صار فسقاً . . وبتمادى الوقت تصبح فى خَطَرِ كل آفة .

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان ، وقد قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »[2] ؛ فكلما ازداد العبدُ فى تبرِّيه من حَوْلِه وقوته[3] ، وأخلص بين يدى الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللهُ فى حِفْظه ، ودَفَعَ الشيطان عنه .

قوله جَل ذكره : « ومن آياته الليلُ والنهارُ
والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمسِ
ولا للقمرِ واسجدوا للهِ الذى خَلَقَهُن
إنْ كنتم إياهُ تعبدون » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خطرة) بالراء ، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيرى فى رسالته ص ٤٦ : «الخواطر خطاب يرد على الضمائر وقد يكون الخاطر بإلقاء مَلَك ، وأو بإلقاء الشيطان ، وقد يكون حديث النفس» .. ويقول فى نفس الموضع : كل خاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل .

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) لأنه كلما ازداد فى ذلك ازدادت عبوديته ، فدخل فى زمرة «عبادى» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان .. وبهذا الفهم يتأيد السياق ويتماسك فى ظل الشاهد القرآنى .

أَوْضَحَ الآياتِ ، وأَلاحَ البيِّنَاتِ ، وأزاحَ عِلَّةَ مَنْ رام الوصول . واختلافُ الليل والنهار ، ودورانُ الشمسِ والقمرِ من جملة أمارات قدرته ، ودلالات توحيده .

« لا تسجدوا للشمس » فى علائها ، « ولا للقمر » فى ضيائه ، « واسجدوا لله » فقد غار[1] عليك أن تسجد لغيره .

والشمسُ — وإنْ عَلَتْ ، والقمر — وإنْ حَسُنَ . . فلأَجْلِكَ خلقناهما ، فلا تسجدْ لهما ، واسجُدْ لنَا .

ويقال : خَلَقَ الملائكة — ومع كثرة عبادتهم ، ومع تقدمهم فى الطاعة — قال لهم : اسجدوا لآدم ، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد . وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ... » فشتَّان ما هما ! !

والحقُّ — سبحانه وتعالى — يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر .. وأنت لأَجْلِ كلِّ حظٍّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ ؛ وتدخل بمحياك عَلَى كلِّ أحدٍ ! !

قوله جل ذكره : « فإنِ استكبروا فالذين عند رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ له بالليلِ والنهارِ وهم لا يَسْأَمون » [2]

أى إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ ؛ لأن الحقَّ غنيٌّ عن كل أحد ، ثم إن الملائكة — الذين هم سكان الآخَر — يسجدون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون من عبادته .

---

(١) يقول القشيرى فى رسالته ص ١٢٦ «الغيرة كراهية مشاركة الغير ، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده» .

(٢) هذه آية سجدة ، واختلف فى موضع السجود منها . فقال مالك إن موضعه «إن كنتم إياه تعبدون» «لأنه متصل بالأمر» . . وقال الشافعى إنه : «وهم لا يسأمون» لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال .
وقد تضمنت الآية صلاة الكسوف ، وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لايكسفان إلا لموت عظيم .. فصلَّى النبى (ص) صلاة الكسوف (القرطبى ح ١٥ ص ٣٦٤) .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرضَ
خاشعةً فإذا أنزلنا عليها المـاءَ اهتزَّتْ
ورَبَتْ إنّ الذى أحياها لُمحْى الموْتى
إنَّه عَلَى كل شىءٍ قديرٌ »

الأرضُ تكون جَدْبةً يابسةً فى الشتاء ، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بمـا ألمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ، فظهرت فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُّوا فى صِدْق القدَم . وكذلك إذا وقفت للعبد فترةٌ فى معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعاته ، ثم تغمَّده الحقُّ — سبحانه — بما يدخل عليه من التذكر تظهر فى القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداده غضًّا طرياً ، ويصير شجر وفاقه — بعد ما أصابته الجدوبة — بمـاء العناية مستقياً .

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفـة ، أو حدثت لهم من جرَّاء سوء أدبٍ بكَدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزّت رياضُ أُنْسِهم ، واخضرَّت مشاهدُ قربهم ، وانهزمت وفودُ وقفتهم .

« إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير » : إن الذى أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُلْحِدون فى آياتِنا لا يَخْفَوْن
علينا أفَمَنْ يُلْقَى فى النارِ خيرٌ أمْ مَّنْ
يأتى آمِناً يومَ القيامةِ اعملُوا ما شِئْتُم إنه
بما تعمَلون بصير » .

سيلقون من العذاب مايستوجبونه .. فَلْيَعْمَلوا ماشاءوا . . فليسوا يَسْعَوْن إلاَّ فى ذَمِّهم ، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا بالذكر لمَّا جاءهم وإنه لـكتابٌ عزيزٌ » .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عنَّا ، ووقعوا فى هواهم وشقوا إلى الأبد .

« وإنه لـكتاب عزيز » : كتابٌ عزيزٌ لا مِثْلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

كتابٌ عزيزٌ غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والـكفار .

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ .. من قولهم أرض عزاز[1] .

كتابٌ عزيزٌ لأنه كلامُ ربٍّ عزيزٍ إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة .

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم .. وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب عزيزٌ .

« لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفِه تنزيلٌ مِّن حكيمٍ حميد » .

أى لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الـكتب ، ولا مما يأتى من بعده .. أى لا كتابَ بعده ، ولا نسخَ له .

ويقال لا يدفع[2] معناه لفظَه ، ولا يخالف لفظُه معناه ..

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتىَ بمثله .

قوله جل ذكره : « مَّا يُقال لكَ إلا ما قد قيل للرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليم » .

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع ؛ فجوهرُها فى الأحكام واحد : هو أنه تجب موافقةُ أوامره ، واجتناب مزاجره . ثم إن الله تعالى قال فى كل كتابٍ ، وشَرَعَ لـكل أمة أنْ يعرفوا

---

(١) الأرض العزاز = الأرض الصلبة السريعة السيل (الوسيط) .

(٢) دَفَعَ الشىء = نحَّاه وأزاله ، قال تعالى : « ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد .

قوله جل ذكره : « ولو جعلناهُ قرآنا أعجمياً لقالوا لولا
فُصِّلَتْ آياته ءَأعجميٌّ وعربيٌّ قُلْ هو
للذين آمنوا هُدىً وَشِفاء والذين
لا يؤمِنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم
عَمًى أولئك يُنَادَوْن من مَكانٍ بعيد» .

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ لِمَنْ أراد أنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة ، وصحة الشريعة .

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاء للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

وهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيرُّ الخواطر .

وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته ، والتلذُّد بالتفكُّر فيه .

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما به من لُطْفِ المواجيد .

وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

« والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى » : هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق ، ولا يستجيبون . . بقوا فى ظلمات الجحد والجهل .

« وهو عليهم عمًى » : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ
فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لقُضِيَ
بينهم وإنَّهم لفى شكٍ منه مُرِيبٍ » .

آتينا موسى التوراةَ ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا فى أمره . . فَمَنْ كَحَّلْنا سرَّه بنور التوحيد صَدَّقه ، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

« ولولا كلمة سبقت من ربك » وهى أن عقوبتَهم فى النار بعد قيام القيامة لعَجَّلنا

استئصالهم ، ولأذقناهم فى الحال وبالمآل[1] .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسِه ومَنْ أساء فعليها وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيد » .

« فلنفسه » لأن النفعَ عائدٌ إليه . ومَنْ عمل عملاً سيئاً فإنما ظَلَمَ نَفْسَه ، وأساء إليها ؛ لأنه هو الذى يقاسى ضرَّه ويلاقى شرَّه .

قوله جل ذكره : « إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعةِ وما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أكمامها وما تحملُ من أنثى ولا تَضَعُ إلا بعلِمِه ويومَ يُنَاديهم أين شُرَكائى قالوا ءَاذَنَّاكَ ما مِنَّا من شهيد » .

لمَّا استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامةُ التى يَتَوعَّدُنا بها ؟ قال الله تعالى : إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذى يخرج من الأشجار من الثمار ، وما الذى تنطوى عليه أرحامُ النساء من أولادها ذكوراً وإناثاً ، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة ، وما يحصل من الحيوانات من نتاجها — فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله — فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة .

« ويوم يناديهم أين شركائى . . » : يتبرءون من شركائهم ، ولكن فى وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : « لايسأمُ الإنسانُ من دعاء الخيرِ وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ قنوطٌ » .

---

[1] فى موضع سبق أوضح القشيرى أنه ربما كان من أسباب الحكمة الإلهية في تأخير عقوبة أمة النبى «ص» — كما حدث للأمم السابقة — هو تأخير العذاب بسبب ما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِعَدَمِ علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرجوع إليه .

« ولَئِنْ أذقناه رحمةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ
ضرَّاء مَسَّتْه ليقولَنَّ هذا لى وما أظنُّ
الساعةَ قائمةً ولَئِنْ رُجِعْتُ إلى ربى إنَّ
لى عِنــدَه لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين
كفروا بما عَمِلُوا ولَنُذِيقَنَّهم مِّن عذابٍ
غَلِيظ » .

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادَّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً ، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان لى حشرٌ ونشرٌ لـكان لى من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

قوله جل ذكره : « وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعرضَ
ونأى بجانبِه وإذا مَسَّهُ الشرُّ فذو دُعاء
عريضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فـكثيرٌ مما يتوهمه عطاءً هو مكرٌ واستدراجٌ . . وهو يستديمه . وكثيرٌ مما هو فضلٌ وصَرْفٌ[1] وعطاءٌ يظنه من البلاء فيعافُه[2] ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحَبَه بالبَطَر ، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر .

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعْجِبَ بنفسه ، وتـكبَّر مختالا فى زَهْوِه ، لا يشـكر ربَّه، ولا يذكر فضلَه ، ويتباعد عن بِساط طاعته .

---

(١) صَرَفَ الله المكاره صَرْفاً أى أبعدها .

(٢) فى م (فيعافيه) وهى خطأ فى النسخ .

والمستغنى عنَّا يهيم على وجهه ، وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاء كثيرٍ ، وتضرُّعٍ عريض ، وابتهالٍ شديد ، واستكشافٍ[1] دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوِّه ونُبُوِّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته فى الجحود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم إنْ كان من عند الله ثم كفرتم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هو فى شقاقٍ بعيد * سَنُرِيهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ أو لم يَكْفِ بربِّكَ أنَّهُ على كل شىء شهيد * ألاَ إنَّهم فى مِرْيةٍ مِنْ لقاء ربِّهم ألاَ إنه بكل شىءٍ مُحيط » .

« سنريهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيُظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التى تجرى فى أحوال العالَم ، وما سيحلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ ، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — حقٌّ ، وأن المُجْرِىَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشئَ له هو الحقُّ — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار ، وعُلُوِّ الإسلام ، وتلاشى أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات فى الأفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها فى التجانس.. وهذه آيات حدوثِ العالَم ، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

« وفى أنفسهم » : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « فى الآفاق » للعلماء ، « وفى أنفسهم » لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلَمُّوا بذَنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا فى طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ، وجمع وفَرْقٍ ، وحجبٍ

---

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف الغُمَّة وصَرْفها .

وجذبٍ . . وما يجدونه بالضرورة فى معاملاتهم ومنازلاتهم[1] .

« أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » : هو الكافى ، ولكنهم —أى الكفار— فى مِرْيَةٍ من لقاء ربهم فى القيامة . والإشارة فيه : أن العوامَّ لَفِى شكٍ من تجويز ما يُكَاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ .

« ألا إنه بكل شىء محيط » : عالِمٌ لا يَخْفَى عليه شئ .

(١) يتفق هذا مع ما يذهب إليه جمهور الصوفية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ، والمقامات مكاسب للعبد – وإن كانت هذه المكاسب تتم هى الأخرى بفضل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

سلوةُ العاصين فى سماع رحمةِ الله ، وحظوةُ العابدين فى رجائهم نعمةَ الله ، وراحةُ الفقراء فى رضاهم بقسمة الله .. لكلٍ من حاله نصيب ، وكلٌّ فى مُتنفَّسِه مُصيب .

قوله جل ذكره : « حمٓ * عٓسٓقٓ »

الحاء مفتاح اسمه : حليم وحافظ وحكيم ، والميم مفتاح اسمه : مَلِك وماجد ومجيد ومنَّان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : عالم وعدل وعالٍ ، والعين مفتاح اسمه : سيِّد وسميع وسريع الحساب ، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس[1] .

« كذلك يُوحِي إليك وإلى الذين مِنْ قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم » .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِي إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

« له ما في السموات وما في الأرضِ وهو العليُّ العظيم » .

له ما فى السموات وما فى الأرض مُلْكاً .

« وهو العليُّ العظيم » : عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأوصاف المجد ؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال .

---

(١) ربما يتأيد اتجاه القشيرى فى تفسير هذه الحروف المقطعة هنا بالأسماء والأوصاف الإلهية بختام الآيات التالية بالعزيز الحكيم والعلي العظيم والغفور الرحيم .. كأن هذا هو المناخ الذى توحى به افتتاحية السورة .

قوله جل ذكره : « تكاد السموات
يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون
بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض
ألا إن الله هو الغفور الرحيم » .

أى تكاد السموات تنشق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقية هنا فوقية رتبة[1] ؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال من ثقل الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفي الخبر : « أطت[2] السماء أطاً وحق لها أن تئط ؛ ما من موضع قدم في السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد » .

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له .. وهنا لقبح قول المشركين وجرأتهم على الله تعالى ، ولعظم قولهم كادت السموات تنشق .. قال تعالى : « لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً »[3] وعلى هذا التأويل : « يتفطرن من فوقهن » أى إلى أسفلهن ، أى تنفطر جملتها[4] .

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ، ويستغفرون لمن في الأرض .. ثم قال : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » : أى يغفر لهم مع كثرة عصيانهم . وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفار هذا الجرم العظيم بسبب شركهم فإنه — سبحانه — لا يقطع رزقه ونفعه عنهم — وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله

---

(١) لجأ القشيري إلى التأويل كي يتفادى نسبة المكانية إلى الألوهية .

(٢) أطّ الظهر = صوّت من ثقل الحمل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول النسفى : كان القياس أن يقال يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن .
(النسفى ح ٤ ص ١٠٠) .

حفيظٌ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيلٍ »

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِنْ دونه ، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم . وليس يخفى على الله أمرُهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولستَ — يا محمد — بمُسَلَّطٍ عليهم .

وفى الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدًّا أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه .. ثم إنْ شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَرَ له .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليكَ قرآناً عربياً
لِتُنذِرَ أمَّ القُرى ومَنْ حَوْلَها وتُنذِرَ
يومَ الجمعِ لا ريبَ فيه فريقٌ فى الجنةِ
وفريقٌ فى السعير » .

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة العرب لتخوِّفَ به أهلَ مكةَ والذين حولَها . وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سُرَّةُ الأرضِ .

« وتنذر يومَ الجمع » : تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة . ويوم الجمع — وهو اليوم الذى يُجْمَعُ فيه الخَلْقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه[1] ، وبين المرء وشكله فى الخير والشرِّ — لا شكَّ فى كَوْنه . وفى ذلك اليوم فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل فى السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق فى راحة الطاعات وحلاوة العبادات ، وفريق فى ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد .. فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاءَ اللهُ لجَعَلَهم أمةً واحدةً
ولكنْ يُدْخِلُ مَنْ يشاء فى رحمته
والظالمون ما لهم من ولىٍّ ولا نصير » .

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع .. وإذاً لا تَزَيَّنَ لهم . ولو شاء

---

(1) من هذا نفهم أن القشيرى يؤمن بالبعث الكامل أى بعودة الجسد والروح معاً إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعَهم كلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع — وإذاً لاشينَ منه . وحيث خَلَقَهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيي النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً ، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً[1] .. وهو على كل شيءٍ قدير .

قوله جل ذكره : « وما اختَلَفتُم فيه من شيءٍ فحُكمه إلى اللهِ ذلكم اللهُ ربِّى عليه توكلتُ وإليه أُنيب » .

« فحُكمُه إلى الله » : أى إلى كتاب الله ، وسُنَّةِ نبِّيه صلى الله عليه وسلم ، وإجماعِ الأئمة ، وشواهدِ القياس . والعبرةُ بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجماعها من كتاب الله ؛ فإنَّ الكتابَ هو الذى يدلُّ على صحة هذه الجملة[2] .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فَدَعُوا تدبيركم ، والتجئوا إلى ظلِّ شهود تقديره ، وانتظِروا ما ينبغى لكم أن تفعلوه بحُكم تيسيره[3] .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم ؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله ، واشتغلوا فى الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِهِ عن عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فاطِرُ السمواتِ والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كَمِثْلِهِ شىء وهو السميعُ البصير » .

خَلَقَ لكم من أنفسكم « أزواجاً » : أى أشكالاً ؛ فخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم . وخَلَقَ

---

(١) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالمعانى الصوفية من صفاء وكدورة ونحو ذلك .

(٢) هذا ردٌ على مَنْ يتهمون الصوفيه بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية للشريعة ، فضلا عن أننا نشعر باهتمامهم بالجانب العقلى حين يبرزون «القياس» كمصدر من مصادر التشريع .

(٣) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — يهمنا أمره حين ندرس مصادر الفقه الصوفى .

— بسبب بقاء التناسل — جميعَ الحيواناتِ أجناساً .

« يذرؤكم » : يُكثِر خَلْقكم . « فيه » الهاء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التزويج[1] .

« ليس كمثله شئ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعهُ ؛ ولا شكلَ يشاكله . والكاف فى ليس « كمثله » صلة أى ليس مثله شئ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهُوَ شئ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شئ وهو هو ، فلمَّا قال : « ليس كمثله شىء » فمعناه ليس له مثل ، والحقُّ لا شبيهَ له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قومٌ فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَه فى حدقة ، وسَمْعَه فى عضوٍ ، وقدرته فى يدٍ .. إلى غير ذلك .

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْمِ عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح ، وما يكون من الخَلْق حسناً فمنه حَسَنٌ !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل .

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يشاء ويَقْدِرُ إنَّه بكلِّ شىءٍ عليمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأُنْس .. وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا . وفائدة التعريف بأن المقاليد له : أنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق ، ويتوجَّه

(١) يقول النسفى : اختير «فيه» على «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبث والتكثير .

فى طلب ما يريد من الله الذى « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذى هو « بكل شىء عليم »: يوسِّع ويضيِّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ .

قوله جل ذكره : « شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به
نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصَّيْنا
به ابراهيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقيموا
الدِّينَ ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المُشركين
ما تدعوهم إليه اللهُ يجتبى إليه مَنْ يشاء
ويَهْدِى إليه مَنْ يُنيب » .

« شرع » : أى بَيَّنَ وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فإنها لا تختلف فى جميع الشرائع ، وأمَّا الفروع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائلَ أحكامُها فى جميعِ الشرائعِ واحدَةٌ .

ثم بيَّن ذلك بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . وفى القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ فى زمان نوحٍ عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرَّقوا إلَّا مِنْ بعدِ ما جاءَهم
العِلْمُ بَغْياً بينهم ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ
ربِّك إلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بينهم »

يعنى أنهم أَصَرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُذْرَ ولا شكَّ .
« ولولا كلمة سبقت من ربك » . . وهو أنه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعَجَّل لهم ما يتمنونه .

قوله جل ذكره : « فلذلك فادْعُ واستَقِمْ كما أُمِرْتَ
ولا تَتَّبِعْ أهواءَهم وقُلْ آمنْتُ بما
أنزل اللهُ من كتابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ
بينكم اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا

ولكم أعمالُكم لا حُجَّةَ بيننا وبينَكم
اللهُ يَجْمَعُ بيننا وإليه المصير » .

أى أُدْعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيفى ، واستقِمْ فى الدعاء ، وفى الطاعة . أَمَرَ الكُلَّ من الخَلْقِ بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء فى الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أى سَلْ منى أن أقيمك ، « ولا تتبع أهواءَهم ، وقُلْ : آمنتُ بما أنزل اللهُ من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » : أمرتِ بالعدل فى القضية ، وبأن أَعْلِمَ أنَّ اللهَ إلهُ الجميع ، وأنّه يحاسِب غداً كلاًّ بعمله ، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه ، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم .

قوله جل ذكره : « والذين يُحَاجُّون فى اللهِ مِنْ بعدما
استُجِيبَ له حُجَّتُهم داحِضَةٌ عند ربِّهم
وعليهم غَضَبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ » .

يجادلون فى الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ على المشركين.
حُجَّةُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى أنزل الكتابَ بالحقِّ
والميزانَ ومايُدْريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ».

أنزلَ الكتابَ ، وأنزل الحُكْمَ بالميزان أى بالحق .

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان ، ومراعاةَ العدل فى الأحوال .

« وما يدريك لعلَّ الساعة قريب » : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل .

---

(١) سماها حجة حسب زعمهم — وإن كانت شبهة فى حقيقة أمرها . ومن أمثلة حجج أهل الكتاب أنهم كانوا يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم وأولى بالحق .. وكل هذه الحجج داحضة بعدما دخل الناس فى الإسلام ، وتركوا الجاهلية وآثامها ، استجابة لدعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض [illegible]

قوله جل ذكره : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها
والذين آمنوا مُشْفِقُون منها ويعلمون
أنها الحقُّ ألاَ إنَّ الذين يُمارون فى
الساعةِ لفى ضلالٍ بعيد » .

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويَـكِلُون أمورَهم إلى الله ؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولـكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ لطيفٌ بعباده يَرْزُقُ مَنْ يشاء
وهو القوىُّ العزيز » .

« لطيف »[2] أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلْطِف المحسن . . وكلاهما فى وصفه صحيح . واللطف فى الحقيقه قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطْفٌ منه به .

وأكثرُ ما يستعمل اللطف — فى وصفه — فى الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خاطَبَ العابدين بقوله : « لطيف بعباده » : أى يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاةَ بقوله : « لطيف » : لئلا ييأسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياء بقوله : « لطيف » : ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم فى جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراءَ . بقوله : « لطيف » أى أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : « اللهُ » يوجِبَ الهيبةَ والفزع ، وسماعُ « لطيفٌ » يوجِبُ السكونَ

---

(١) لأن الموت يقربهم من اللقاء .. لقاء المحبوب .

(٢) تضاف أقوال القشيري هنا فى «اللطيف» إلى ما ذكره فى كتاب التحبير فى التذكير (تحقيق بسيونى) وما ذكره فى كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الحلوانى) صدر بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ص ١٧٦ وما بعدها .

والطمأنينة . فسماعُ قوله : « اللهُ » أوجب لهم تهويلاً ، وسماع قوله : « لطيفٌ » أوجب لهم تأميلاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطى قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مِنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف ، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِه أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَه دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لطفه بالعبد إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادتَه لا تَّكَلَ عليه ، وأَقَلَّ عملَه . ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه . . فأراده أن يستكثرَ فى الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أَجَلِه عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله فى الدنيا من الزّلة ؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ فى الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ[1] ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار[2] ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ فى الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : « مَنْ كان يُرِيدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له فى حَرْثِه ومَنْ كان يريد حَرْثَ الدنيا نُؤْتِه منها وما له فى الآخرة مِن نصيب » .

« من كان يريد حرث الآخرة » : نَزِدْه — اليومَ — فى الطاعات توفيقًا ، وفى المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً . ونَزِدْه فى الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

« ومَنْ كان يريد حَرْثَ الدنيا » : مكتفياً به نؤته منها ما يريد ، وليس له فى الآخرةِ نصيب .

---

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التى تعلو الروح — كما نعرف من المذهب العرفانى للقشيرى .

(٢) وأما (الأسرار) الثانية فهى جمع السر كما نعرفه — بمعنى الشأن الخفى .

قوله جل ذكره : « أَمْ لَهم شُرَكاء شَرَعوا لهم من الدِّين ما لم يأذنْ به اللهُ ولولا كلمةُ الفَصْلِ لَقُضِىَ بينهم وإنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم »

« ما لم يأذن به الله » : أى ليس ذلك مما أَمَرَ به ، وإنما هو افتراء منهم .

« ولولا كلمة الفصل » . . أى ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .

« ترى الظالمين مُشْفِقين مما كَسَبوا وهو واقعٌ بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فى روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك هو الفضلُ الكبير » .

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبهم الله فى الغالب، ولكنه لا محالةَ يعذبهم. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسّفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمّا الكفار . . فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرءونه فى كتابهم ، لأنَّ العذابَ — لا محالةَ — واقعٌ بهم .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات » : فى الدنيا جنان الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأُنْسِ فى أوقات الخلوة . وفى الآخرة فى روضات الجنة : « لهم ما يشاءون عند ربهم » : إنْ أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم ، وإنْ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضلُ الكبير .

قوله جل ذكره : « ذلك الذى يُبَشِّر اللهُ عبادَه الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات » .

ذلك الذى يُبَشِّرُ اللهُ عبادَه قد مضى ذِكْرُه فى القرآن متفرقاً ؛ من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وَعَدَ اللهُ من المثوبة .. ونحو ذلك .

« قُلْ لا أسألُكم عليه أجراً إلَّا المودةَ فى القُرْبى » .

قُلْ — يا محمد — لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً ، ولكنَّ اللهَ — وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية — لم يطلب عليه أجراً ؛

فاللهُ — سبحانه — لا يطلب عِوَضاً ، وكذلك نبيُّه — صلى الله عليه وسلم — لا يسأل أجراً ؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً ؟! وهو — صلوات الله عليه — يشفع لكلِّ مَنْ آمن به ، والله — سبحانه — يعطى الثوابَ لكل مَنْ آمن به.

« إلا المودة فى القربى » : أراد أن تثبت مودتك فى القربى ؛ فتودّ مَنْ يتقرَّب إلى الله فى طاعته[1] .

« ومَنْ يقترِفْ حسنةً نَزِدْ له فيها
حُسْناً إنَّ اللهَ غفورٌ شكورٌ » .

تضعيف الثواب فى الآخرة للواحدِ من عَشَرَة إلى سبعمائة . . هذه هى الزيادة .

ويقال : الزيادة هى زيادة التوفيق فى الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة فى المجاهدة تفضَّلْنا بزيادة . . وهى تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يقترِفْ حسنةَ الوظائف[2] نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهى مما لا يدخل تحت طَوْقِ[3] البَشَر .

قوله جل ذكره : « أم يقولون افترى على اللهِ كَذِباً فإنْ
يَشَأ اللهُ يَخْتِمْ على قلبِكَ ويمحُ اللهُ
الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماتِهِ إنَّه عليمٌ
بذاتِ الصدور » .

أى أنَّك إنْ افترَيْتَه خَتَمَ اللهُ على قلبِكَ ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربِّكَ .

ومعنى الآية أنَّ اللهَ يتصرَّف فى عباده بما يشاء : مِنْ إبعادٍ وتقريب ، وإدناء وتبعيد[4] .

---

(١) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالا عقدياً وسياسياً فى عصور متأخرة خصوصاً من جانب المتشيعين لعلى كرم الله وجهه وبيته..وواضح أن القشيرى أطلق القرابة على كل من يتقرب إلى الله بالطاعة ؛ فهى عنده قرابة فى الله ، وربما كان ذلك نتيجة سنيته وحرصه على سنيته . (أنظر مدخل اللطائف ح١ ص ٣٧).

(٢) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة .

(٣) فى ص وردت (طرق) بالراء وهى خطأ فى النسخ .

(٤) يقول مجاهد : «يختم على قلبك » أى يربط عليه بالصبر على أذاهم واتهامهم له بالافتراء والكذب لئلا تدخله مشقة بسبب تكذيبهم .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يَقْبَلُ التوبةَ عن عبادِه ويعفو عن السيئاتِ ويعلمُ ما تفعلون » .

« ويعفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهى هنا للعهد ؛ أى تلك السيئات التى تـكفى التوبةُ المذكورةُ فى الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء[1] . « ويعلم ماتفعلون »: من الأعمال على اختلافها[2] .

وهو « الذى » . . . : الذى من الأسماء الموصولة التى لايتم معناها إلا بِصِلَةٍ ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزَّلةُ — وإن كانتْ توجِبُ للعبد ذميمَ الصِّفَةِ — فإنَّ قبولَها يوجِبُ للحقِّ حميدَ الاسم .

ويقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)[3] حتى تمنَّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له : عبدى . ولـكن ما طلبوه فيما قالوه موجود فى « التوبة عن عباده » ؛ وإذاً فلا ينبغى لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لـكى يَصِلوا إلى ذلك .

ويقال لمَّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذكَرَها على الجمع والتصريح[4] فقال : « ويعفو عن السيئات » . ثم لمَّا كان حديثُ التهديد قال : « ويعلم ما تفعلون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلَّتك — بل قال ويعلم « ما » تفعلون ، وتدخل فى ذلك الطاعةُ والزَّلةُ جميعاً[5] .

قوله جل ذكره : « ويستجيبُ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فَضْلِه .. »

---

(١) يشير القشيرى إلى الآية الكريمة «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»

(٢) ويدخل فى ذلك — كما سيأتى بعد قليل — المعاصى والطاعات .

(٣) مابين القوسين إضافة من عندنا طبقا لما نعرفه من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (والتضرع) وهى خطأ فى النسخ لعدم ملاءمتها للسياق ؛ فالتصريح يقابل «التلويح» المذكور فيما بعد .

(٥) فى هذه الإشارة وما تلاها يبدو انفتاح باب الأمل أمام العصاة ، وكيف يحثهم هذا الإمام الجليل على التوبة الآملة والرجاء الوطيد فى رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْه استجابَ لهم)[1] بعظيم الثواب فى الآخرة .

« ويزيدهم من فضله » : يقول المفسرون من أهل السُّنَّة فى هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التوبة وأهلها ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. فلمَّا وصل إلى الزيادة — التى هى الرؤية — قال : « ويزيدهم » على الجمع ؛ والكناية[2] إذا تأتَّتْ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ فى مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها فى الزيادة والنقصان ، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل .. والفضلُ ليس فيه تمييز .

ويقال : لمَّا ذكر أنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم ، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته[3] ، وأنَّ المطيعين لهم الجنة .. فلربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ : وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هى ؟ ! فقال جل ذكره :

« والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ ».

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ .. أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضى هذا وذاك ؛ يقتضى أن المؤمنين لهم عذابٌ .. ولكنْ ليس بشديد ، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لم يَتُبْ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة لَكَانَ من حقِّه أن يتوب ليَقْبَلَ الحقُّ — سبحانه .

ويقال إن العاصى يكون أبداً منكسرَ القلب ، فإذا عَلِمَ أن اللهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أَنْ ليت له طاعةً مُيَسَّرَةً ليقبلَها ، فيقول الحقُّ : عبدى ، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيْتَ بها تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره : « ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزقَ لعبادِه لَبَغَوْا فى الأرضِ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

---

(١) مابين القوسين زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح العبارة .

(٢) يقصد القشيرى بالكناية الضمير فى «ويزيدهم» .

(٣) لأنه ربط ذلك بمشيئته — سبحانه — فقال «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

مَا يشاءُ إنَّه بعباده خبيرٌ بصير » .

هذا الخطاب فى الظاهر يشبه الاعتذار فى تخاطب الآدميين . والمعنى : أننى لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ فى الدنيا لِمَا كان لى من العلم أننى لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ ، ولسَعَيْتَ فى الأرض بالفساد .

ويقال : قوله : « ولكن . . » : لكن كلمة استدراك ، فالمعنى : لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد ؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ)[1] ؛ لأنى أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يُنَزِّلُ الغيثَ مِن بعدِ ما قنطُوا وينشرُ رَحمتَه وهو الولىُّ الحميدُ » .

الله — سبحانه مُحْيِي القلوب ؛ فكما أنه « هو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » ، فبعدما أصابت الأرضَ جدوبةٌ ، وأبطأ نزولُ الغيثِ ، وقَنِطَ الناسُ من مجيء المطر ، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ الفَواتِ يُنَزِّلُ اللهُ بفضله الغيثَ ، ويحيي الأرضَ بعد قنوطِ أهلها . . فكذلك العبد ؛ إذا ذَبُلَ غُصْنُ وقته ، وتكَدَّرَ صَفْوُ ودِّه ، (وكسفت)[2] شمسُ أُنْسِه ، (وبَعُدَ)[3] عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته ؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة ، ويعود عودُه طريًّا ، ويُنْبِتُ فى مشاهد أُنْسِه ورداً جَنِيًّا . .
وأنشدوا :

إنْ راعنى منك الصدود فلعلَّ أيامى تعود

ولعلَّ عهدك باللِّوى يحيا فقد تحيا العهود

والغصن ييبس تارةً وتراه مُخْضرًّا يميد

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياته خَلْقُ السمواتِ والأرضِ

---

(١) هكذا فى م ، وهى فى ص (الكيل) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .
(٢) هكذا فى ص ، وهى فى م (كشفت) بالشين وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٣) سقطت فى ص وموجودة فى م والسياق يتطلبها .

وما بثَّ فيهما من دابّةٍ وهو على جَمْعِهِمْ
إذا يشاء قديرٌ » .

جعل اللهُ فى كلِّ شيء من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه فى جلاله ، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله(١) .

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أنَّ الحقَّ — سبحانه — يغار على أوليائه أن يَسْكنَ بعضُهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يُبَدِّدُ شملَهم ، ولا تكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق فى موضعٍ واحدٍ إلا نادراً ، وذلك لمدةٍ يسيرة .. كما قالوا :

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنَّهم
بأكنافِ أطرافِ السماء نجومُ

وفى بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم — فى الظاهر — اجتماعٌ والتقاء ، فيكون فى ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أنَّ فى اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جَمْعِهم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكم مِنْ مُصيبةٍ فَبِما كَسَبَتْ
أيديكم ويعفو عن كثير » .

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلِمَ أن ذلك جزاءٌ له ، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوء الأدب لاستحيى بخجالته مِنْ فِعْلِه ، ولَشَغَلَه ذلك عن رؤية الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئَهم أو يدعوَ عليهم ، وإنما يشغله تلافى ما بَدَرَ منه من سوء الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخَلْق .. تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه .

ويقال : إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد ، وتوالى عليه ذلك .. فَلْيُفَكِّرْ فى أفعاله المذمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله — مع العفو الكثير — هذا المبلغ ؟ !
فعند ذلك يزداد حُزْنُه وتأسُّفُه ؛ لِعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

---

(١) سبق أن نبهنا القشيرى إلى توحيد القالة وتوحيد الدلالة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوارِ فى البحْرِ كالأعلام» .

يريد بها السفن التى تجرى فى البحار ؛ يرسل اللهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً ، ويُسَكِّنها أخرى ، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة .. وهو بهذا يَحُثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً .

والإشارة فى هـــذا إلى إمساك الناس[1] فى خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة ، وحفظهم فى إيواء السلامة ، فالواجبُ الشكرُ فى كل حالة ، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أُوتيتم مِنْ شىء فمتاعُ الحياةِ الدُّنيا وما عند اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون » .

يعنى أنَّ الراحاتِ فى الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإنْ اتفق وجودُ البعض منها فى أحايين فإنها سريعة (الزوال)[2] ، (وشيكة)[3] الارتحال .

« وما عند اللهِ » من الثواب الموعود « خيرٌ » من هذا القليل الموجود .

قوله جل ذكره : « والذين يجْتَنِبُونَ كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ وإذا ما غَضِبُوا هم يغْفِرون»

« كبائر الإثم » : الشِرْك . و « الفواحش » : ما دون ذلك من الزلاَّت . فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم فى عموم الأحوال .

« والذين استجابُوا لربِّهم وأقاموا الصلاةَ وأَمْرُهم شُورَىٰ بينهم ومِمَّا رزقناهم يُنفِقُون » .

---

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتعالى لهم .

(٢) وردت (العذاب) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (وسكية) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

« استجابوا لربهم » : فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ .

والمستجيبُ لربِّه هو الذى لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقــة رضاه[1] ، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية .

« وأمرهم شورَى بينهم » : لا يستبدُّ أحدُهم برأيه ؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيَه أبداً[2] . ثم إذا أراد القطعَ بشيء يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابهُمُ البغْىُ هُم يَنْتَصِرون » .

« البغىُ » : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذى أصابه هو من قِبَلِ نَفْسِه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأَنْ يكبحَ عنانها عن الركض فى ميدان المخالفات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وأصْلَحَ فأجرُه على الله إنَّه لا يُحب الظَّالمين » .

(يعنى لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجانى عليكم فى المكافأة أوالانتقام)[3] .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عفا عن الجانى ، وأصلح ما بينه وبين الله — أَصْلَح اللهُ ما بينه وبين الناسِ . « فأجره على الله » : فالذى للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره .

قوله جل ذكره : « وَلَمَن انتصر بعد ظُلْمِه فأُولئك ما عليهم مِنْ سبيلٍ * إنَّما السبيلُ على الذين يظلمون الناسَ ويَبْغُون فى الأرضِ بغير الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم » .

---

(١) هذا ما يعرف عند الصوفية بمراعاة الأنفاس .

(٢) هذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

(٣) ما بين القوسين سقط فى ص وموجود فى م .

عَلِمَ الله أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس ، ولا يتمكن من محاسن الُخلُق فرخَّص لهم فى المكافأة على سبيل العدل والقسط — وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو.

« إنما السبيل على الذين يظلمون الناس . . » : السبيلُ بالملامة لِمَنْ جاوز الحدَّ ، (وعدا الطَّوْرَ)[1] ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل . . فهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : « ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور » .

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى ، وغَفَرَ — بالتجاوز عن الخَصْمِ — ولم تبقَ لنَفْسِه عليه دعوى ، بل يُبرِئُ خَصْمَه من كل دعوى ، فى الدنيا والعُقبى . . فذلك من عزم الأمور .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يُضْلِلْ اللهُ فما له من وليٍّ مِنْ بَعْدِه وترى الظالمين لَمَّا رأوُا العذابَ يقُولُون هل إلى مَرَدٍّ منْ سبيلٍ » .

إنَّ الذين أضلَّهم اللهُ ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم ، وأوقعهم فى كدِّ عقوبتهم ، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكمِ ربِّهم ليس لهم وليٌّ من دون الله ، ولا مانعَ لهم من عذابه . وتراهم إذا رأوا العذابَ يطلبون منه النجاة فلا ينالونها .

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ ؛ لا تنفعهم ندامةٌ ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ ، ويُعَيِّرُهم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون ، فاليومَ لا ناصرَ ينصرهم ، ولا راحمَ يرحمهم .

قوله جل ذكره . « استجيبُوا لربِّكم مِنْ قَبْلِ أَنْ يأتىَ يومٌ لا مَرَدَّ له مِنَ اللهِ ما لكم مِن ملجأٍ يومَئذٍ وما لكُم من نَكِيرٍ » .

الاستجابةُ لله الوفاء بعهده ، والقيامُ بحقِّه ، والرجوعُ عن مخالفته إلى موافقته، والاستسلامُ

---

[1] فى ص (وعد) وهى خطأ فى النسخ . ويقال عدا وتعدى الطور أى جاوز حده وقدره (الوسيط) .

فى كل وقتٍ لحكمه . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُغلَقُ البابُ على القلب بغتةً ، ويُؤْخَذُ فلتةً .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليكَ إلا البلاغُ » .

فإنْ أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .

« وإنَّا إذا أذَقْنا الإنسان مِنَّا رحمةً فَرِحَ بها ، وإنْ تُصِبْهُم سيئةٌ بما قَدَّمت أيديهم فإنَّ الإنسانَ كفورٌ » .

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة ، وقابلها بالبَطَرِ ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة ، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة . وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا ، جحودٌ لآياتنا .

قوله جل ذكره : « لله مُلْكُ السموات والأرض يَخْلُقُ ما يشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يشاء إناثاً ويَهَبُ لِمَنْ يشاء الذكور »[1] .... .

يهب لمن يشاء الذكور ، ولمن يشاء الإناث ، ولمن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقيماً ، فلا اعتراضَ عليه فى تقديره ، ولا افتياتَ فى اختياره ، فهو أَوْلَى بعباده من عباده .

قوله جل ذكره : « وما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وحياً أو مِنْ وراءِ حجابٍ أو يُرْسِل رسولا فيوحِيَ بإذْنه ما يشاء إنَّه عَلِيٌّ حكيم » .

لله بحقِّ مُلْكِه أن يفعل ما يشاء ، ويعطى مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء ، ولكن أجرى

---

(١) يرى النسفى أنه قدم الإناث على الذكور هنا ليوضح أنه فاعل لما يشاؤه لا لما يشاء الإنسان ، فكان تقديم الإناث اللاتى من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم . حـ ٤ ص ١١١ .

العادة وحَكَمَ بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ فى هذه الآية ؛ فلم يُكَلِّم أحداً إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحقَّ ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب ، والحجابُ أن يخلق فى محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى اللهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التى يُسْبَلُ عليها ستر . إنه « عَلِىٌّ » : فى شأنه وقَدْرِه ، « حكيمٌ » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أَمْرِنا
ما كُنْتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ
ولكن جعلناه نوراً نهدى به مَنْ نشاءُ
من عِبادنا وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ
مستقيم » .

أى ذلك مثلما أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَياًّ .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .

« ما كنت تدرى ما الكتاب . . » : ما كنت تدرى قبل هذا ماالقرآن ، «ولا الإيمان»: أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه » : أى القرآن « نوراً » نهدى به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

« ألاَ إلى الله تصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سُورَةُ الزُّخْرُف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم « الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بجُودِه وكَرَمِهِ لم يُعَلِّقْ بغيره صواعدَ هِمَمِهِ ، ولم يَقِف على سُدَّةِ مخلوقٍ بِقَدَمِهِ فى ابتغاء كَرَمِهِ . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَه خفايا لُطْفِه[1] لم يتذلـل[2] فى طَلَب شىء مِنْ غيرِه ، ولم يَرْجِـع إلى غيره فى شَرِّه وخَيْرِه .

قوله جل ذكره : « حم * والـكتابِ المبين * إنَّا جعلناه قرآناً عربياً لعلـكم تَعْقِلُون »

الحاء تدل على حياته والميمُ على مجده . . وهذا قَسَمٌ ؛ ومعناه : وحياتى ومجدى وهذا القرآنِ إنَّ الذى أخبرْتُ عن رحمتى بعبادى المؤمنين حقٌّ وصِدْقٌ . وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليـكم فَهْمُ معناه .

قوله جل ذكره : « وإنَّه فى أُمِّ الـكتابِ لدينـا لَعَلِيٌّ حكيم »

« فى أم الـكتاب لدينا » : أى أنه مكتوب فى اللَّوح المحفوظ .

« لعلىٌّ حكيم » لَعَلِيُّ القَدْرِ ، حكيمُ الوصفِ ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل .

قوله جل ذكره : « أَفَنَضْرِبُ عنـكم الذكرَ صفحاً أَنْ كنتم قوماً مُسرِفين »

أى أننا لا نفعل ذلك ؛ (فيـكون معنى الاستفهام)[3] أفنقطع عنـكم خطابَنا وتعريفَنا

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خفاء حكمه) . وقد آثرنا الأولى لأنها أكثر تدعيماً للسياق .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (لم تبدلل) وواضح الخطأ الناسخ .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا ليتماسك السياق . والاستفهام فى الآية يفيد الإنكار .

إنْ أسرفتم فى خلافكم ؟ لا . . . إننا لا نرفع التكليف بِأَنْ خالَفْتُم ، ولا نهجركم — بِقَطْع الكلام عنكم — إنْ أسرفتم .

وفى هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ — اليومَ — عمَّنْ تمادَى فى عصيانه ، وأسرف فى أكثر شانه . فأحرى أنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ فى إيمانه — وإنْ تَلَطَّخَ بعصيانه ، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ فى عِرفانه — ألا يَمْنَعَ عنه لطائفَ غفرانه[1] .

قوله جل ذكره : « وكم أرسلنا من نبىٍّ فى الأوَّلين *

وما يأتيهم من نبىٍّ إلَّا كانوا

به يستهزئون » .

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق ، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا ، وعلى غَيِّهم أَصَرُّوا . . .

« فأهْلَكْنا أشَدَّ منهم بَطْشاً »

أى لم يُعْجِزْنا أحدٌ منهم ، ولم نغادِرْ منهم أحداً ، وانتقمنا مِنَ الذين أساءوا .

قوله جل ذكره : « ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ

والأرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليم »

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالقُهم ، وأنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياء ، وحديثَ البعثِ وجوازه .

« الذى جعل لكم الأرضَ مَهْداً وجَعَلَ

لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون »

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم ؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ الأرضِ ، فإذا انتهت المدةُ — مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ — حَكَمَ اللهُ بخرابها . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّة قضى اللهُ بخرابها .

---

(١) هكذا تتجلى نزعة الأمل والتفاؤل عند هذا الصوفى حيث يحاول فى إشارته أن يبين كيف أن رحمة الله تمتد لتشمل المؤمنين العصاة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذى نَزَّلَ من السماء ماءً بِقَدَرٍ فأنشرنا به بلدةً مَيْتاً كذلك تُخْرَجون »

يعنى كما يُحْيِي الأرضَ بالمطَرِ يُحْيِي القلوبَ بحُسن النَّظَر .

قوله جل ذكره : « والذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها »

أى الأصنافَ من الخلْق

« وجعل لكم من الفُلْكِ والأنعامِ ما تَرْكبون »

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها ؛ فمِنْ رغبةٍ فى الخيرات إلى رهبةٍ مما توعَّدكم به من العقوبات . ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزَّلَّات إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً فى المثوبات . . وغير ذلك من فنون الصِّفات

« لِتَسْتَوُوا على ظهورِه » .

يعنى الفُلْكَ والأنعام . .

« ثم تَذْكُروا نِعْمَةَ ربِّكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سَخَّرَ لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرِنين »

مطيعين ، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ فى البحر ، والدوابَّ للركوب ، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك (سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلَهم عليه إلى بساط الطاعة[1]) ، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عَرَصَات الجود ، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوةِ العِزَّةِ . وعند ذلك تَحطُّ الكافة ؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ : سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أو نبياً مُرْسَلاً أو ولياً مُكَرَّماً ، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوقٍ[2] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م فأثبتناه فى هذا الموضع ؛ لأن مرتبة المؤمنين عامة تليها مرتبة المريدين وهى خاصة ، ثم العارفين وهم خواص الخواص .

(٢) يرتبط ذلك بمذهب القشيرى فى «الفناء» ، وكيف أن الصمدية تجل عن الاستشراف .. ناهيك بما يزعمه آخرون من حلول واتحاد .. وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « وجعلوا له من عبادِه جُزْءًا إنَّ الإنسانَ لَـكَفُورٌ مبينٌ »

هم الذين قالوا : الملائـكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته .. تَعَسَاً لهم فى قولهم ذلك وخِزْياً [1] ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلا :

« أم اتَّخذَ مما يَخْلُقُ بناتٍ وأصفاكم بالبنين »

قال لهم على جهة التوبيخ ، وعابَهم بما قالوا ؛ إذ — على حدِّ قولهم — كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات ؟ ! ففى قولهم ضلالٌ ؛ إذ حكموا للقديمِ بالوَلَدَ . وفيه جهلٌ ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين — وهم يستنـكفون من البنات . . ثم .. أى عيب فى البنات ؟ ثم . . كيف يحكمون بأن الملائـكة إناثٌ — وهم لم يشاهدوا خِلْقتَهم؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً .

قوله جل ذكره : « وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم مالهم بذلك مِن عِلْمٍ إنْ هم إلّا يَخْرُصُون »

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً ، فقال تعالى : « ما لهم بذلك من علم » ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولا .

ثم قال : « أم آتيْنَاهم كتاباً من قَبْلِه فهم به مُسْتَمْسِكونَ »

أى ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضى إلى العلم ، فقال :

« بل قالوا إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مُهْتَدون »

---

(١) في م (وحزناً) وهى غير ملائمة — كما هو واضح .

فنحن نقتدى بهم ، ثم قال :

« وكذلك ما أرسلنا مِن قَبْلِكَ فى
قريةٍ من نذيرٍ إلا قَال مُتْرَفُوها إنَّا
وجدنا آباءنا عَلَى أُمَّةٍ وإنا عَلَى آثارهم
مقتدون »

سلكوا طريقَ هؤلاء فى التقليد لأسلافهم ، والاستنامةِ إلى ما اعتادوه من السِّيرة والعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَو لو جئتُكم بأهدى
مما وجَدْتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما
أُرْسِلْتُم به كافرون »

فلم ينجعْ فيهم قولُه ، ولم ينفعْهم وَعْظُه ، وأَصرُّوا عَلَى تكذيبهم ، فانتقمَ الحقُّ — سبحانه — منهم كما فعل بالذين من قبلهم .

قوله جل ذكره : « وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه
إننى بَرَاءٌ ممّا تعبدون »

أخبر أَنَّ ابراهيمَ لمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أبَوْا إلَّا تكذيبَه ؛ فتبرّأَ منهم بأجمعِهم ، وجعلَ اللهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً فى عَقِبِه وقومه .

قوله جل ذكره : « بل مَتَّعْتُ هؤلاء وآباءهم
حتى جاءهم الحقُّ ورسولٌ مبين » .

أَرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً ، ثم كان أمرُهم[1] أَنْ انتصرْنا منهم ، ودَمّرْناهم أجْمعين .

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ

---

(١) هكذا في ص وهى في م (آخرهم) وهى مقبولة في السياق على معنى (آخر أمرهم) أو (آخر شأنهم) .

عَلَى رجل من القريتين عظيم »

إمّا أبى مسعود الثقفى[1] أو أبى جهل ، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم .

« أهم يَقْسِمون رحمةَ ربِّكَ ؟
نحن قَسَمْنَا بينَهم معيشتَهم فى الحياةِ
الدنيا ورفعنَا بعضَهم فوقَ بعضٍ
درجاتٍ ليتخذَ بعضُهُمْ بعضاً سُخْرِيًّا ،
ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ ممّا يَجْمَعون »

أهم يَقْسِمون - يا محمد - رحمةَ ربك فى التخصيص بالنبوة ؟ أيكون اختيارُ الله - سبحانه - عَلَى مقتضى هواهم ؟ بئس ما يحكمون !

« نحن قسمنا بينهم ...... » فلم نجعل القسمة فى الحياة الدنيا لهم .... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء ؟! .....

والإشارة من هذا : أن الحقَّ - سبحانه - لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوة إلى أحد ، وإنما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَره ، والمقبولُ - من جملة عباده - مَنْ أراده وقَبِلَه . . . لا لعلّةٍ أو سبب ، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسَب[2] . . .

ثمّ إنه قَسَمَ لِبعضِ عِباده النعمةَ والغنى ، وللبعض القلّةَ والفقر ، وجعل لكلِّ واحدٍ منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به ؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام .. فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهودُ المُنْعِم والقَسَّام .. فَحَمدوا وافتخروا . الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : « نحن » فاشتغلوا[3] .

---

(١) هو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى من الطائف ، وأبو جهل من مكة فالقريتان هما الطائف ومكة . وروى أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ريحانة قريش - كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً انزل علىّ أو على أبى مسعود .

(٢) مرة أخرى ينبه القشيرى إلى أن المعول عليه فى الأمر فضل الله وقسمته ، ولهذا الرأى شأنه فى مسألة الثواب والعقاب التى اتخذها المعتزلة وسيلةً من وسائل تبرير الحرية الإنسانية - كما نبهنا إلى ذلك فى هوامش كثيرة من الكتاب .

(٣) أى (اشتغلوا) بالله وطاعته دون غاية غيرية أو مطمع زائل . ونحن لا نستبعد أنها قد تكون فى الأصل (فاستقلوا) فهذا هو تعبير الشيخ المألوف فى مثل هذا السياق .

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى ؛ وأنتم ترجعون بالنبى إلى أهليكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِياً .. » : لو كانت المقاديرُ متساويةً لتعطلت المعايشُ ، ولَبَقِىَ كلٌّ عندَ حاله ؛ فجعل بعضَهم مخصوصين بالرّفه والمال ، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال .. حتى احتاج الفقيرُ فى جَبْرِ حاجته إلى أن يعملَ للغنىِّ كى يرتفق من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنىِّ والفقير جميعاً .

قوله جل ذكره : « ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً
لجعلنا لِمَنْ يَكفُرُ بالرحمنِ لبيوتهم
سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهَرُون »

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذى يبقى عنَّا لو صَبَبْنَا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته . ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهمْ سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا .

ولو فعلنا .. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ ؛ لأنَّ الدنيا بأَسْرِها ليس لها عندنا خطر .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمنِ
نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين » .

مَنْ لم يعرفْ قَدْرَ الخلوة مع اللهِ حَادَ عن ذكره ، وأَخلدَ إلى الخواطر الرديَّة قيَّضَ اللهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله — وهذا جَزاءُ مَنْ تَركَ الأدبَ فى الخلوة . وإذا اشتغل العبدُ فى خلوته بربِّه .. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحقُ عنه بأى وجْهٍ كان ، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بمَا يشغله عن الله .

ويقال : أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغِ قلبه ، واتَّبَعَ شهوته ، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسه بقى فى يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلّصُ عنه إلا بعد مُدَّة .

قوله جل ذكره : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل
ويحْسَبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا

قال يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشْرِقين
فبئس القرين »

الذي سوّلت له نفْسُه أمراً يتَوَهَّمُ أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبَه على موافقته في باطله ، ويدّعى أنه على حقٍّ . وهو بهذا يَضُر بنَفْسِه ويضر بغيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانته ، وندِمَ على صُحْبَتِه ، ويقول : « يا ويلتَىٰ ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً »[1] و « ياليت بيني وبينك بعد المشرقين » . ولكنَّ هذه الندامةَ لا تنفعُ حينئذٍ ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينفعكم اليومَ إذ ظّلمتم أنكم
في العذاب مُشْتَرِكون »

قوله جل ذكره : « أَفأنت تُسْمِعُ الصُّمّ أو تَهْدِى
العُمْىَ ومَنْ كان في ضلالٍ مبين » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي ؛ أي أنه ليس يمكنُكَ هدايةَ مَنْ سَدَدْنا بصيرته ، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه ، ومَنْ صَبَبْنا في مسامع فَهْمه رصاصَ الشقاء والحرمان ... فكيف يمكنك إسْمَاعه؟!

قوله جل ذكره : « فإمّا نَذْهَبنّ بِكَ فإنَّا مِنهم
منتقمون »

يعنى : إنْ انقضى أَجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوّعدُهم به فلا تتوهَّمْ أنَّ صِدْقَ كلامِنا يشوبُه مَيْنٌ[2] ، فإنّ ما أَخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أو نُرِينَّكَ الذي وعدناهم فإنا عليهم
مقتدرون »

أَثبتَهُ عَلَى حدِّ الخوفِ[3] والرجاء ، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده[4] — سبحانه

---

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .

(٢) في م (مبين) وهي خطأ في النسخ إذ الصواب (المين) أي الكذب .

(٣) في ص (الحزن) ، لكننا آثرنا عليها ما جاء في م فالخوف — لا الحزن — يقابل الرجاء في المصطلح الصوفي (أنظر رسالة القشيري ص ٣٥) .

(٤) استبد بالأمر = انفرد به (الوسيط) .

بعلم الغيب . والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير — فالله يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستمسِكْ بالذى أُوحِىَ إليكَ إنك على صراطٍ مستقيم »

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكَّلْ على اللهِ من غير فُتور ، وقِفْ حيثما أُمِرْتَ ، وثِقْ بأنك على صِراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإنه لَذِكْرٌ لكَ ولقومِكَ وسوف تُسْألون » .

أى إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك ؛ أى شرفٌ لك ، وحُسْنُ صيتٍ ، واستحقاقُ منزلةٍ .

قوله جل ذكره : « واسْأَلْ مَنْ أرسلنا مِنْ قَبْلِك مِنْ رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلِهةً يُعْبَدُون » .

حَشَرَ أرواحَ الأنبياء — عليهم السلام — ليلةَ الإسراء ، وقيل له — صلى الله عليه وسلم : سَلْهم : هل أَمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يَشُكّ النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل[1]

ويقال : الخطابُ له ، والمرادُ به غيره . فَمَنْ يرتاب فى ذلك ؟ (ويقال : المراد منه سَلْ أقوامهم ، لكى إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ فى إبرام الحجه عليهم)[2] .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا . . . .

. . . . إذا هم منها يضحكون »

كرَّر قصةَ موسىَ غيرَ مرةٍ فى القرآن ، وأعادَها هنا مجملةً ؛ أرسلناه بدلائلنا ، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، فقوبل بالهزء والضحك

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » وعنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ص وموجود فى م ، والمقصود بها : اسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والانجيل — وعلى هذا الرأى جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحاك وقتادة .

والتكذيب . ومع أنَّ اللهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاء أَوْحَشَ مما قبله . فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا : يأيها الساحرُ ، ادْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمنَ بك ، فدعا موسى ... فكشف اللهُ عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُم .

قوله جل ذكره : « ونادى فرعونُ فى قومه قال : يا قومِ أليس لى مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ تجرى مِنْ تحتى أفلا تُبْصِرون » .

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر ، وجَرْىِ النيل بأمره ! وكان فى ذلك هلاكُه ؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تعزَّزَ بشيء من دونِ الله فحتفُه وهلاكُه فى ذلك الشيء .

« أم أنا خيرٌ مِنْ هذا الذى هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبِين » .

استصغر موسى وحديثَه ، وعابَه بالفقر . . فَسَلَّطه اللهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطه اللهُ عليه[1] .

قوله جل ذكره : « فاستَخَفَّ قَوْمَه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقِين »

أطاعوه طاعةَ الرهبة ، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخاصةً ، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة .

قوله جل ذكره : « فلمَّا آسَفُونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .

« آسفونا » أغضبونا ، وإنما أراد أغضبوا أولياءنا ، فانتقمنا منهم . وهذا له أصل فى باب

---

(1) يحاول القشيرى أن يغمز بأولئك الذين يتعرضون للأولياء والعارفين ، وكيف أن الحق - سبحانه - يتولى عنهم ردَّ كيد الكائدين .

الجمع[1] ؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِه . . وفى الخبر : أنه يقول : «مَرِضْتُ فلم تَعُدْنى[2] .

وقال فى قصة ابراهيم عليه : « يأتوك رجالاً . . » [3]

وقال فى قصة نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[4] .

قوله جل ذكره : ولمَّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مَثَلاً إذا قومُكَ منه يَصِدُّون » .

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »[5] ؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين . فجحدوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »[6] ، فقالوا : رضينا بأن نكون فى النار مع عيسى وعُزَيْرْ والملائكة ، وليس لهم فى الآية موضع ذِكْر ؛ لأنه سبحانه قال : « وما » تعبدون ، ولم يقل « ومن » تعبدون[7] .

قوله جل ذكره : وقالوا ءآلهتُنا خيرٌ أم هُوَ ما ضربوه لك إلَّا جَدَلاً بل هم قومٌ خَصِمون » .

ما ضربوه لك إلا جدلاً »:وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة ، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم

---

(١) عندما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى منصرفاً إلى حال الجمع ، وعندما ينسب إلى الخلق يكون منصرفاً إلى حال الفرق ، مثلما أوضح القشيرى هنا ، ومثلما أوضح عند قوله تعالى «: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : «يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، واستسقيتك فلم تسقنى ، واستطعمتك فلم تطعمنى» القرطبى : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج . والخطاب فى الآية لابرهيم في مقام الفرق ، ولنبينا في مقام الجمع .

(٤) آية ٨٠ سورة النساء .

(٥) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن « من » للعاقل و« ما » لغير العاقل فالمقصود الأصنام .

خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعْبَد ، إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحقٍ أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بيَّن الله — سبحانه — لنبيِّه أنهم قوم جَدِلون[1] ، وأنَّ حُجَّتَهم داحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل » .

فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة .

« ولو نشاء لَجَعَلْنا منكم ملائكةً في الأرضِ يَخْلُفُون »

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم .

ثم قال : « وإنه لَعِلْمٌ للساعةِ فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ هذا صِراطٌ مستقيم »

« وإنه لعِلْمٌ للساعة » : يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة ، « فلا تمترنَّ » بنزوله بين يديّ القيامة[2] .

« ولا يَصُدَنَّكم الشيطانُ إنه لكم عدوٌّ مبين »

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة ، وعن اتِّباع الإيمانِ بهُداى .

---

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التي حاول بها عبد الله بن الزبعرى السهمى أن يستهوى قريشاً بإثارة اعتراضات باطلة ، فأفحمه المنطق القرآني ، وأخرس لجاجه .

يقول معروف الكرخى : إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروض الفائق ، ج ١ ، ص ١٣٩) .

(٢) عن أبي هريرة — كما ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه — قال قال رسول الله (ص) : لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يُسعى إليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » .

قوله جل ذكره : « ولمّا جاء عيسى بالبيناتِ قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّنَ لكم بعضَ الذى تختلفون فيه فاتقوا اللهَ وأطيعونِ » .

ذكرَ مجيءَ عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزّبوا عليه[1] ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

« الأَخلاَّء يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين » .

ما كان لغيرِ اللهِ فمآلُه إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرَّأ بعضُهم من بعضَ ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .

وأمّا الأخلاء فى الله فيشفع بعضهم فى بعض ، ويتكلم بعضهم فى شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : « إلا المتقين » .

وشرط الخلّة[2] فى الله ؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً فى الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعضٍ ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ فى الدنيا ، ويكون قبولُ بعضهم بعض لأجْلِ الله ، ولا تجرى بينهم مُداهَنَـةٌ ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم فى صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللهِ يقبـله ، فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضـاه اللهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه غاد هذا إلى مودته ، وإلّا فلا ينبغى أن يُساعدَه عَلَى معصيته ، كما ينبغى أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوى أو لطمعٍ أو لِعِوَض .

قوله جل ذكره : « يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزَنُون » .

يقـال لهم غداً : « يا عبـادى[3] لا خوفٌ عليكم اليومَ » ممـا يلقـاه أهل

---

(١) كان تحزبهم إلى فرق متعددة هم : اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية .

(٢) تضاف هذه الآراء إلى ما ذكره القشيرى فى رسالته فى باب « الصحبة » .

(٣) بالياء فى الوصل والوقف مدنى وشامى وأبو عمرو ، وبفتح الياء أبو بكر ، والباقون بحذف الياء .

الجمع[1] من الأهوال ، ولا أنتم تحزنون فيما قصَّرْتُم من الأعمال ...

أمَّا الذنوب . . فقد غفرناها ، وأمَّا الأهوال ... فكفيناها ، وأمَّا المظالم . . فقضيناها .

فإذا قال المنادى : هذا الخطاب يُطْمِعُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :

« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أَيِسَ الكفارُ ، وقَوِىَ رجاءُ المسلمين[2] .

قوله جل ذكره : « أدخُلوا الجنةَ أنتم وأزواجُكم تُحْبَرُون[3] »

فى رياض الجنة ، وترْتَعون .

ويقال : « تحبرون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطَافُ عليهم بصِحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتم فيها خالدون » .

العُبَّاد لهم فيها ما تشتهى أنفسهم لأنهم قاسوا فى الدنيا — بحُكم المجاهدات — الجوعَ والعطشَ ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقِّ ، فيُجازون فى الجنةَ بوجوهٍ من الثواب .

وأمَّا أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله[4] لطول ما قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم .

---

(١) يفسر النسفى أهل الجمع بأنهم أهل مكة (آية ٤٥ سورة القمر) .

(٢) قريبٌ مما ذكره القشيرى ما أورده الحارث المحاسبى فى رعايته : (ينادى المنادى يوم القيامة « يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ... » فيرفع الخلائق رءوسهم ، ويقولون : نحن عباد الله. ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا ... » ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحبرون أى تسرون سروراً يظهر حباره (= أثره) على وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، ورد فى الخبر : أسألك لذة النظر إلى وجهك » .

قوله جل ذكره : « وتلك الجنةُ التى أُورِثْتمُوها بما كنتم تعملون »

أى يقال لهم — والخطاب للمطيعين غداً — : أنتم يا أصحابَ الإخلاص فى أعمالكم ؛ والصدق فى أحوالكم :

« لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون ».

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفى الأُنْس تتقبلون .

قوله جل ذكره :« إنَّ المجرمين في عذاب جهنَّم خالدون» .

هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود[1] ، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف.

وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قومٌ فى النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليلُ الخطابِ يقتضى أنه يُفَتَّرُ عنهم العذاب . ورد فى الخبر الصحيح : أنه يُميتهم الحقُّ — سبحانه — إماتةً إلى أن يُخرِجَهم من النار — والميت لايحسُّ ولا يتألم[2] .

« لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون ».

الإبلاس[3] من الخيبة ، ويدل ذلك عَلَى أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا فى بلائهم فهم عَلَى وصف رجائهم ؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهى حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حالَ المؤمن فى النار — من وجهٍ — أَرْوَحُ لقلبه من حاله فى الدنيا ؛ فاليومَ — خوفُ الهلاكِ ، وغداً — يقينُ النجاة ، وأنشدوا :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها ... متوقِّعٌ لقواصم الظَّهْرِ
وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها ... عقبَ الرجاءِ — مودةَ الدهرِ

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى في أبدية النار ، على خلاف ما يذهب إليه البعض الباحثين من أن القوة الجسمانية متناهية فلا بد من فنائها ،ولأن دوام الإحراق مع بقاء الحياة خروج عن حكم العقل (انظر شرح المواقف ، جـ ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) روى أحمد فى مسنده : « . . أماتهم إماتةً حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيء بهم بضائر بضائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم فينبتون نبات الجنة .. »

(٣) أبلس : سكت لحيرته وانقطاع حجته .

قوله جل ذكره: « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر — وإنْ جلّ قَدْرُه — سبحانه — عن ذلك .

قوله جل ذكره : « ونادوا يا مالكُ ليَقْضِ علينا ربُّكَ
قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحقِّ
ولكنَّ أكثرَكم للحقِّ كارِهون » .

لو قالوا : « يا مَلِك » لعلَّ أقوالَهم[1] كانت أقربَ إلى الإجابة ، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك[2] ، فكان الجوابُ عليهم :

« إنكم ماكثون » فيها .. نُصِحتم فلم تنتصحوا ، ولم تقبلوا القولَ في حينه ، وكان أكثرهم للحق كارهين .

قوله جل ذكره : « أم أبْرَموا أمراً فإنَّا مُبرِمون »[3]

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم ؛ فلا يتمشّى لهم شيء مما دبَّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ عَلَى نحو ما قدَّروه — وهذه الحالُ أوضحُ دليل عَلَى إثبات الصانع .

قوله جل ذكره : « أم يَحْسَبون أنَّا لا نَسْمَعُ سِرّهم
ونجواهم بلى ورُسُلُنا لديهم يكتبون » .

إنما خوَّفهم بسماع المَلَكَ ، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله — سبحانه ، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خوَّفهم بغير الله ، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه ، وأنه يُطَالَبُ بمقتضى ذلك — قَلَّ إلمامُه بما يخاف أنْ يُسْأَلَ عنه ..

قوله جل ذكره : « قُلْ إنْ كان للرحمن وَلَدٌ فأنا أوّلُ
العابدين » .

---

(١) في ص (أحوالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التي في م كما يتضح من السياق القرآني والسياق التفسيري .

(٢) يلفت القشيري نظرنا — من بعيد — إلى أن الدعاء ينبغي أن يتجه بالكلية إلى الرب سبحانه ، وقد يكون لذلك أهميته في فكرة الاستشفاع بالوسيلة — كما يتصورها هذا الإمام.

(٣) يقال إن الآية نزلت في تدبير الكائدين المكر بالنبي (ص) في دار الندوة حين استقر أمرهم — حسب مشورة أبي جهل — على أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ثم يشتركون في قتله فتضعف المطالبة بدمه صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن قتلوا جميعاً يوم بدر .

أى إنْ كان فى ضميركم وفى حُكْمِكم وفى اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أوَّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه المقالة .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّ السمواتِ والأرضِ ربِّ
العرشِ عمَّا يَصِفون » .

تنزَّه الله تنزيهاً ، وتقدَّس تقديساً عمَّا قالوه . وفى هذه الآيات وأمثالِهَا دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة — فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود — قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً بتقبيح أقوالهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جلَّ ذكره : « فَذَرْهُمْ يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا
يومَهم الذى يُوعَدون » .

إذ ليس يفوت أمرُهم ، وهم لا محالةَ سيلقون صغرهم . .
وفى هذا دليلٌ على أنه لا ينبغى للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة .

قوله جل ذكره « وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ
إلهٌ وهو الحكيمُ العليمُ » .

المعبودُ — فى السماء — اللهُ ، والمقصودُ — فى طلب الحوائج فى الأرضِ — اللهُ .
أهلُ السماءِ لا يعبدون غيرَ الله ، وأهل الأرضِ لا يَقْضِى حوائجَهم غير الله .
« وهو الحكيم » فى إمهالِه للعُصاة ، « العليم » بأحوالِ العِباد .

« وتبارك الذى له مُلْكُ السمواتِ
والأرضِ وما بينهما وعنده علمُ الساعةِ
وإليه تُرْجَعون » .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرض .
السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . . لا هو بظهورها يتعزَّز[1] .

---

(١) الصوفية يستدلون بالخالق على ما خلق ، لأنه حاضر ومشهود ، وهو قديم قامت به الحادثات ... يقول ابن عطاء الله السكندرى : « متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يَدْعون من دونه الشفاعةَ إلا مَنْ شهِدَ بالحقِّ وهم يعلمون» .

أى شهد — اليوم — بالتوحيد ، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة[1] .

قوله جل ذكره : « ولَئِنْ سألتَهم مَنْ خَلَقَهم ليقولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤْفَكون » .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبَّرون عن طاعة الله .

« وقِيلِه يا ربِّ إنَّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون * فاصفحْ عنهم وقُلْ سلامٌ فسوف يَعْلَمون »

أى يعلم علمَ الساعة ويعلم[2] « قِيلَه يارب »

« فاصفح عنهم . . » أى أَمْهِلْهُم ، وقل لكم منى سلامٌ... ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون .

---

(١) واضح أن القشيرى يصرف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ، وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) عاصم وحمزة يجران (قيلِه) على الإضافة وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسبعة على النصب : ويعلم قيلَه ...

سورة الدّخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ ذَكَرَها نال فى الدنيا والعُقْبى بهجته ، ومَنْ عَرَفَها بَذَلَ فى طلبها مُهْجَتَه .

كلمةٌ إذا استولت على قلبٍ عطَّلَته عن كلِّ شُغْل ، كلمةٌ إذا واظَبَ على ذِكْرِها عَبْد أَمَّنَتْه من كلِّ هَوْل .

قوله جل ذكره : « حَم * والكتابِ المبين »

الحاء تشير إلى حقِّه ؛ والميم تشير إلى محبته . ومعناه : بحقى وبمحبتى لِعبادى ، وبكتابى العزيز إليهم : إنِّى لا أُعَذِّبُ أهلَ معرفتى بفرقتى[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ إنَّا كُنَّا مُنْذِرِين * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حكيم »

« فى ليلة مباركة » : قيل هى ليلة القَدْر ، وقيل هى النصف من شعبان وهى ليلة الصَّك[2] .
أَنْزَلَ القرآنَ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم[3] .

وسمَّاها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالى بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً بقلبه ، مشاهداً لربِّه ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة .

---

(١) يبدو أن القشيرى لم يعتبر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسم ، وإلى هذا يذهب بعض النحاة الذين يعتبرون ذلك صفةً للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المُقْسَمِ به جواباً للقسم (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٦ ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك .

(٣) أى على مدى ثلاث وعشرين سنة .

وأحوال هذه الطائفه[1] فى لياليهم مختلفة ، كما قالوا:

لا أَظْلِمُ الليـــلَ ولا أَدَّعى أَنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ
لَيلِي كما شاءت : قصيرٌ إذا جادَتْ ، وإنْ ضَنَّتْ فَلَيْلِي طويلُ

« فيها يفرق كل أمرٍ حكيم » يكتب من أمِّ الـكتاب فى هذه الليلة ما يحصل فى السنة كلِّها من أقسام الحوادث فى الخير والشرِّ ، فى المحن والمِنَنِ ، فى النصر والهزيمة ،فى الخصب والقحط .

ولهؤلاء القوم (يعنى الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب ، والوصل والفصل ، والوفاق والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والقبض والبسط . . فـكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحـكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أَمْراً من عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلين * رحمةً من ربِّكَ إنه هو السميعُ العليم » .

« رحمة من ربك » : وهى الرسولُ — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه : « أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إنا كنا مرسلين » رحمةً لنفوسُ أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .

« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين المحبين .

قوله جل ذكره : « ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إنْ كنتم موقنين »

مالك السموات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل فى ذلك أكسابُ العباد . وتَمَلُّـكُها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حَصَلَ مقدورٌ فى الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه ؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجِدَ[2] .

---

(1) يقصد طائفة الصوفية .

(2) لاحظ كيف يحاول القشيرى أن يدخل فى « وما بينهما » أفعالَ العباد ، فحتى أكساب العباد — فى نظر هذا المتكلم داخلةٌ — من حيث هى مقدورة — فى نطاق الخَلْق المنسوب إلى الله .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحيى ويُميتُ ربُّكم وربُّ آبائِكم الأولين »

هذه الكلمة فيها نَفْيُ ما أثبتوه بجهلهم ، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم .

« ربكم ورب آبائكم الأولين » : مُرَبِّي[1] أَصْلَكُمْ ونَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره : « بل هم فى شكٍّ يلعبون »

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجرى على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا[2] على نظام مخصوص ؛ فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعِبِ ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه فى عقيدته .

قوله جل ذكره : « فارتَقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخَان مبين » .

هذا من أشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها[3] .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أى تتم هنا فى هذه الدنيا) فيومُهم الذى تأتى السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب ، وانسدادِ ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ الأُنسِ بالأحباب وفى معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره : « يَغْشى الناسَ هذا عذابٌ أليم » .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين « التربية » و « الرب » .

(٢) سقطت (لا) من ص .. وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة في م ، ولا تخفى على القارىء روعة الربط بين « اللعب » و « اللعاب » ، ومدى السخرية من دماغ المنافق وقد ماثلت فما تتحرك فيه الشكوكُ تحرُّكَ اللعاب .

(٣) هناك اتجاهان في معنى « الدخان » في هذه الآية : أحدهما أنه – كما يذكر القشيرى أنه من أشراط الساعة ، خرَّجَ الثعلبى عن حذيفة أنه سأل النبى (ص) : « يانبى الله ، ما الدخان في هذه الآية ؟ فقال : هو دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأمَّا الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره » . وأما الاتجاه الثانى فهو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثانى بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل يوم القيامة ما كشفه اللهُ عن الناس .

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ فى الغالب ، وهو عذابٌ مُستعذَبٌ ، أولئك يقولون :

« ربَّنا اكْشِفْ عنَّا العذابَ إنَّامؤمِنون »

وهؤلاء يستزيدون — على العكس من الخلْق — العذابَ ، وفى ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ مآربى قد نِلْتُ منها سوى ملذوذِ وجدى بالعذاب(١)

فهم يسألون البلاءَ والخَلْقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البــلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه

إنَّ البــلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائى

قوله جل ذكره : « أنَّى لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مبين »

إنْ خالفوا دواعى قلوبهم من الخواطر(٢) التى تَرِدُ من الحقِّ عليهم عوقبوا — فى الوقتِ بما لا يتَّسعُ لهم ويُسْعفِهم ، فاذا أخذوا فى الاستغاثة(٣) يقال لهم : أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول(٤) على قلوبكم فخالفتم ؟ !

قوله جل ذكره : « إنَّا كاشِفو العذابِ قليلاً إنَّكم عائدون * يومَ نَبْطِشُ البطشةَ الكبرى إنَّا منتقِمون » .

---

(١) البيت للحلاج مسبوق بهذا البيت :

أريدك ، لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

(ديوان الحلاج المقطعة السابعة)

(٢) الخواطر من الحق ، والهواجس والوساوس من الشيطان .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الاستعانة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا عن الصوفية — مقصود به ما يَرِدُ على قلوبهم من لدن الحقِّ من الكشوفات والمواصلات .

حيث نورثكم حزنا طويلا ، ولا تجدون فى ظلال انتقامنا مقيلا .

قوله جل ذكره : ولقد فَتَنَّا قبلَهم قومَ فرعونَ وجاءهم رسولٌ كريم * أن أَدُّوا إلىّ عِبَادَ اللهِ إنِّى لكم رسولٌ أمين » .

فَتَنَهم[1] بعد ما أَصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة عنودهم[2]

« وجاءهم رسول كريم » : يطالبهم بازالة الظلم عن بنى اسرائيل ، وأن يستبصروا ، واستنفرهم لله ، وأظهر الُحجَّةَ من قِبَلِ الله .

« فأَسْرِ بعبادى ليلاً إنكم مُتَّبَعون » .

أَمَرَه بأن يَسْرِىَ بعباده المؤمنين ، وعرّفهم أنهم سُيَنْقَذون ، وأنَّ عدوَّهم « جُنْدٌ مُغْرَقون » .

قوله جل ذكره : « كم تركوا من جنَّاتٍ وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فٰكهين » .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .

« كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

وأَسْكَنَّا قوماً آخرين فى منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره . « فما بَكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظَرين » .

لم يكن لهم من القَدْرِ والَخطَرِ ما يتحرك فى العالَم بِسببَهم ساكنٌ ، أو يسكن متحركٌ

---

(١) هكذا في ص وهى مقبولة فى السياق إشارة إلى ما في الآية الكريمة : « ولقد فتنا . . . » أما في م فهى (فثبتهم) وواضح فيها خطأ الناسخ .

(٢) نفر الجلد : وَرِمَ وتجافي عن اللحم ، ونفرت المرأة عن زوجها : أعرضت وصدَّت ، ونفر من الشيء : فزع منه وانقبض غير راض به .

فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ ، ولا الغبراء لغيبتهم اخضَرَّتْ . لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثر ، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثَرٌ . وكيف تبكى السماءُ لَفقْدِ من لم تستبشر به مِنْ قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذى تُسَرُّ السماء بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكى عند غيابه وفَقْدِه[1] .

قوله جل ذكره : ولقد نَجَّيْنَا بنى إسرائيلَ من العذابِ المُهِين * من فرعون إنَّه كان عالياً من المُسْرفين * ولقد اخترناهم على عِلْمٍ على العالَمين » .

نجَّاهم ، وأشقى عدوَّهم ، وأهلكه .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم[2] ، فرفعنا — باختيارنا — من أقدارِهم ما وَضَعَه فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم .

ويقال : « على عِلمٍ منا » بأحوالهم أنهم يُؤْثِرون أمرَنا على كل شىء

ويقال : « على علمٍ منا » بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكاشفهم به من حقائق حقِّنا .

قوله جل ذكره : « وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاءٌ مبين »

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكَدَرِ والعناء[3] .

قوله جل ذكره : إن هؤلاء ليقولون * إن هى إلا مَوْتَتُنا

(١) عن شريح الحضرمى : قال النبى (ص) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فما مات مؤمن فى غربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » .

(٢) فى ص (إنذارهم) والسياق يرفضها ، والصواب ما فى م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنعمة والنقمة ، قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى ومانحن بِمُنْشَرِين * فأْتوا
بآبائِنا إنْ كنتم صادقين » .

اقترح أبو جهلٍ على النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يحييَ لهم نفساً[1]:
« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله — سبحانه — أنهم اقترحوا هذا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم،وإظهار ماأزاح لهم من العُذْر : ثم قال جلَّ ذكره :

أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّع والذين مِنْ قَبْلهم
أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين * وما خَلَقْنا
السموات والأرضَ ومابينهما لاعبين*ماخلقناهما
إلا بالحقِّ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

« تُبّع » هو ملك لليمن ، وكان مسلماً ، وكان فى قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومَه على كثرة عددهم ، وكمال قُوَّتهم .

قوله جل ذكره : « وماخَلَقْنا السموات والأرض . »

ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، بالحُكْمِ الحقِّ ؛ وبالأمرِ الحقِّ ... « فأنا مُحِقٌّ فى خَلْقِهما » : أى كان لى خَلْقُهما .

قوله جل ذكره :«إنَّ يومَ الفَصْل ميقاتُهم أجمعين* يومَ
لا يُغْنِي مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم
يُنْصرون * إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ إنه هو
العزيزُ الرحيم »

---

(١) حدَّد أبو جهل ذلك حين قال النبى: إبعث لنا — إن كنت صادقاً — رجلا مثل قصىّ بن كلاب لنسأله عمَّا يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل فيه ضعف ؛ لأن البعث يكون للجزاء لا للتكليف .

يومئذٍ لا يُغنى ناصرٌ عن ناصر ولاحميمٌ عن حميم ، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ . . شيئاً . ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله ؛ وبفَضْلِهِ ونِعْمته .

قوله جل ذكره : « إنَّ شجرة الزَّقوم * طعامُ الأثيم * كالمُهْل يغلى فى البطون * كغَلْى الحميم » .

« الأثيم » مرتكبُ الذنوب . « المهل » : النحاس المذاب . « الحميم » : الماء الحار .

قوله جل ذكره : « خُذُوه فاعتِلوه إلى سواءِ الجحيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسِهِ من عذاب الحميم » .

ادفعوا به إلى وسط الجحيم . ويقال له :

« ذُقْ إنك أنت العزيزُ الكريم » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهينٌ .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى مقامٍ أمين * فى جناتٍ وعيون » .

آمنين من المحن من جميع الوجوه ، لِباسُهم من حرير ، وفراشُهم من سندسٍ واستبرق ، « متقابلين » : لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلاً .

قوله جل ذكره : « كذلك وزَوَّجْناهُم بحورٍ عين » .

تُباح لهم صُحْبَتُهن ، ولا يكون فى الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ ، ويمكَّن الولىُّ بهذه الأوصاف من هذه الألطاف . ثم قد يُخْتطفُ قومٌ من بين هذه الأسباب ، فيتحررون عن هذه الجملة ؛ فكما أنهم فى الدنيا مُختَطَفُون عن كلِّ العلائق فإنهم فى الآخرة تطمع الحورُ العينُ فى صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شىء .[1]

---

(١) الصوفية الخُلَّص يعبدون الله لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من عذاب ، فرؤيةُ الله جنتهم ، واحتجابُه عنهم جهنمهم الكبرى . ومبعث ذلك أنهم يحبون الله لِذاته ، وفى ذلك يقول قائلهم :

إن ذا الحب لمن يفنى له ... لا لدارٍ ذات لهوٍ وطُرَف
لا ولا الفردوس – لا يألفها ... لا ولا الحوراء من فوق غرف

الزاهدُ فى الدنيا يحميه منها ، والعارفُ فى الجنة يحميه من الجنة .

قوله جل ذكره : « لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى

ووقاهم عذابَ الجحيم » .

الموتة الأولى هى بقبض أرواحهم فى الدنيا ، ويقيهم الله فى الآخرة العذابَ بفضله ، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية ، ونجاح السُّؤل .

قوله جل ذكره : « فإنما يسرناه بلسانك . . » .

يامحمد ، ليتذكر به أهلُك ، فارتقِبْ العواقبَ ترَ العجائب . إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه ، أحدٍ لا يستمسك بعيشه[1] ، جبارٍ ارتدى بكبريائه ، قهّارٍ اتصف بعزٍّ سنائه .

« بسم الله » باسم كريمٍ صَمَد ، لا يستغرقُ وجودَه أَمَد ، أبديٌّ عظيمٍ أَحَد ، لا يوجَدُ من دونه مَفَرٌّ ولا ملتحد .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيز الحكيم » .

« العزيز » : فى جلاله ، « الحكيم » : فى أفعاله .

« العزيز » : فى آزاله ، « الحكيم » : فى لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين » .

شواهد الربوبية لائحةٌ ، وأدلةُ الإلهية واضحةٌ ؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة ، ووضَعَ سِرَّه فى محالِّ العِبْرة[2] حَظِيَ — لا محالةَ — بحقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : « وفى خَلْقِكم وما يَبُثُّ من دابّةٍ آياتٌ لقومٍ يوقِنون » .

---

(١) هكذا فى ص ، وفى م . . ولو صح أنها هكذا عن القشيرى فربما كان قصده أن الله سبحانه — حى بدون عوامل استمساك تثبت هذه الحياة .. فهو حى لا بسبب أو عارض لأنه لا يفتقر إلى ذلك ، أما المحدث فإنه يعتمد فى حياته على ما يحفظ حياته ، وتزول هذه الحياة بزوال عوامل هذا الحفظ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (بعزه) ونحن نؤثر الأولى لملاءمة الاعتبار لسياق التدبر فى المخلوقات .

إذا أنعم العبدُ نظَرَه فى استواء قدِّه وقامته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وماهو مخصوص به فى جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ فى أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتياز بنى آدم من بين البريَّة من الحيوانات فى الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم فى الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة فى فنون الإحسان — عرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم ، وانفرادَهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كرَّمهم ، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمهم .

قوله جل ذكره : « واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزل
اللهُ من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرضَ
بعد موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ
لقومٍ يعقلون » .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقَّقَةً بالشواهد . فمَنْ لم يَستَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم[1] ، ووقع فى عذاب الجحيم ؛ فاليومَ فى ظلمة الحيرة والتقليد ، وفى الآخرة فى التخليد فى الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقِّ
فبأيِّ حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ؟ »

فمَنْ لا يؤمن بها فبأى حديثٍ يؤمن ؟ ومن أى أصل يستمد بعده ؟ ومن أى بحرٍ فى التحقيق يغترف ؟ هيهات ! ما بقى للإشكال فى هذا مجال .

قوله جل ذكره : وَيلٌ لكلِّ أفَّاكٍ أثيم * يسمعُ آياتِ
الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مُستكبراً
كأن لم يسمعها فبشِّرْه بعذابٍ أليم » .

---

(١) فى هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتنكرون للعلوم الكسبية ؛ فهى كما هو واضح ذات أهمية قصوى فى تثبيت الإيمان . هذا فى الوقت الذى يقر القشيرى بالعلوم الوهبية كما يتضح من الهامش رقم (٢) فى الصفحة التالية .

كلٌ صامتٍ ناطقٌ ؛ يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان فى الحكم[1] .

فَمَنْ استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين ، وتصدَّى لعِزِّ المنزلين . ومَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع فى وهدة الجهل ، ووُسِم بكىِّ الهَجْر .

قوله جل ذكره : « وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُوًا أولئك لهم عذابٌ مُهين » .

قابله بالعناد ، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيحٍ بإسناد ... فهؤلاء « لهم عذاب مهين » : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها شكٌّ فيما هو به من حاله ... فإذا استهان بها وقع فى ذُلِّ الحجبة وهوانِ الفرقة[2] .

قوله جل ذكره : « مِنْ وَرائهم جَهَنَّمُ ولا يُغْنى عنهم ما كَسَبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون اللهِ أولياء ولهم عذابٌ عظيم » .

فعند هذه الفترة ، وفى وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم ، ولهم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدكَ للبكا فليس لأيامِ الصفاءِ رجوعُ

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى سَخَّرَ لكم البحرَ لتجرىَ الفُلْكُ فيه بأمرِه ولتبتغوا من فَضْلِه ولعلَّكم تَشْكرون » .

عندما يركبون البحرَ فربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى أن كل شىء ناطق بالوحدانية .. إما نطق قالة — كما فى حال الإنسان ، وإما نطق دلالة — كما فى حال الجمادات .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى العلوم الوهبية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من روافد الإيمان الكشفى والتوحيد الشهودى .

وكذلك العبد فى فلك الاعتصام فى بحار التقدير ، تمشى به رياح العناية ، وأشْرِعَةُ التوكل مرفوعةٌ ، والسُّبُلُ فى بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ . أمَّا إنْ هبَّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبْقى بيد الملاَّحِ شىء ، والمقاديرُ غالبةٌ ، وسرعان ماتبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ .

قوله جل ذكره : « وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون » .

« جميعاً منه » : كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها — كلُّه منه سبحانه ؛ فما من شىءٍ من الأعيان الظاهرة إلّا — ومن وجهٍ — للانسان به انتفاع . . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماء لهم بناء ، والأرضُ لهم مهاد . . إلى غير ذلك . ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرك ما هو مُسَخَّرٌ لك ![1] وَلْيتأملْ العبدُ كلَّ شىء . . كيف إنْ كان خَلَلٌ فى شىء منها ماذا يمكن أن يكون ؟ ! فلولا الشمسُ . . كيف كان يمكن أن يتصرَّف فى النهار ؟[2] ولو لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل ؟ ولو لم يكن القمر . . كيف كان يهتدى إلى الحساب والآجال ؟ . . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جل ذكره : « قلْ للذين آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجُون أيامَ اللهِ ليَجْزِىَ قوماً بما كانوا يَكْسِبون »[3] .

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخلُق ، وجميلِ العِشْرَة ، والتجاوزِ عن الجهل ، والتنقى من كدورات البشرية . ومقتضياتِ الشُّحِّ .

---

(١) هذا الكلام ينصرف إلى الدنيا بأسرها .. فلا ينبغى أن يسترقك ما هو هبة لك .

(٢) بحثاً عن معاشه .

(٣) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمَّ أن يبطش به . ويقال نزلت فى عمر حينما أراد أن يبطش بغلام عبد الله بن أبىّ حين ذهب ليستقى فمنعه حتى ملئت قرب النبى وقرب أبى بكر ، فلما بلغ ذلك عبد الله قال : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فلما بلغ عمر ذلك اشتمل سيفه وأراد التوجه لقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وَبيَّنَ أنَّ اللهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أراد أَنْ يعرِفَ كيف يحفظ أولياءَه ، وكيف يُدَمِّر أعداءَه . فَلْيَصبِرْ أياماً قلائلَ ليَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلِنَفْسِه ومَنْ أساءَ فعليها ثم إلى ربكم تُرْجَعُون »

مَنْ عَمِلَ صالحاً فله مَهْناه ، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه . . ثم مرجعه إلى مولاه .

قوله جل ذكراه : « ولقد آتينا بنى اسرائيلَ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ورزقناهم من الطيباتِ وفضَّلناهم على العالَمين » .

كَرَّر فى غير موضعٍ ذِكْرَ موسى وذِكْرَ بنى اسرائيل . . بعضه على الجملة وبعضه على التفصيل . وهنا أَجْمَلَ فى هذا الموضع ، ثم عقبه حديث نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يَعلَمون »

أفردناك بلطائفَ فاعرفْها ، وسَنَنَّا لكَ طرائقَ فاسلُكْها ، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها ، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك :

« إنَّهم لن يُغْنُوا عنكَ من الله شيئا .. »

إنْ أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ . فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فكْرَكَ ، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شىء ، وثِقْ بربِّك ، وتوكَّلْ عليه .

قوله جل ذكره : «هذا بصائرُ للناس وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يوقِنون » .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأتْ انكشفت دونها تهمةُ التجويز .

ونَظَرُ الناسِ على مراتب[1] : فَمِنْ ناظرٍ بنور نجومه[2] — وهو صاحب عقل ،

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مراكب) بكاف وهى خطأ من الناسخ

(٢) « « « « « (وماهو) وهى خطأ من الناسخ .

ومن ناظرٍ بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السِّرِّ[1] ، ومن ناظرٍ بيقين عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشَرْطِ فِكْرٍ ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع ، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهارٍ ، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب[2] مصحية[3] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ
أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات
سواءً محياهم ومماتُهم ساءَ ما يَحْكُمون » .

أَمَنْ خفضناه فى حضيض الضَّعة كَمَنْ رفعناه إلى أعالى المَنَعَة ؟

أَمَنْ أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه ؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَيْنَاه ، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُهْدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعِه واحتراق قلبه . . فما أنعشناه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ مَنْ اتخذ إلهه هواه وأضلَّه
الله على عِلْمٍ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وقلبه وجعل
على بَصَرِهِ غِشاوة .... » .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع ، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة ، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكليه ، ولم يؤدِّبْه إمامٌ مُقْتَدَىً فهو ينجرفُ فى كل وَهْدَةٍ ، ويهيمُ فى كلِّ ضلالة ، ويضلُّ فى كل فجٍّ ، خسرانُه أكثر من ربْحِه !! أولئك فى ضلالٍ بعيد ؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم[4] ، زمامُهم بيد هواهم ، أولئك أهل[5] المكر .. اُسْتُدْرِجُوا وما يَشْعُرون ! .

---

(١) الفراسة مما يخلقه الله فى قلب العبد من غير كسب منه ، وهى من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه القشيرى هنا (لوحاً) يسميه فى موضع آخر (سواطع) أنوار تلمع فى القلب تدرك بها المعانى (الرسالة ص ١١٦) . ولمعرفة الفرق بين اللوائح واللوامع أنظر الرسالة ص ٤٣ . ويعرف الجنيد الفراسة فيقول : هى مصادفة الإصابة ، ثم يذكر أنها موهبة كائنة دائمة (التعرف للكلاباذى ص ١٥٧) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الصحاب) بالصاد وواضح فى ذلك خطأ الناسخ .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة — كما هو واضح — أعلى درجات النظر لخلوها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فعملهم مرتهن بنفوسهم وأهوائهم .

(٥) هكذا فى (ص) وهى فى م (أصل) وهى خطأ من الناسخ لأنهم « أهل » المكر إشارة إلى قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله » .

قوله جل ذكره : « وقالوا ما هى إلاَّ حياتُنا الدنيا نموتُ
ونحيا وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ وما لهم
بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلاَّ يظنون » .

لم يَعْتَبِروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم وسَلَفَهم ، وأَزْجَوْا فى البهيمية عَيْشَهم وعُمْرَهم ، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم . . . فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالِهم الظنُّ — وهم غافلون .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ
ما كان حُجَّتَهم إلَّا أن قالوا ائتوا بآبائنا
إنْ كنتُم صادقين » .

طلبوا إحياءَ موتاهم ، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا .

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمواتِ والأرضِ لله ، وإذا أقام القيامةَ يُحْشَرُ أصحابُ البطلان ، فإذا جاءهم يومُ الخصام :

« وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً كلُّ أمةٍ تُدْعَى
إلى كتابِها اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

كلٌّ بحسابه[1] مطالَبٌ ... فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا[2] .. ويقال لهم : أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقْباكم كَذَّبتم مولاكم ؟ فاليومَ — كما نسيتمونا — ننساكم ، والنارُ مأواكم .

قوله جل ذكره : « فلله الحمدُ ربِّ السمواتِ وربِّ الأرضِ
ربِّ العالمين * وله الكبرياءُ فى السمواتِ
والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

لله الحمدُ على ما يُبْدى ويُنْشى ، ويحيى ويُفْنى ، ويُجْرِى ويُمْضِى .. إذ الحُكْمُ لله ، والكبرياءُ لله ، والعظمةُ والسَّناءُ لله ، والرفعة والبهاءُ لله .

(١) هذا أيضاً رأى يحيى بن سلام ، وقيل «كتابها» المُنزَّلُ عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ .

(٢) هكذا فى م ، وهى فى ص (ونادوا) وهى خطأ من الناسخ .

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ للقلوب سالبة ، للعقول غالبة ، للمطيعين واهبة ، للعارفين ناهبة . . فالذين يهبهم فلهم لُطفُه ، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقَه فهو عنه خَلَفُه[1] .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيز الحكيم » .

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتى فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز ، وَثَبَّتُّها فى مشاهدِ اليقينِ بنور التحقيق ؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان ، فأضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان ؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة ، وغذيناهم بنسيم الأُنْس فى ساحات القربة .

« العزيز » : المُعزُّ المؤمنين بإنزال الكتاب عليهم .

« الحكيم » ، المُحْكِم لكتابهِ عن التبديل والتحويل .

قوله جل ذكره : « ما خَلَقْنا السموات والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحقِّ وأَجَلٍ مُسَمَّىً والذين كفروا عَمَّا أُنْذِروا مُعْرِضون » .

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار ، مقيمون على حَدِّ الإصرار .

---

(1) وفى ذلك يقول شاعرهم :

ألست لى خلفا ؟ كفى شرفاً ... فما وراءك لى قصد ولا أمل

ويقول أبو حمزة موضحاً كيف أن هذا الموت فى سبيل محبوبه عين الحياة :

وتحيى محباً أنت فى الحب حتفه ... وذا عجبٌ .. كون الحياة مع الحتف !

(اللمع للسراج ص ٣٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُـلْ أرأيتم ماتدْعون من دونِ اللهِ
أرونى ماذا خَلَقُوا من الأرض أم لهم
شِرْكٌ فى السموات إيتونى بكتابٍ مِنْ
قَبلِ هذا أو أثارةٍ مِنْ عِلْمٍ إنْ
كنتم صادقين» .

أرونى .. أى أثرٍ فيهم فى الملك ، أو القدرة على النفع والضر ؟ إن كانت لـكم حُجَّةٌ فأَظْهِرُوها ، أو دلالة فبَيِّنوها .. وإذ قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلاَّ رجعتم عن غيِّكم وأقلعتم ؟

قوله جل ذكره : « ومَنْ أَضَلُّ ممن يدعو مِنْ دونِ اللهِ
مَنْ لا يستجيب له إلى يومِ القيامة وهم عن
دعائِهم غافلون » .

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذى ليس له حياة ولا له فى النفع أو الضر إثبات ؟

قوله جل ذكره . « وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء
وكانوا بعبادتهم كافرين » .

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال
الذين كفروا للحقِّ لمَّا جاءَهم هـذا
سِحْرٌ مبين » .

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر .. قُـلْ — يامحمد — كفى بالله بينى وبينكم شهيداً ؛ أنتم أشركتم به ، وأنا أخلصت له توحيداً . وما كنت بدعاً من الرسل ؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل ، ولا بغير ماجاءوا به من أصول التوحيد جئتُ ، إنما أمرتكم بالإخلاص فى التوحيد ، والصدقِ فى العبودية ، والدعاءِ إلى محاسن الأخلاق .

قوله جل ذكره : « وما أدْرِى مايُفْعَلُ بى ولا بكم إنْ

أتَّبِـعُ إلَّا مايُوحَى إلَىَّ وما أنا إلاَّ
نذيرٌ مبين » .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى : « ليغفرَ لكَ اللهُ ماتقدم من ذنبك وما تأخر »[1] .

وفى الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا : « إيلامُ البرىء قبيحٌ فى العقل » . لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لـكان يقول : أَعْلَمُ — قطعاً — أنى رسول الله ، وأنى معصومٌ .. فلا محالةَ يغفر لى ، ولـكنه قال : وما أدرى ما يُفْعَلُ بى ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه ، والحـكمَ حـكْمُه ، وله أن يفعلَ بعباده مايريد[2] .

قوله جل ذكره : « قُـلْ أرأيتم إنْ كان مِنْ عندِ اللهِ
وكَفَرْتُم به وشَهِدَ شاهـدٌ[3] من
بنى إسرائيل على مِثْلِهِ فآمن واستكبرتُم
إنَّ اللهَ لايَهْدِى القومَ الظالمين » .

تبيَّنَ له أنه لاعُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله . وما يستروحون إليه من حُجَجِهم عند أنفسهم كلُّها — فى التحقيق — باطلٌ . وأخبر أن الـكفار قالوا : لو كان هذا الذى يقوله

---

(١) آية (٢) سورة الفتح وبنزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل به — وبنزول هذه الآية أرغم الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! وهنيئاً لنا !

(٢) القشيرى ينكر أن يذهب البشر إلى التماس تعليلات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأغراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما فى غير نطاق الإنسانية فلا ينبغى إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وخير وشر ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والغرض .. والله منزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شىء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبى عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال الرسول (ص) : أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخارى حـ٢ ص ٢٢٦) .

من الحشر والنشر حقًّا لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ ، ولتقدَّمْنا — فى الاستحقاق — على الكُلِّ . ولمّا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا :

« فسيقولون هذا إفكٌ قديم » .

ولقد بَعَثَ اللهُ أنبياءَه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الكتب ، وبيَّنَ فى كلِّ كتابٍ ، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولكن القومَ الذين فى عصر نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — كتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا
فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون » .

مضى تفسيرُ الاستقامة . وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِىَ بكلِّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين فى « الاستقامة » سين الطَّلَب ؛ وإن المستقيم هو الذى يبتهل إلى الله تعالى فى أن يُقيمَه على الحق ، ويُثَبِّتَه على الصدق .

قوله جل ذكره : « ووَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه إحساناً
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ووضعته كُرْهًا » .

أَمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام ، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام ، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد . ولو لم يكن فى هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما » لكان ذلك كافياً . ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام . ووَعَدَ اللهُ على برِّ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره :

« أولئك الذين نتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عَمِلوا
ونتجاوزُ عن سيئاتِهم فى أصحاب الجنة
وَعْدَ الصدقِ الذى كانوا يوعَدون » .

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين . وقد ذمَّ اللهُ — سبحانه — الذى

يتصف فى حقهما بالتأفُّف ، وفى ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أى تعنُّف ، وعلى أنَّ الذى يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران ، وبالتالى يكون ناقصَ الإيمان .

وسبيلُ العبدِ فى رعاية حق الوالدين أن يُصْلِحَ ما بينه وبين الله ، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره — على العموم ، وأهله — على الخصوص .

وشَرُّ خصال الولد فى رعاية حق والديه أَنْ يتبَرَّم بطول حياتهما ، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ[1] ، وقد قالوا فى هذا المعنى :

رويدك إن الدهــــــرَ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البيْنِ . . فانتظر الدهرا[2]

قوله جل ذكره : « ويوم يُعْرَضُ الذين كفروا على النارِ أَذْهَبْتُم طيباتِـكم فى حياتـكم الدنيا واستمتعتم بها فاليومَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرضِ بغير الحقِّ وبما كنتم تَفْسُقُون » .

سبيلُ العبد ألا ينسى فى كل حالٍ معبودَه ، وأَنْ يتذكرَ أنه معه فى همِّهِ وسروره ، وفى مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أَنْ حَصَلَ له أُنْسٌ ، وغَلَبَ عليه رجاء وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسّهُ خوف . . فليخاطبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له : « أذهبتم طيباتـكم فى حياتـكم الدنيا . . . »

قوله جل ذكره : « واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومَه بالأحقافِ[3] وقد خَلَتْ النُّذُرُ من بين

---

(١) أى أن أولاده سوف يعاملونه بالكيفية التى عامل بها أبويه .

(٢) إذا لاحظنا اهتمام القشيرى هنا برعاية حقوق الأبوين ، وإذا تذكرنا أنه فى موضع آخر يرى أن حقوق الشيوخ والمربين لا تقل عن ذلك ؛ «لأن الوالدين يربون الأشباح ، والشيوخ يربون الأرواح » علمنا أن هذه الإشارة موجهة إلى المريدين بنفس الدرجة الموجهة إلى العموم .

(٣) الأحقاف = ج حقف وهى رمال عظام معوجة لا تبلغ أن تكون جبالا . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمن الغرق . وهناك اختلاف فى مكان ديار عاد يرجع إليه فى كتب التفسير .

يديه ومن خلفِه ألا تعبدوا إلا اللهَ إنى
أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم » .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجّه عليهم من العتاب ، وأَخْذِهم بأليم العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكّنّاهم فيما إن مكنّاكُم فيه ... »

فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم ... وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صَرَفنا إليك نَفَراً من الجنِّ
يستمعون القرآنَ فلمّا حضروه قالوا
أَنْصِتوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم
مُنْذِرين » .

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجنِّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه ليلة الجن[1] وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فاليومَ فى الجن مؤمنون ، وفيهم كافرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته — صلى الله عليه وسلم — تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا بساطَه : « أنصتوا » ، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ ، والهيبة والوقار . والثورانُ أو الانزعاجُ يدل على غيبةٍ أو قِلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع[2] . « فلما قُضِيَ . . » يعنى الوحى « ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

قوله جل ذكره : « يا قومَنا أجيبوا داعِيَ الله وآمِنوا

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة النبى وهو يقرأ القرآن — لَغَطاً وغمغمة ، وشاهد أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيرى ينصح بالكتمان ولا يرى الإفصاح ، وقد سئل الجنيد فى ذلك فأجاب : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (أنظر بحث هذه القضية فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى» ط المعارف ص٢٢٩).

به يغفرْ لكم من ذنوبِكم ويُجِرْكم
من عذابٍ أليم » .

يقال الإجابة على ضربين : إجابةٌ لله ، وإجابة للداعى ؛ فإجابة الداعى بشهود الواسطة — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابةُ الله بالجهرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب ؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيبٌ بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه . ومن توقف عن دعاء الداعى إيَّاه ، ولم يبادرْ بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخَاطب به[1] .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا أن اللهَ الذى خَلَقَ
السموات والأرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقِهِنّ
بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ؟ بلى :
إنه على كل شىء قدير » .

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم .

« ولم يَعْىَ » أى ولم يعجز ولم يَضْعُف .

قوله جل ذكره : « ويوم يُعرضُ الذين كفروا
على النار » .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

« أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا . قال : فذوقوا
العذابَ . . »

جزاءً لكم على كُفْركم .

قوله جل ذكره : « فاصبِرْ كما صَبَرَ أولوا العَزم
من الرُّسُلِ » .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (يطالب به) وكلاهما مقبول فى السياق فالدعاء خطاب ومطالبة للمدعو .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء فى التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ،ومحمد صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ لحكمِ الله ، والثباتُ من غير بَثٍّ ولا استكراهٍ .

قوله جل ذكره : « كأنهم يومَ يَرَوْنَ ما يوعَدُون

لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ » .

ويقال مُدّةُ الخلْقِ : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزليّة[1] كلحظةٍ بل هى أقلُّ ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خَطَرٍ لما حصل فى لحظةٍ . . خيراً كان أو شرّاً ؟ !

---

(1) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد "صلى الله عليه وسلم" [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جلَّتْ رُتْبَتُهُ ، ومَنْ عَرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حالتُهُ ، ومَن أحبَّ « بسم الله » أشكلت قصته[2] ، ومَن صَحِبَ « بسم الله » امتحقت أَنِّيَتُهُ[3] ، وتلاشت — بالكلية — جُمْلَتُهُ .

قوله جل ذكره : « الذين كَفَروا وصَدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالَهم * والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كَفَّرَ عنهم سيئاتِهم وأصلح بالَهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصَدُّوا فَمُنِعُوا ؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحَجْبَةَ والغيبة .

« أضل أعمالهم » : أى أحبطها .

« والذين آمنوا .. » بما نُزِّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

---

(١) وتسمى عند بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام فى هذه النقطة كثير لا يتسع له هامش ضيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة المحبين الإلهيين مشكلة فيكفى أن يعلم أن قمة هذه القصة الوصول إلى التوحيد .. أن يختفى الموحِّد فى الموحَّد فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فبالله ، وإن تحرك فبالله . هو بين الناس كائن وعنهم بائن ، يقضى عمره بين وجد وفقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة فى كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى » باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشريته لا بشريته .

أصاحِ حالهم ، فالكفرُ للأعمالِ مُحْبِطٌ ، والإيمانُ للتخليد[1] مُسْقِط .

ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ اللهِ ، ولم يعملوا[2] شيئاً مما خَالَفَ اللهَ — فلا محالةَ — نقوم بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّ الذين كفروا اتَّبعوا الباطلَ
وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من ربِّهم
كذلك يضرِبُ الله للناسِ أمثالَهم » .

أى يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم .

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّة ، ورعايةِ حقوق الله ، وإيثار رضاه ، والقيام بطاعته .

ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحظوظ ، وارتكابِ المعصية .

قوله جل ذكره : « فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ
الرِّقاب حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثاقَ
فإمَّا مَنًّا بعْدُ وإمَّا فِداء حتى تَضَعَ الحربُ
أوزارَها » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفوُ عنهم وتَرْكُ المبالغةِ فى التشديد عليهم — للندمِ مُوجِبٌ ، وللفرصةِ تضييعٌ ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم ، واستئصالُ أصولِهم ، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله .

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفسه فلا ينبغى أن يُبْقِىَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة ، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه[3].

« فإمَّا مَنًّا بعد وإمَّا فداء » ذلك إذا رجا المسلمون فى ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراجِ

---

(١) العذاب المؤبد .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ولم يعلموا) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التى بين جنبيك هى أعدى أعدائك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تقودك إلى دواعى الهوى ، وفى ذلك عند الصوفية شِرْكٌ خفى .

الكفارِ عن قومٍ من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفِداء .. وأمثال هذا ، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام [1].

كذلك حال المجاهدة مع النَّفْس : حيث يكون فى إغفاءِ ساعةٍ أو فى إفطارِ يومٍ ترويحٌ للنفس من الكَدِّ ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد ، أو فتوى لسانِ الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة [2].

قوله جل ذكره : « والذين قُتِلُوا فى سبيلِ اللهِ فلَنْ يُضِلَّ أعمالَهم * سيهديهم ويُصْلِحُ بالَهم * ويُدْخِلُهم الجنَّةَ عرَّفَها لهم » .

إذا قُتِلَ أحدٌ فى سبيل الحقِّ تولّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول .

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه ؛ فيُعْظِمُ ثوابَه ، ويُكْرِمُ مآبَه .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إنْ تنصروا اللهَ يَنصرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقدامَكم » .

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرةُ اللهِ للعبد بإعلاء كلمته ، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهمَّته .

« ويثبت أقدامكم » بإدامةِ التوفيقِ لئلا ينهزمَ من صولةِ أعداءِ الدين .

قوله جل ذكره : « والذين كَفروا فَتَعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم * ذلك بأنهم كَرِهوا ما أنزل اللهُ فأحبط أعمالَهم » .

---

(١) الإمام الحق فى أن يقتل أو يمن أو يفادى أو يسترق . والرسول نفسه . قتل عقبة بن معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومنّ على ثمامة الحنفى وهو أسير ، ومن على سبى هوازن ، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة فى الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذهب الشافعى .

(٢) تهمنا هذه الفقرة إذا تذكرنا أن القشيرى متشدد فى الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهمنا فى معرفة من الذى يمنح الرخصة للمريد ؟

تعساً لهم : لعناً وطرداً ، وقمْعًا وبُعْداً !

« أضلَّ أعمالهم » : هَتَكَ أستارَهم ، وأَظْهَرَ للمؤمنين أسرارَهم ، وأَخْمَدَ نارَهم .

قوله جل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبة الذين مِنْ قبلهم » .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأفناهم ؟

قوله جل ذكره : « ذلك بأن اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا وأنَّ الكافرين لا مَوْلَى لهم » .

المولى[1] هنا بمعنى الناصر[2] ؛ فاللهُ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم .

أو المولى من الموالاة وهى ضد المعاداة ، فيكون بمعنى المحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أى مُحِبُّهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى فى آية أخرى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت »[3] .

ويصح أن يقالَ إنَّ هذه أرجى[4] آية فى القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى الذين آمنوا » ولم يقل : مولى الزهَّادِ والعُبَّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتهادِ ؛ فالمؤمنُ — وإنْ كان عاصياً — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و « آمنوا » فعل ، والفعل لا عمومَ له)[5] .

قولهُ جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ »

---

(١) تضاف أقوال القشيرى هنا فى (المولى) إلى حديثه عن ذلك الاسم فى كتاب «التحبير فى التذكير» وإلى حديثه فى (الولاية والولى) فى مواضع متفرقة من مصنفاته .

(٢) جاءت (الناظر) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

(٤) جاءت (أوحى) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٥) سقطت العبارة بين القوسين من ص وجاءت فى م . والقشيرى مستفيد من السياق القرآنى إذ عَبَّرَ عن الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وعبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لامولى لهم » .

مضى الـكلامُ فى هذه الآية .

« والذين كفروا يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم » .

الأنعامُ تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الـكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام .
[كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل فى كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الـكافر ، وفى الخبر : « إنه يأكل فى سبعة أمعاء » . أمَّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما فى الخبر : « إن كان ولا بُـد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس » و« ما ملأ ابن آدم وعاءً شَرّاً من بطنه »][1] .

ويقال : الأنعامُ تأكل على الغفلة ؛ فَمَنْ كان فى حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكل الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من قريةٍ هى أشدُّ قوةً من قرْيتك التى أخْرَجَتْكَ أهلـكناهم فلا ناصرَ لهم »[2] .

« أهلـكناهم » : يعنى بها مَنْ أهلـكهم من القرون الماضية فى الأعصر الخالية .

قوله جل ذكره : أفَمَـنْ كان على بَيِّنةٍ مِنْ ربِّه كَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه واتبعوا أهواءَهم » .

« البيِّنة » : الضياء والحُجَّة ، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماءُ فى ضياءِ برهانهم ، والعارفون فى ضياءِ بيانهم[3] ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط بتمامه من ص وثابت فى م ، وهذه الأخبار موجودة فى الجامع الصغير حـ٢ ص ١٥٣ وفى كتاب « الأطعمة » بالجزء الثالث من صحيح البخارى ، « والأذكار » للنووى . وتكملة الخبر الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، وروى كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبى (ص) من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إلىّ ولولا المشركون أهلك أخرجونى لما خرجت منك » فنزلت الآية — ذكره الثعلبى ، وهو حديث صحيح .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (ثباتهم) ولكن ما فى ص هو الأصوب ؛ لأننا نعرف من مذهب القشيرى أن (البيان) للعارفين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المتقون فيها
أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ ، وأنهارٌ من
لبنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ
للشاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولهم
فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من ربِّهم ».

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، فلهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ، ثم شرابٌ حالَ اللقاء .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى أحدٍ فى أيام غيبته عن أحبابه :

وما سَرَّ صدرى مُنْذ شطَّ بك النوى
أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كل شَوْبٍ ، فلا كدورةَ فى عهده ، وهو فى كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسِه ، خالٍ من مُطَالَباته[1] ، قائمٌ بلا شُغلٍ — فى الدنيا والآخرة — ولا أَرَبٍ .

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار ، ولم يَغِبْ بِسِرِّه لحظةً فى ليلٍ أو نهار .

ومَنْ شَرِبَ فى حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه ؛ فلم يطلب — مع بقائه — شيئاً آخَرَ من عطائه ؛ لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه[2] .

قوله جل ذكره : « ومنهم مَنْ يستمع إليك حتى إذا
خرجوا مِنْ عِندِك قالوا للذين أوتوا

---

(١) أى مطالبات الحظوظ ؛ حظوظ النفس .

(٢) ننبه إلى أهمية هذه الفقرة التى أطال فيها القشيرى حديثه عن الأشربة حيث لم يتناولها بتفصيل فى رسالته عند بحث مصطلح السُّكْر .

العِلْمَ ماذا قال آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ اللهُ
على قلوبِهِم واتَّبعوا أهواءَهم » .

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللهُ ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم .

« والذين اهتدوا زَادَهم هُدَىً وآتاهم
تقواهم » .

« اهتدوا » : بأنواع المجاهدات ، « فزادهم هدىً : بأنوار المشاهدات .

« اهتدوا » : بتأمل البرهان ، « فزادهم هدى » بِرَوْح البيان .

« اهتدوا » : بعلم اليقين ، « فزادهم هدىً » : بحقِّ اليقين .

[« اهتدوا » : بآداب المناجاة ، « فزادهم هدىً » : بالنجاة ورَفْعِ الدرجات .

« اهتدوا » : إلى ما فيه من الحقِّ ولم يختلفوا فى أنه الحق ، « فزادهم هدىً » بالاستقامة على طريق الحق][1] .

قوله جل ذكره : « فهل ينظرون إلا الساعةَ أن تأتيهم
بغتةً فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا
جاءتهم ذِكْراهم* فاعْلَمْ أنَّه لا إلـه إلا اللهُ
واستغفِرْ لِذَنْبِكَ وللمؤمنين والمؤمنات » .

كان عالماً بأنه : « لا إله إلا الله » فأمره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : « أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له[2] » .

ويقال : كيف قيل له : « فاعلم . . » ولم يقل : عَلِمْتُ ، وابراهيم قيل له : « أَسْلِمْ[3] . . » فقال : « أسلمت ... » ؟ فيُجاب بأنَّ ابراهيمَ لمَّا قال : « اسلمت » ابْتُلِيَ ، ونبيَّنا صلى الله عليه وسلم لم يقل : علمت فعُوفِيَ .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى ص وموجود في م .

(٢) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له)
والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٣) آية ١٣١ سورة البقرة : « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وابرهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْع كَشَفَ سِرَّه ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يأتِ بعدَه شرعٌ .

ويقال : نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله : « آمن الرسول[1] .. » والإيمان هو العلم — وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

ويقال : فرقٌ بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال له : « وقُلْ ربٌّ زدنى علماً[2] » .. فكم بين مَنْ أُحيلَ فى استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق ! ! .

ويقال لَمَّا قال له « فاعلم أنه لا إله إلا الله[3] » كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق ، ثم بالانقطاع منه — أى من الرسول — إليه .. أى إلى الحق سبحانه . والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة — أى كان بصفة النسيان — فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ ؛ كأن تُقال عند التعجب من شيء .. فليس لهذا قَدْرٌ . أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها ، ذاكراً لمعناها ، متحققاً بحقيقتها .. فإنْ كان بنفسه فهو فى وطن التفرقة .. وعندهم[4] هذا من الشِّرْكِ الخفىِّ ، وإن قالها بحقٍ فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليلٍ وحُجَّةٍ ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبِيٌّ .. وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كل علم استدلالى[5] ! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ الله على القلب . فإذا انتهى إلى حال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ فى تلك الحالة ضرورياً . ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالىّ وكأنه غافل[6] عن نفسه أو ناسٍ لنفسه .

---

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون» .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق القشيرى بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أى عند أرباب الحقائق ، لأن أى شعور بالغيرية نتيجة عدم الإخلاص نقص فى التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أن الصوفية لا يهملون العقل تماماً بل يحترمونه فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ، ولكنهم لا يعولون عليه تماماً فى بقية معراجهم الروحى . وهذا رد حاسم على من ينكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل والعلوم العقلية .

(٦) فى ص (وكأنه قال) وهى خطأ من الناسخ كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : الذى على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق فى البحر فلا إحساسَ له بشىء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك[1] .

« واستغفِرْ لذنبك » : أى إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا ؛ فإن الحقَّ — على جلال قدْرِه — لا يعلمه غيره[2] .

قوله جل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ
مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيتَ الذين
فى قلوبهم مَرَضٌ ينظرون إليك نَظَرَ
المغشىِّ عليه من الموتِ ...

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحى ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحىُ بسرعةٍ فقال تعالى : « لولا نزلت سورة محكمة[3] وذكر فيها القتال » رأيتَ المنافقين يكرهون ذلك لِمَا كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم — بغاية الكراهة .

... فأَوْلَى لهم » .

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من شيخه أبى على الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا : «التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر» الرسالة ص ٣٧ .

(٢) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها فى الصلاة والاستغفار : « إن صلاتنا فى حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا فى حاجة إلىاستغفار» كما يذكرنا بقول القشيرى فى موضع مماثل: «... جلت الصمدية عن أن يستشرف من إدراكها بشر» ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها	فكيف كيفية الجبار فى القِدَمِ ؟
هو الذى أحدث الأشياءَ مبتدءاً	فكيف يدركه مستحدث النسم ؟

(شذرات الذهب حـ٢ ص ٢٤٩) .

(٣) قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وقيل معناها مبينة غير متشابهة ، لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد[1] .

قوله جل ذكره : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أُمِرُوا به من الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثَلُ بهم .

قوله جل ذكره « فإذا عَزَمَ الأمرُ فلو صَدَقُوا اللهَ لـكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جَدَّ وفُرِضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدوا فى الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكمُ » .

أى فلعلكم إنْ أعرضتم عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا فى الأرض ، وتسفكوا الدماء الحرامَ ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لَعَنَهم اللهُ فأَصَمَّهُم وأعمى أبصارَهم » .

أصمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم ، وأعمى بصائرَهم .

---

(1) يقول الشاعر :

فأولى ثم أولى ثم أولى   وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

وقال الأصمعى معناها : قاربه ما يهلكه وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها   وأولى أن يزيد على الثلاث

وقال المبرد : يقال لمن همَّ بالعطب : أولى لك ! أى : قاربت العطب .

قوله جل ذكره : « أفلا يتدبَّرون القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أقفالها » .

أى إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحيُّر .

« أم على قلوبٍ أقفالها » : أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُدَاخِلُها زاجرُ التنبيه ، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم ، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب ؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً .. فكما لا يدخل فيه شئ لا يخرج منه شىء ؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ ، فلا الكفرُ الذى فيها يَخْرُجُ ، ولا الإيمانُ الذى هم يُدْعَوْن إليه يدخل فى قلوبهم .

وأهلُ الشِّركِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم ، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين ارتدُّوا على أدبارِهم مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الهُدَى الشيطانُ سَوَّلَ لهم وأَمْلَى لهم » .

الذى يطلع فجرُ قلبه ، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه ، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِهِ ، وأظلم نهارُ عرفانه ، ودَجا ليلُ شَكِّه ، وغابت نجومُ عقله .. فحدِّث عن ظُلُماته . . ! ولا حرج ![1]

[ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين ، وتظاهرهم .. فإذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم ، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم .] [2] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين فى قلوبِهم مَرَضٌ أَنْ لن يُخْرِجَ اللهُ أضغانَهم » .

ليس الأمرُ كما تَوَهَّموه ، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم ، ولقد أخبر الرسولَ عنهم ، وعرَّفه أعيانَهم .

---

(١) القشيرى هنا يغمز بمن ينتمون إلى طريقة الصوفية ثم يفسخون عقدهم مع الله ، ويتخلون عن طريق الإرادة بعد قطعهم مسافة قصيرة .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى م وثابت فى ص .

قوله جل ذكره : « ولو نشاءُ لأريناكهم فَلَعَرَفْتَهم بسيماهم ولَتَعرِفَنَّهم فى لَحْنِ القولِ » .

أى فى معنى الخطاب ، فالأَسِرَّةُ تَدُلُّ على السريرة ، وما يخامر القلوبَ فعلى الوجوهِ يلوحُ أثرُه :

لستُ ممن ليس يــدرى ما هــوان من كرامة
إنَّ للحبِّ وللبغــضِ على الوجــه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة[1] ، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق ، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء[2] .

ويقال : بصائرُ الصديقين غيرُ مُغَطَّاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر »[3] .

قوله جل ذكره : « ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخبارَكم » .

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال ، فيظهر المخلصُ ، ويفتضح المماذقُ ، وينكشف المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخاصوا ، والذين كفروا ونافقوا وقعوا[4] فى الهوان وأُذِلُّوا ، ووسِموا بالشقاوة وقُطعوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ ولا تُبْطِلوا أعمالَكم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بعين الفراسة) . روى الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة ، والترمذى من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم والبزاز بسند صحيح عن أنس «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» .

(٢) يفيد هذا الكلام فى ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موحد فالموحدون أعلى درجات السائرين .

(٣) يقول القشيرى فى كتابه «المعراج» ص ٧٢ : (كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره قال (ص) : «سدوا كل خوخة غير خوخه أبى بكر» . وذلك لما فتحوا فى المسجد من كل دار خوخة ، والإشارة فيه أن الصديق ليس بممنوع من الإبصار بحال) .

(٤) سقطت (وقعوا) فى ص ، وموجودة فى م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالمساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعواض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله[1] .

قوله جل ذكره : « فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأَعْلَوْن واللهُ معكم » .

أى لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة[2] .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله معكم » . أى بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله معكم — لا يخفى عليه شيءٌ منكم ، فهو على الدوام يراكم . ومَنْ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشقةٍ مشتغلاً برؤيته :

« ولن يَتِرَكُم أعمالَكُم »

أى لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنَّما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وإنْ تؤمنوا وتتقوا يُؤْتِكُم أجورَكم ولا يسألكم أموالَكم » .

تجنبوا الشِّركَ والمعاصى حتى يَفِيَكُم أجورَكم .

واللهُ لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة[3] .

« إنْ يسألْكموها فيُحْفِكُم تبخلوا ويُخْرِجْ أضغانَكم » .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيرى أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينا ، ومعصيته لا تلحق به سبحانه شينا. «والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نعتمد على النسخة ص فى بقية السورة ، وهى مساحة كبيرة .

(٣) وهى على حد تعبير سفيان بن عيينه : غيض من فيض .

« الإحفاء » الإلحاح فى المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأمَّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم فى باب حرية القلب فلا يُسامَحون فى استيفاءِ ذَرَّةٍ ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح ، والتزام الغرامات .

قوله جل ذكره : « ها أنتم هؤلاءِ تُدْعَوْنَ لتنفقوا فى سبيلِ اللهِ فمنكم مَنْ يبخلُ ومَنْ يبخلْ فإنما يبخلُ عن نَفْسِه » .

البخلُ مَنْعُ الواجب ، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لَحصَلَ له الثراء — هكذا يظن .

وقوله جل ذكره : « واللهُ الغنىُّ وأنتم الفقراءُ » .

« غنىٌّ » بنفسه على قول ، وغنىٌّ بوصفه على القول الثانى[1] . وغناه كونه لا تتقيد مراداتُه . أمَّا العبدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغنى عن مولاه ؛ فى الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء ، وهو فى دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله . وصِدْقُ الفقير فى شهود فقره إلى الله . ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله ، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع فى الذُّلِّ والهوان .

ويقال : اللهُ غنىٌّ عن طاعتِكم ، وأنتم الفقراءُ إلى رحمتِه .

ويقال : اللهُ غنىٌّ لا يحتاج إليكم ، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه .

قوله جل ذكره : « وإنْ تَتَوَلَّوْا يستبدِلْ قومًا غَيْرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم » .

يستبدل قومًا غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدقَ منكم وفاءً ؛ فهو قادرٌ على خَلْقِ أمثالِكم ثم لا يكونون أمثالَكم فى العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاء ... بل سيكونون خيراً منكم .

---

(١) أى يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « الغنىّ » فى كتاب «التحبير فى التذكير» للإمام القشيرى تحقيق د. بسيونى .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُمُوِّه فى أزَلِهِ ، وعُلُوِّه فى أبَدِه ؛ وسُمُوُّه فى أزله نَفْىُ البداية عنه بحقِّ القِدَم ، وعُلُوُّه فى أبده نَفْىُ الانتهاء عنه باستحالة العَدَم ؛ فمعرفةُ سُمُوِّه توجِبُ للعبد سُمُوًّا ، ومعرفةُ عُلُوِّه توجِبُ للعبدِ عُلُوًّا[1] .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً » .

قضينا لك قضاءً بَيِّناً ، وحكمنا لكَ بتقويةِ دينِ الإسلام ، والنصرةِ على عدوِّك ، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك — مِنْ قَبْلِك — بتفصيلِ شرائعِ الإسلام ، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآيةُ فى فتحِ مكة ، ويقال فى فتح الحُدَيبية[2] .

ويقال : هديناك إلى شرائع الإسلام ، ويَسَّرْنا لك أمورَ الدين .

« ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّم مِنْ ذنبك وما تأخر » .

---

(١) واضح أن مذهب القشيري في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأدب بها ، والتخلق بأخلاق الله .. فالعمل مترتب على العلم (انظر مقدمتنا لكتاب التحبير فى التذكير) .

(٢) يقال نزلت هذه السورة بين مكة والمدينة (رواية محمد بن اسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم) وأنها نزلت في شأن الحديبية. (كذلك فى البخاري في سماع قتادة عن أنس) . وقال الضحاك : «مبينا» أي بغير قتال . وقال مجاهد : كان فتح الحديبية آية عظيمة إذ نزح ماؤها فمج فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة : غفر الله له ذنبه ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدِّم والمتأخِّر — كان قبلَ النبوة[1] .

ويقال « ما تقدَّم » من ذَنْبِ آدمِ بحُرْمتك ، « وما تأخر » : من ذنوب أُمَّتك[2] .

وإذا حُمِلَ على تَرْكِ الأوْلَى[3] فقد غفر له جميع ما فعــــل من قبيل ذلك ، قبل النبوة وبعدها[4] .

ولمَّا نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى :

« لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . ويقال : حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين .

« ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويَهْدِيكَ صراطاً مستقيماً » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله غداً ، [وبإظهار دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ، وبأنه أقْسَمَ بحياته ، وخصَّه بالعيان][5] . وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج ، وبأن بَعَثَه إلى سائِرِ الأمم . . وغير ذلك من مناقبه .

« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراطِ المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ، ويهدى بك الخَلْقَ إلى الحقِّ .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك .

« وينصرك اللهُ نصراً عزيزاً » .

---

(١) نصَّ القشيرى على «قبل النبوة» لأن الأنبياء معصومون من الذنب.

(٢) هذا أيضا قول عطاء الخراسانى .

(٣) ترك الأولى تعبير أدبي مهذب عن «الذنب». ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جمرات فى وجوه المشركين قائلا : «شاهت الوجوه .. حم . لاينصرون» . فانهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . وعند عودة النبى مع أصحابه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(٤) روى الترمذى عن أنس أن النبى فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض» .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في ص وغير موجود في م .

لا ذُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا يَغْلِبُكَ أَحَدٌ :

ويقال : ينصرك على هواكَ ونَفْسِك ،وينصرك بُحسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذىمن قومك.

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزّاً لك ولمن آمن بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أَكْرَمَ بها نبيَّه — صلى الله عليه وسلم — وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفْس والعدو ، وتيسير ما انغلق على غيره ، والمغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذى أنزل السَّكينةَ فى قلوبِ المؤمنين » . .

السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والُحجَج ، فيرتقى القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد ، فتصير العلومُ ضروريةً[1] . . وهذا للخواصِّ .

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطمأنينةُ واليقين .

ويقال : من أوصافِ القلب فى اليقين المعارف والبصائر والسكينة .

وفى التفاسير : السكينة ريح هفَّافة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

«ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً » .

« جنود السموات والأرض » : قيل : هى جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما به من قوىً تقهر أعداءَ اللهِ .

(١) أى لا تعود كسبية حيث لم يعد للإنسان من نفسه لنفسه شىء .

ويقال : هم أنصارُ دينه .

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيء فهو من جنوده ، سواء سلَّطَه على وليِّه فى الشدة والرخاء، أو سلَّطَه على عدوِّه فى الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ
تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدين فيها
ويُكَفِّرَ عنهم سيئاتِهم ، وكان ذلك
عند اللهِ فوزاً عظيماً » .

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويحطها عنهم . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظَّفَرُ بالبغية[1] .
وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به .

قوله جل ذكره : «ويُعَذِّبَ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين
والمشركات ، الظانِّين باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ
عليهم دائرة السَّوْء » .

يعذبهم فى الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و« ظن السوء » : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أنَّ الله لاينصر دينَه ونَبِيَّه عليه السلام.

« عليهم دائرة السوء » : عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم .

« ولَعَنَهم» : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كلمتُه ، وما سبقت لهم — من الله سبحانه — قِسْمتُه .

قوله جل ذكره : إنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً ».

« أرسلناك شاهداً » : على أُمَّتِكَ يومَ القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدنا . « ومبشراً » : لهم مِنَّا بالثواب ، . « ونذيراً » للخَلْق ؛ زاجِراً ومُحَذِّراً من المعاصى والمخالفات .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص بالنعمة .

ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلِنا ، ومُبَشِّراً بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا ومِنَّا .

قوله جل ذكره : « لِتُؤْمِنوا بالله ورسولِه وتُعَزِّروه وتوقِّروه وتسبحوه بُكْرَةً وأصيلاً ».

قرىء[1] : « ليؤمنوا » بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أى الرسول ، ويوقروه : أى يُعَظِّموا الرسولَ . وتُسَبِّحوه : أى تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً[2] .

وقرىء : « لتؤمنوا » — بالتاء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزروه — على المخاطَبة. وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك ، وتقديمِ حُكْمِهِ على حُكْمِك . وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِهِ ، والعلم بأنه سيِّدُ بَرِيَّته[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُبايعونَكَ إنمايُبايعُون الله».

وهذه البيعة هى بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة[4] .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عثمانَ رضى الله عنه إلى قريش ليُكلِّمَهم فأرجفوا بقَتْلِه . وأتى عروة بن مسعود[5] إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك ، وكأنِّى بأصحابك

---

(١) قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبى عمرو .. وكذلك «يسبحوه» بالياء ، والباقون بالتاء على الخطاب

(٢) ونلاحظ أن القشيرى قدتوقف قبل تسبحوه فجعلها بالتاء ،وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبى حـ١٦ ص ٢٦٧) .

(٣) عزوت الرجل أى رددت عنه ونصرته وأيَّدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتى بمعنى أدَّبته ولُمْتُه .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : «قد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» والسمرة : شجرة الطلح .

(٥) جاء فى السيرة لابن اسحاق حـ٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوى قتالا وتعاقبت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يذهب إلى النبى ثم يعود ليقنع قريش بحقيقة نية النبى ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثقفى — وهو عند قريش غير متّهم وقال للنبى «إن قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها أبداً عليهم عنوة . وحينما قال عروة : وايم الله لكأنى بهؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشفوا عنك غداً . فانبرى أبو بكر قائلا : أنحن ننكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح ! فقال أبو بكر : أتظن أنَّا نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أن يُقاتِلوا وألا يهربوا[1] ، فأنزل الله تعالى:

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » : أى عقْدُك عليهم هو عقد الله .

قوله جل ذكره : « يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم » .

أى « يد الله » : فى المنة عليهم بالتوفيق والهداية[2] : «فوق أيديهم» بالوفاء حين بايعوك.

ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرة دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوقَ نَصْرِهم لدين الله ولرسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع[3] كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

قوله جل ذكره : « فَمَنْ نَكَثَ فإنما ينْكُثُ على نَفْسه»

أى عذابُ النكثِ عائدٌ عليه .

«ومَنْ أَوْفَى بما عَاهَدَ عليه اللهَ فَسيُؤْتيه أَجْراً عظيماً » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً .

وإذا كان العبد بوصف إخلاصه ، يعامِل اللهَ فى شىء هو به متحققٌ ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التى تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً فى أسرارِه .. والحكم عندئذ راجعٌ إلى الواحد — جلَّ شأنه[4] .

---

(١) قال جابر بن عبد الله بايعنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم .

(٢) نلاحظ أن القشيرى هنا يؤول اليد حتى ينفى عن الله الاتصاف بالجارحة .

(٣) أنت حين بايعت أو حين رميت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الفرق ، ولكن الحقيقة أنه لا فاعل إلا الله فمنه التوفيق والسداد والإصابة .. وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة التمكين وبعيداً عن التلوين يكون دنوه من حال الجمع ، التى بعدها حال جمع الجمع .. ونبينا صلى الله عليه وسلم كان عندها إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى بربه لا بنفسه .

(٤) أى إذا أفضى العبد بشىء من العرفان عندئذ فيكون نطقة وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك المخلَّفون من الأعرابِ
شَغَلَتْنا أموالُنا وأهْلونا فاستغفرْ لنا
يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

لمَّا قَصَدَ رسولُ الله عليه وسلم التوجهَ إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه. قيل : هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع ، وقالوا : «شغلتنا أموالنا وأهلونا» وليس لنا مَنْ يقوم بشأننا وقالوا : انتظروا ماذا يكون ؛ فما هم فى قريش إلاَّ أَكَلَةُ رأسٍ[1]. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوه مُعتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمورهم ا وقالوا : استغفر لنا .

فأطلعه الله — سبحانه — على كذبهم ونفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك اخلاصاً ، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

« قُلْ فَمَنْ يملك لكم من اللهِ شيئاً إنْ
أرَاد بكم ضَرَّاً أو أراد بكم نفعاً بل كان
الله بما تعملون خبيراً »

فضَحَهم . ويقال : ما شغل العبد عن الله شُؤمٌ عليه .

ويقال : عُذْرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافقِ كلاهما ليس حقائق .

قوله جل ذكره « بل ظَنَنْتُمْ أنْ لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنون
إلى أهليهم أبداً وزُيِّنَ ذلك فى قلوبكم
وظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْء وكُنْتُم قوماً بُوراً ».

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً ، وزَيَّنَتْ لكم الأمانى ألا يعودوا ، وأنَّ الله لن ينصرهم . « وكنتم قوماً بوراً » أى هالكين فاسدين .

---

(١) أى هم قليل .

ويقال: إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنَّى ما تتقاصر عنه مُكْنَتُهُ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز، ونعتُ كلِّ لئيم. ثم إن الله — سبحانه — يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده «ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله[1]».

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقِبُ اللهُ بها المُبْطِل أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نَفْسَه عليه لفرط جهْله. ويُلقى الحقُّ في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسُه أن ذلك كالكائن.. ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جل ذكره: «ومن لم يُؤمنْ باللهِ ورسولِه فإنَّا أعتدنا للكافرين سعيراً»

وما هو آتٍ فقريب.. وإنَّ الله ليرخى عنانَ الظَّلَمةِ ثم لا يفاتون من عقابه.. وكيف — وفي الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذي يجريه[2] عليهم؟

قوله جل ذكره: «ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ يغفرُ لمنْ يشاء ويُعَذّبُ من يشاء وكان اللهُ غفوراً رحيماً»

يغفرُ — وليس له شريك يقول له: لا تفعلْ، ويعذّب من يشاء — وليس هناك مانعٌ عن فعلِه يقول له: لا تفعلْ.

قوله جل ذكره: «سيقولُ المُخَلَّفون إذا انطلقْتُم إلى مغانمَ لتأخذوها ذرونا نَتَّبِعْكم يريدون أن يبدلوا كلامَ اللهِ قل لن تتبعونا»

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللهُ خيبرَ،

---

(١) آية ٤٣ سورة فاطر.

(٢) هكذا في ص وهي في م (يجزيه) بالزاى وقد رجحنا (يجريه) أولاً لاتصالها بمذهب القشيري وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شيء حتى أكساب العباد. وثانيا لأنها لو كانت بالزاى لقال: يجزيهم عليه.

وأنَّ فيها سيظفرُ بأعدائه ، فلمَّا هَمَّ بالخروج أراد هؤلاء المخالفون أن يتبعوه لما علموا فى ذلك من الغنيمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما يخرج معى إلى خيبر من خرج إلى الحديبية ، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا »

فقال المتخلفون : إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا ؛ وليس هذا من قول الله ! فأنزل اللهُ تعالى ذلك لتكذيبهم ، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع ، وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ، ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ للمُخَلَّفين من الأعراب سَتُدْعونَ
إلى قوم أولى بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم
أوْ يُسلِمون فإنْ تطيعوا يؤتِكم اللهُ
أجراً حَسَناً وإنْ تتولوا كما توليتم من قبلُ
يُعَذبْكم عذاباً أليماً »

جاء فى التفاسير أنهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة — وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم ، فالآية تدل على إمامته . . وقيل هم أهل فارس — وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم ؛ فالآيةُ تدل على صحة إمامته . وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر . « أولى بأس شديد » أولى شدَّة . فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب ، وإن تخلّفتم استحققتم العقاب . ودلت الآيةُ على أنه يجوز أن تكون للعبد بدايةٌ غير مُرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح — كما كان لهؤلاء وأنشدوا :

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه
فَرَجٌّ له عَوْدَ الصلاح . . لعلَّه

قوله جل ذكره : « ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على
المريض حَرَجٌ ومنْ يُطِعْ اللهَ ورسولَه

---

(١) العبارات التى وردت فى إثبات صحة الإمامين جاءت فى م ولم ترد فى ص .

يُدخله جناتٍ تجرى مِنْ تحتها الانهارُ
ومنْ يتولَّ يُعذِّبْه عذاباً أليما »

هؤلاء أصحاب الأعذار . . رفع عنهم الحَرَجَ فى تخلفهم عن الوقعة فى قتال المشركين .

وكذلك مَنْ كان له عُذرٌ فى المجاهدة مع النفس . . فإنَّ الله يحُبُّ أنْ تؤتى رُخَصُه كما يحب أن تؤتى عزائمه[1] .

قوله جل ذكره : « لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما فى قلوبهم فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ».

هذه بيعة الرضوان ، وهى البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين . . . » .

وكانوا ألفا وخمسمائة وقيل وثلثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخولَ مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادِّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، فقصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام ، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)[2] وكان النبى قد رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شئ ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصِّدِّيقُ : لم يَقُلْ العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية ؛ لأن الله سبحانه علم ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فأنزل السكينة فى قلوبهم ،

---

(١) هذه لفتة هامة جداً ، حيث لم نتعود من القشيرى فى سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حينما يتحدث عن الصوفية يعتبر اللجوء إلى الرخصة بمثابة فسخ عقد الإرادة (أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) ما بين الأقواس تكملة من عندنا اعتمدنا فيها على المصادر المختلفة . أوردناها ليتضح السياق .

وثبّتهم باليقين. « وأثابهم فتحاً قريباً » هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة ، وماحصلوا عليه من مغانمَ كثيرةٍ من خيبر . وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة[1] .

وفى الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الانسان خواطرُ مُشكِّكة ، وفى الرَّيب موقعة ، ولكن لا عبرة بها ؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه ، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان ، قال تعالى : إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[2] .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » ويدخل فى ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجّل لكم هذه — يعنى خيبر[3] ، وقيل : الحديبية .

« وكفَّ أيدى الناس عنكم » لما خرجوا من المدينة حَرسهم اللهُ ، وحفظ عيالهم ، وحمى بَيْضَتهم حين همَّ اليهود[4] فى المدينة بعد خروج المسلمين ، فمنعهم اللهُ عنهم .

أو يقال : كفَّ أيدى الناس من أهل الحديبية .

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »

لتكون هذه آيةً للمؤمنين وعلامةً يَستدلُّون بها على حراسة الله لهم .

« ويهديكم صراطاً مستقيماً » : فى التوكل على الله والثقة به .

ويقال : كفُّ أيدى الناس عن العبد هو أنْ يَرْزُقَه من حيث لا يحتسب ، لئلا يحتاجَ إلى أن يتكففَ الناس .

ويقال : أنْ يَرْفعَ عنه أيدى الظَّلَمة .

---

(١) هذا أيضا قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) يرجح أنها خيبر ، لأن الحديبية كان فيها صلح .

(٤) يرجح الطبرى ذلك ، لأن كف أيدى المشركين فى الحديبية مذكور فى قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم »

ويقال : ألا تحمله المطالبةُ بسبب كثرة العيال و نفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء — برخصة التأويل — ماليس بطيِّب[1] .

قوله جل ذكره : « وأخرى لم تَقْدروا عليها قد أحاط اللهُ
بها وكان اللهُ على كل شيء قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس[2] . وقيل : فتح مكة[3] .

وكان الله على كل شيء قديراً : فلا تُعلِّقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا
الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً »

يعنى:خيبر وأسد وغطفان وغيرهم — لو قاتلوكم لانهزموا ، ولا يجدون من دون الله ناصراً .

قوله جل ذكره : « سُنَّةَ الله التى قد خَلَتْ من قبلُ
ولن تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلا »

أى سُنَّةُ اللهِ خذلانُهم ولن تجد لسنة الله تحويلا .

قوله جل ذكره : « وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم
وأيديكم عنهم ببطن مكة منْ بعد أنْ
أظفركُم عليهم وكان اللهُ بما تعملون بصيراً »

قيل إن سبعين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل اللهُ هذه الآيةَ فى شأنهم[4] .

---

(١) مرة أخرى ننبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف القشيرى من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هى أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى .

(٣) عن الحسن أيضاً وقتادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) فى ص ، و م (فأخذهم سلمان) ، وهما خطأ فى النسخ ، فالرواية عن يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلا من أهل مكة هبطوا على النبى (ص) من جبل التنعيم متسلحين يريدون=

وقيل أخذ اثنى عشر رجلا من المشركين — بلا عَهْدٍ — فَمَنَّ عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] وقيل : هم أهلُ الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامى الأحجار بينهم ؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، فأنزل اللهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدى بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجزٍ ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْباً وخوفاً ؛ وأمَّا المسلمون فَنَهْياً مِنْ قِبَلِ الله ، لما فى أصلابهم من المؤمنين — أراد اللهُ أن يخرجوا ، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَمَ الناسُ منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حيفٌ ، ولا منهم على أحد حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . . وكذا من كان بالحق - وأنشدوا:

فلم يبْقَ لى وقتٌ لِذِكرِ مُخَالِفٍ

ولم يبق لى قلبٌ لذكر موافق.

« قوله جل ذكره :« هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام والهَدْىَ معكوفاً أن يبلغَ مَحِلَّه »

« كفروا » وجحدوا ، « وصدوكم » ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والهدى معكوفاً[2] »: أى منعوا الهَدْىَ أن يبلغ مَنحْرَه ، فمعكوفاً حالٌ من الهدى أى محبوساً .

= غرة (أن يصيبوه على غفلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذناهم سلماً فاستحييناهم. (أى أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم (وقال ابن الأثير) السلم (بكسر السين وفتحها لغتان فى الصلح) . وفى رواية قتادة أن النبى سألهم : «هل لكم على ذمة ؟ (= أى عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فنزلت .

وفى رواية الترمذى أنهم ثمانون رجلا هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم وأعتقهم . وذكر ابن هشام أنهم يُسَمَّوْنَ العتقاء .. ومنهم معاوية وأبوه .

(١) عن قتادة : أن المشركين رموا رجلا من أصحاب النبى يقال له زُنيم بسهم فقتلوه ، فبعث النبى خيلا فأتوا باثنى عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبى (ص) : هل لكم على ذمة ؟ ... الخ .

(٢) فى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر الرسول وحلق رأسه ، فنحروا بنحره وحلقوا ، وقد غضب الرسول من توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السَّنَة سبعين بَدَنَةً .

قوله جل ذكره : « ولولا رجالٌ مؤمنونٌ ونساءٌ
مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم[1] فتصيبكم
منهم مَعَرَّةٌ بغير علم ليُدْخِلَ اللهُ فى رحمته
مَنْ يشاء »

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرَّة منكم بغير علم لَسلَّطْنا كم عليهم ولأظفرنا كم بهم.

وفى هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتتعَسَّر فيضيق قلب الإنسان . . ولله فى ذلك سِرٌّ ، ولا يعدم ما يجرى من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدرى . . كما قالوا :

كم مرة حفَّت بك المكاره خير لك اللهُ . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم
الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل اللهُ سكينَته
على رسوله وعلى المؤمنين وألْزَمَهم
كلمةَ التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها
وكان اللهُ بكل شىءٍ عليما »

يعنى الأَنَفَة[2] ؛ أى دَفَعَتْهم أنفةُ الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية ، فأنزل اللهُ سكينته فى قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة ، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْمِ .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهى كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبٍ صادق : فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشِّرْك .

---

(١) أن تطئوهم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم . فجواب لولا محذوف والمعنى : ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ، ولكننا صنا من كان فيها يكتم إيمانه .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الأنية) وقد رجحنا الأولى .

« وكانوا أحقَّ بها » حسب سابق حُكْمِه وقديم[1] علمه.. « وكان الله بكل شيء عليما »
ويقال : الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف، لا إلزام إكراهٍ وعُنْفٍ ؛ وإلزامُ برٍّ لا إلزام جبر ..

وكم باسطين إلى وَصْلنا
أكفهمو .. لم ينالوا نصيبا !

ويقال كلمة التقوى : التواصى بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هي أنْ تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس .

ويقال : هي سؤالك من الله أنْ يحرُسَك من المطامع .

قوله جل ذكره : لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ
لتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ
آمنين مُحَلِّقين رءوسَكم ومُقَصِّرِين
لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون
ذلك فتحاً قريباً . »

أي صدقه[2] في رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه[3] من دخول مكة « آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين » كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه . فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة . فلمَّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء ، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام ، ثم أذن الله في العام القابل ، فأنزل الله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تحقيقا لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق .

---

(١) هكذا في ص وهي في م (وقدر) وقد رجحنا الأولى .
(٢) أي على حذف الجار كقوله تعالى : «صدقوا ما عاهدوا الله عليه .؟
(٣) إشارة إلى الرؤيا التي أراه إياها من دخوله وصحبه مكة آمنين .

وكان فى ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : « فعلم مالم تعلموا » أنتم من الحكمة فى التأخير[1] .

وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقوله : « إن كنتم مؤمنين »

وقيل . قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة فى خطابهم[2]

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمنين أو غير آمنين .

وقيل . يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم ؛ فان الدخول كان بعد سنة ، ومات منهم قومٌ .

قوله جل ذكره . « هو الذى أرسل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ليُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه وكفى بالله شهيداً » .

أرسل رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفى ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين[3] ؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه فى أيدى المسلمين سِرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام[4] .

وقيل : فى القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشدَّاءُ على الكفَّارِ رُحَماءُ بينهم »

---

(١) قد تكون الحكمة فى التأخير هو ما سيحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام رجع من هذا الموقف إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضعاف ما كان عليه فى ذلك العام ، وأقبل على مكة فى أهبة وعدة . يدلك على ذلك أنهم كانوا عام الحديبية سنة ست عددهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله» .

(٣) أى أن (الدين) فى الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والجمع .

(٤) أى عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلابةٌ مع الـكفار .

« رحماء » . جمع رحيم ،وصَفَهَم بالرحمة والتوادِّ فيما بينهم .

« ... تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من اللهِ ورضوانًا »

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .

« ... سيماهم فى وجوهِهم من أثَرِ السجود »

أى علامة التخشع التى على الصالحين .

ويقال : هى فى القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وأنهم يكونون غداً محجلين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهُهُ بالنهار »[1]

ويقال فى التفسير : « معه » أبو بكر ، و « أشداء على الـكفار » عمر ؛ و « رحماء بينهم»: عثمان ، و« تراهم ركعاً سجداً » علىٌّ رضى الله عنهم[2]

وقيل : الآيةُ عامةٌ فى المؤمنين .

« ذلك مَثَـلُهم فى التوراةِ ومَثَـلُهم
فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأه فآزَرَهُ
فاستغلظ فاستوى على سوقهِ يُعْجِبُ
الزُّرَّاعَ ليغيظَ بهم الـكفار » .

هذا مَثَلُهم فى التوراة ، وأمَّا مَثَلُهم فى الإنجيل فـكزرع[3] أخرج شطأه أى : فراخَه .

---

(١) جاء فى سنن ابن ماجة : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلحى قال «حدثنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كثرت صلاته ...» وقال ابن العربى : هو مدسوس على وجه الغلط .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر للصحابة رضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخاص بعلى كرم الله وجهه ،وقد يمكن لوتذكرنا ما جاء فى هامش ص ٤٢٥ – أن نستنبط أن ناسخ ص – الذى هو فارسى الأصل كما قلنا فى مدخل الكتاب – ربما كان شيعياً .

(٣) فعلى هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلان. وقال مجاهد : هو مثل واحد . وعند النسفى : مكتوب فى الإنجيل :سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (حـ٤ ص ١٦٤) .

يقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صغاره على جوانبه . « فآزره » أي عاونه. «فاستغلظ » أي غَلـُظ واستوى على سوقه ؛ وآزرت الصغار الـكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزرّاع ليغيظ بالمسلمين الـكفار ؛ شَبَّهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقةواحدة ماينبت حولها فتشتد ، كذلك كان وحده فى تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فمَنْ حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل فى الـكفر، لأنه قال:« ليغيظ بهم الـكفار» أي بأصحابه الـكفارَ.ومَنْ حمله على المسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع ، لأنَّ منْ خالف الإجماع — فالله يغايظ به الـكفارَ — فمخالفُ الإجماعِ كافرٌ

قوله جل ذكره:« وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيمًا »

وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب ، وأجراً عظيماً فى الجنة فقوله : « منهم » للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان .

تم المجلد الخامس ويليه المجلد السادس والأخير
وأوله سورة الحجرات

فهـــرس

اسم الصورة	الصفحة
الشعراء	٥
النمـل	٢٣
القصص	٥٣
العنكبوت	٨٦
الروم	١٠٧
لقمان	١٢٧
السجدة	١٣٨
الأحزاب	١٤٩
سـبأ	١٧٥
فاطـر	١٩٠
يس	٢١١
الصافات	٢٢٧
ص	٢٤٥
الزمر	٢٦٦
المؤمن (غافر)	٢٩٤
فصلت	٣١٩
الشورى	٣٤١
الزخرف	٣٦١
الدخان	٣٧٩
الجاثية	٣٨٨
الأحقاف	٣٩٥
محمد (صلى الله عليه وسلم)	٤٠٣
الفتح	٤١٧

المطبعة الثقـافية

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٤٥/١٩٧٠